محجبة بين جناحي باريس

الكتاب: محجبة بين جناحي باريس
المؤلف: ماجدة حمود
الطبعة الأولى:2019
تصميم الغلاف: رهف غدير

ISBN:978-9933-592-42-4

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار

دار الحوار للنشر والتوزيع www.daralhiwar.com
ص. ب 1018 اللاذقية، سورية،
هاتف وفاكس: 339 422 41 963+
البريد الإلكتروني daralhiwar@gmail.com
info@daralhiwar.com

ماجدة حمود

محجبة بين جناحي باريس

رواية سيرية

دار الحوار

اعتراف

أعترف بأنني ترددت كثيراً في كتابة هذه الرواية السيرية؛ لأن مواجهة الذات ليست بالأمر السهل لمن اعتاد قراءة الآخرين والهروب من قراءة ذاته، لكن عليّ أن أشكر قذيفة، أصابت (في آذار *2017*) العمارة التي أسكنها في دمشق، فقتلت ترددي! وحفّزتني على الكتابة، لعلها أيقظت في داخلي رغبة في إنقاذ ذاتي من موت سيأتي عاجلاً أم آجلاً.

عادت عصافير حارتي إثر تلك القذيفة إلى متابعة زقزقتها، لتتحدى الموت بالغناء! قررت التعلّم منها! فقلت: لِمَ لا أركب سفينة الحرف؛ فأهرب من هذا الرعب! لعلي أقاوم الصخب والعنف! وأستعيد طمأنينة النوافذ والأبواب والقلب!

عليّ أن أنقذي روحي من الانهيار! ومن حرب مجنونة لا ناقة لي فيها ولا جمل!

أعترف بأنني رغم مرور أكثر من سبع سنوات على نزيف الدم السوري، لم أستطع التأقلم مع كل هذا الجنون! كم أشفق على قلبي! ما زال يرتجف لأقل صوت أو انفجار! أتساءل: إلى متى يحافظ على توازنه، فلا ينفجر نبضه؟!

ليتك تستطيعين تحويل الرجفة إلى رقصة! فتتابعين الإصغاء لأغاني العصافير، وتصمّين أذنك عن أصوات المدافع ولو للحظة!

أتأمل بقعاً خضراء، قرب بيتي، ما زالت تقاوم نيران الحرب! فأستنشق منها نسمة أمل!

منذ تحوّلت مدينتي إلى جبهة قتال، التهم الرعب والقلق إحساسي بالجمال! فحين يحتل الخوف قلوبنا، يرمي بنا في مهاوي الضياع، يسرق منا نبض الحياة، ليخنق مشاعر السكينة، التي تمهد طريق التأمل، وتذوق أسرار الطبيعة!

إننا حين فقدنا الإحساس بالجمال، استسلمنا لحصار القبح والكراهية؛ وبذلك دمّرنا معاني الحياة؛ فانهال علينا وابل الفساد والدم والدمار! لكن هل نستسلم لكل هذا؟! من ينقذنا؟ لن يستطيع أحد آخر سوى أنفسنا، أن يمدّ لنا يد العون! ليتنا ننقذ بؤس حياتنا، وما يعشش فيها من أوهام وأفكار عفنة! ليتنا نلوذ بالفن والجمال، لنقاوم ظلمة، تزداد حِلكة مع الأيام!

عليّ أن أدير ظهري لغبار الرعب والدمار، وأتجه صوب جبل قاسيون، حيث يتكئ بيتي على كتفه، أستمد قوتي من كبريائه، التي حافظ عليها، رغم تجاعيد الزمن وندوبه!

أقنع نفسي بأنني محظوظة، ما زلت أنا وبيتي على قيد الحياة! قد يرتجف القلب، وتتزلزل الجدران، وتتحطم النوافذ، لكن، والحمد لله، ثمة سقفاً، يؤويني!

تشرّد الكثير من الأهل والأصدقاء، أذلّتهم الغربة في الخارج! ونهشتهم في الداخل أنياب المصائب والمُلّاك، الذين يدّعون أخوة الوطن!

باتت القذائف تسرح وتمرح؛ لتحمل لنا هداياها موتاً مؤجلاً، يطرق أبوابنا، ويتسلل من نوافذنا!

أعترف أنني كلما خرجت من البيت دعوت الله أن أموت ميتة سوية! ألا تقتلني قذيفة أو تفجير انتحاري، فتضيع أشلائي! أو أعيش بقية أيامي مشلولة!

تساءلت وأنا محاصرة بكل هذا الرعب: لِمَ لا أرفرف بعيداً عن أهوال الحرب بجناح ذكرى جميلة! لِمَ لا أبحث عن مأوى، ولو كان

آنياً، في ظلال الكلمات؟ لعلي أنسى أعزاء استشهدوا، أقارب وطلاباً، نزفوا شبابهم على مقاعد الدراسة، أو في طريقهم إلى مدارسهم وجامعاتهم!

واجهت نفسي: بما أنك لم تموتي بعد، فقد كسبت رهان الحياة! اكتبي لتردّي هذا الجميل! هيا أسرعي، وانتهزي فرصة أنفاس، تزفرينها في ظل موتٍ، يوزّع بالمجان في الشوارع والمدارس، بل وصل إلى أسرة النوم...

أعترف بأن ثمة أمراً آخر، شجعني على كتابة هذه الرواية السيرية! هو أن أسترد، في زمن الحرب، بعض الفرح الذي عشته، وأشارك به آخرين! لعلنا نستطيع مقاومة البشاعة والقهر! بعد أن تلوثت نفوسنا، ونخر سوس الكراهية حياتنا! وبات الدم لغة حوارنا!

عليّ أن ألوذ بعالمي الداخلي، وأحتمي بتجربة، لا أعتقد أنها حدثت من قبل، محجبة تعيش في بيت عائلة فرنسية، تختلف في الثقافة والعقيدة واللغة، تشاركها الطعام والحوار، فتلتقي معها على المستوى الإنساني، حتى أصبحت عائلتها في الغربة!

إنها تجربة استثنائية في حياتي أتاحت لي فرصة العيش في ظلال قرابة، لا تعترف بحدود مصطنعة بين الشرق والغرب، فقد أخذتني باريس بين جناحيها، لتطير بي في عوالم المحبة والثقافة والجمال! وعلّمتني أن جمال المكان لا ينفصل عن جمال الإنسان، الذي يعيش رهافة الحس والثقافة!

وهكذا أقنعت ترددي، وقلت: لِمَ لا أوثّق بالحروف لحظات جميلة، عشتها في فرنسا، رغم ما فيها من معاناة الغربة، ولوعة فقد الأم!

وقد شجعني على ذلك وجود يوميات، كنت قد كتبتها في باريس، استطاعت أن تشكّل ملاذاً آمناً! ينقذني من حاضر بائس، ينغّص حياتي! ويقلق أيامي المتبقية على هذه الأرض!

ثمة أمر آخر عليّ أن أعترف به، فقد أحسست بأنني بحاجة إلى توثيق لحظة أنانية، عشتها في باريس خلافاً لقناعاتي، وما زالت تثقل ضميري، قلت في نفسي: أبوح بها، لعل الكتابة تطهّرني! إذ كانت في بدايتها رحلةٌ حزينةٌ، فقد توفيت أمي بعد يومين من وصولي إلى باريس، فعشت تمزقاً داخلياً بين أن أكون عقلانية، وأتابع فرصة، لا تأتي في العمر إلا مرةً واحدةً، وبين أن أكون عاطفية، فأعود إلى بلدي؛ لأستطيع، وقد لا أستطيع، إلقاء نظرة وداع على أمي!

قررت الآن بعد مضي أكثر من عشر سنوات على وفاتها، أن أبوح بهذه التجربة المرعبة، وأنا مدينة في ذلك لروح أمي، التي رعتني في غربتي، مع أنني خذلتها في لحظاتها الأخيرة، مثلما خذلتها، حين اخترت الكتاب شريكاً لحياتي، ولم أعش كما تريد!

لم أكن لأستمر في هذه التجربة لولا فكرة آمنت بها، وهي: أن من نحبه لا يموت، يبعد عنا جسده، لكن روحه ترافقنا، فتربت يده الحنون على قلوبنا، وتهمس حكمته في عقولنا، فننطق دون أن نشعر لغته، ونعيش معتقداته..!

أعترف أن أمي كانت رفيقتي في تلك الرحلة، التي دفعت ثمنها حزناً مقدماً، في كل تصرف أو قول تفوّهت به!

هأنذي أحاول أن أخفّف عن نفسي ذنباً اقترفته في حقها! حين أصغيت لصوت العقل، وبقيت في فرنسا، وقمعت صوت الوجدان!

أعترف أيضاً بأن ثمة خوفاً في ذاتي! جعلني أتردد في نشر أعماقي على الملأ! إذ لم أعتد استخدام لغة البوح! اعتدت التعبير عن نفسي عبر قراءة الآخرين! وكلما تحمست للكتابة، برز لي شيطان النقد، قائلاً:

- ما الجديد الذي ستقدّمينه؟ اتركي عالم الإبداع لأهله، لكنني أخرسته، هذه المرة، قائلة:

- أرى تجربتي في لقاء الآخر الغربي، تستحق التوثيق! والمتلقي هو الحكم إن كانت فريدة أم لا! أما أنت فكفّ عن ملاحقتي! يكفيني تردداً، فالموت إن نسيني اليوم، فلن ينسني غداً!

لكن هذا الشيطان، لم يقتنع! فأطل بقرنه متحدياً:

- أنتِ خجولة بطبعك! وكنت دائماً تهربين من استخدام لغة (الأنا) هل تستطيعين الانطلاق على سجيتك؟

- أنتَ، هنا، على حق! أنا ما زلت أعاني من الخجل، خاصة حين أريد التعبير عن ذاتي! كما أعاني قلقاً بسبب ملاحقتكَ النقدية، أخاف أن تكون كتابتي بعيدة عن لغة الجمال والعمق!

- أنتِ دائماً تصغين إلى هذا القلق والخوف، وترددين في الكتابة، ما الذي حصل الآن!

- حين يكون الإنسان في حضرة الموت؛ يتخلى عن صمته! ليعلن عن ذاته! فيسرح ذهنه باحثاً عن لحظات غنية، أمتعته! لكن هذا الملعون، صرخ في وجهي:

- أنتِ أنانية، لا تحسين بالمسؤولية تجاه الآخر، الذي عايشته أربعة أشهر في باريس؟ ألا تخافين أن تؤذي مشاعره؟

- هنا دورك! عليك أن تساعدني في إيقاظ حاستي النقدية، واللجوء إلى اللعبة الروائية (تفاصيل خيالية، تغيير الأسماء العربية والفرنسية...) ساعدني لأحافظ على روح هذه التجربة؛ لأنقل خصوصيتها، التي استمدتها من الإنسان والمكان!

هدأ هجوم شيطان النقد، فبدت لهجته تتخذ سمة النصح:

- انتبهي قد يؤدي سرد اليوميات إلى الملل! فدافعت عن نفسي قائلة:

- تجربتي لحسن الحظ لن تكون فقط بصوت واحد (صوت الأنا) الذي قد يناسب السيرة الذاتية، بل ثمة أصوات أخرى التقيت بها، تنتمي إلى عوالم مختلفة غربية (شخصيات فرنسية متنوعة...) وشرقية (عاملة مغربية، أستاذ جامعي مغربي، وآخر من مدن الملح، روائية من بلدي وروائي من بلد عربي آخر...) كل هذه الشخصيات أغنت سيرتي، وأضفت بعداً روائياً عليها! ألا يستطيع هذا التعدد منحها حيوية، يبعد عنها الإيقاع الرتيب؟! وكي أفحم شيطاني، أضفت: هل يمكن للغة القلب المغموسة بنبض التجربة، أن تضلّ الوصول إلى قلب يصغي إليها؟

وبذلك اضطر إلى الاعترف قائلاً:

- انتبهي صحيح أن تجربتك فريدة، لكن ذلك يحتّم عليك تقديمها بطريقة مناسبة.

- لهذا كنت بحاجة إلى امتزاج مصداقية السيرة الذاتية بالخيال الروائي!

لم تهدأ عيناه المشتعلتان بنار النقد، فرمى في وجهي اعتراضه:

- لماذا اخترتِ في العنوان كلمة "محجبة ..." أ ليس من الأفضل استخدام "عربية..." أو "شرقية..."

- أنت لا تعرف كم أرّقني موضوع الحجاب قبل السفر (عام ***2007***) فقد شكّل أحد أبرز مخاوفي، بعد أن سمعت بمنعه في فرنسا(في المدارس والجامعات) حتى إنني لجأت إلى أحد معارفي (مصمم أزياء) ليصمّم لي قبعة على شكل حجاب، لكنه خذلني، فاصطحبت معي قبعة صوفية مع لفحتها، وحجاباً عادياً (إشارب) وقبعة قطنية خفيفة لوضعها في البيت!

أعترف بأنني منحت شيطاني النقدي فرصة التعبير بصوته، هنا، لعلني بهذه الرشوة، أستطيع قمعه، فيلزم حدوده، ويتلهى عن ملاحقتي أثناء الكتابة!

أخيراً لابد أن أشكر، هنا، روح الروائي عبد الرحمن منيف، الذي نصحني، حين سافرت للعمل في إحدى مدن الملح، بأن أكتب ملاحظاتي؛ لأن الذاكرة تخذلنا مع مرور الزمن! لهذا حملت معي دفتراً صغيراً سجلت عليه يومياتي الباريسية! فكانت مادة أولية لهذه الرواية السيرية!

كما أود أن أتوجّه بالشكر لكل من قرأ مخطوط الرواية وأبدى رأياً استفدت منه!

يقول بول فيزان: "إذا كان المرء يريد أن يسافر حقاً، فليس ثمة سوى سفر واحد جدير بهذا الاسم، هو السفر نحو البشر أنفسهم".

أمي

حين رأت أمي صديقتي الفرنسية (داليدا) متأنقة، قالت وابتسامتها الرضيّة، تملأ وجهها طيبة: "وقت إجت عالشام، عرفت كيف تاكل وتلبس"!

رددت ضاحكة: لا تنسي أنها جاءت من (باريس) عاصمة الموضة!

لم تقتنع، أسكتتني بقولها: "الشام شامة على كل الدِّنيا"

تعيش أمي الشامية العتيقة أوهامها عن وطن لم ترَ سواه! ما إن فتحت عينها على الدنيا، حتى سمعت أهزوجة "باريز مربط خيلنا" لهذا تراه الأجمل والأرقى على وجه الأرض! إنها تحب بلدها على طريقتها، حب الفطرة، التي لا تعترف بحدود اصطنعتها المصالح، وشكلتها أنانية السياسة، ما زلت أسمع صوتها، ينطلق من ينابيع الثقة بالذات، فينطق بحب وطن، لم ترَ فيه سوى حضارة الحب! لم تتقد ضغينة نحو من يخالفها الدين أو المذهب أو... كان تديّنها بسيطا، لا يعرف تعقيد المدّعين والفقهاء، كنت أسمعها تردد دائما (ربِّكْ رب قلوب) كانت تنظر للآخرين بحسها السليم، وتستقبلهم بوجه يشعّ عناقاً وبساطة، كم كانت تكره الرسميات، التي بدأت تعقّد حياتنا! كم كانت تتمنى العودة إلى حارتها القديمة، حيث تطرق باب جارتها دون موعد أو استئذان!

كم كانت تدهشني قدرتها على نسج الصداقة مع البشر أياً كانت هويتهم وأعمارهم، تمدّ قلبها؛ ليصافح الجميع، حتى أطفال حارتنا باتوا أصدقاءها، يحدّثونها عن أفراحهم وأحزانهم!

كانت تحيتها ابتسامة، تغمر بألقها الناس! فتنثر شذى الطيبة حولها! لكن كانت تعاني من مشكلة الشغف بمدينتها القديمة

دمشق، إنها بنظرها أجمل بقعة في الكون، تراها منبع الأناقة والنظافة...ومن يستطيع أن يلومها في حب فضاء، حضن أحلام طفولتها وحكايا شبابها؟

وقعت صديقتي الفرنسية في غرام دمشق، وبذلك امتلكت جواز دخول إلى قلب أمي! ما إن تراها حتى ترحب بها، فتقدّم لها (داليدا) موجزاً لأهم أخبارها، عندئذ تنطلق أمي في الحديث معها بكل بساطة، وكأنها قريبتها، التي نشأت معها في الحواري القديمة (في القيمرية وباب توما...)تسألها:

- زرتِ البزورية، سوق الخياطين ...
- وزرت سوق البالة، اشتريت كنزة!
- زرت حمّام الورد بسوق ساروجة؟
- طبعا ما أحلاه!
- كنا نعمل سيران بالحمام، ناخد فطورنا (زيت وزعتر) وغدانا (مجدرة، طاحونة مخلل، برتقال...)
- لاحظت اليوم قليل من السوريين من يذهب إلى الحمام!
- أولهم ولادي، ماجدة كتاب وبس! عندي ناهدة، بتحب الحمام، بس ما في حدا يروح معها!
- أنا من سيرافقها!

قلتُ لداليدا:

- لا تنسي الغلا، بات الذهاب إلى الحمام، يحتاج إلى ميزانية كبيرة، فوق قدرة أكثر الناس!

هذا الشغف المشترك بينها وبين صديقتي، عزّز أواصر الحب، وألغى حواجز العمر والثقافة والبيئة، التي قد تعيق التفاهم بين البشر، يبدو أن حب المكان، ينشئ نوعاً من الانتماء إلى حضارة، تشع مودة وانفتاحاً في روح الإنسان، فيتجاوز حواجز، تصنعها الانتماءات الضيقة، التي يتخيلها، تشكل صلب هويته وثقافته!

والتواص كانت أمي لا تبالي بكل تلك الحواجز، ما يهمها هو الحديث ل مع البشر أياً كانوا، إنها بذلك تخفف ثقل وقع الأيام، فتنظّف قلبها من الهموم، وتضفي على حياتها شيئاً من البهجة؛ فـ(الحكي صابون القلب) هذا ما كانت تردده، لهذا لم أرها تستسلم للإحباط أو الكآبة، التي باتت تنغص حياتنا!

في أحد الأيام زارتنا صديقتي (داليدا) مع أمها وجدّتها، التي تقارب أمي في العمر، وتقاوم مثلها آلام الشيخوخة بعنفوان وأناقة، رغم بعد المسافة بين لون صبغة الشعر (الأسود والأشقر) بدا لون أحمر الشفاه واحداً! ينسج تفاهماً سرياً بين امرأتين، رعتا الأنوثة رغم مرور الزمن واختلاف البيئة والثقافة!

ومع أن العجوز الفرنسية، لا تعرف أية كلمة عربية! لم تبالِ أمي بالحاجز اللغوي، انطلقت بالحديث، في رفقة ابتسامة طيبة، تزيده ألفة!

حين انشغلنا بالحديث مع ضيفتنا الأخرى (أم صديقتي) وضعف اهتمامنا بالترجمة لهما، فوجئت بأنها بدأت تحدّثها بلغة الإشارة، حدّثتها عن تاريخ كفاحها، كيف كانت تساعد أهلها، عملت في الريجي (شركة التبغ والتنباك) حدّثتها عن مرضها، الذي جعلها شبه مقعدة، ومما زاد سروري أن الفرنسية تواصلت معها بتلك اللغة نفسها!

وحين همّت بالرحيل، بدأت أمي تلح عليها بالبقاء! وهي تضرب بيدها المكان المجاور لها، وتشير إليها أن تقترب منها، توترت حركة يدها دون أن تهدأ، بدا التأثر على وجه الجدة، فهي لم تعتد، على ما يبدو، مثل هذه الحفاوة.

قبل خروجها تبادلتا العناق والدموع، وأمي تحاول أن تستبقيها، وتشير إليها بيدها، لتُجلسها قرب سرير عجزها!

أدهشني أن لقاءً قصيراً، نسجته لغة الإشارة، قد أزهر صداقة بين امرأة من الشرق وأخرى من الغرب، قلت في نفسي: هذه المرة

الأولى في حياتي، التي أشهد فيها بزوغ شمس صداقة في لحظات! والأعجب أن شعاعها تألق بعيداً عن لغة الحروف! يبدو أن النفوس الطيبة قادرة على اختراع لغة خاصة بها، لا تعبأ باللغة اليومية للبشر! إنها تبتكر لغة سرية، لن يستطيع الوصول إليها من يزن علاقاته بميزان المادة والمصالح!

يقطع ذكرياتي صوت قذيفة، يا الله كل هذه السنوات، ولم أستطع اعتياد هذا الرعب! أحاول، أمام الآخرين، إظهار شجاعتي، أخرج إلى الشرفة، وأنا أدثّر خوفي، أريد أن أشمّ أنفاس الربيع، لكن صوتاً مرعباً، ينتزع أمني، ألملم أوراقي وشجاعتي دون وعي، فقد اشتعلت الكوابيس في داخلي؛ وباتت تحثّني على اللجوء إلى جدرانٍ، أعرف تماماً أنها لن تستطيع الوقوف في وجه قذيفة بلهاء، لكن خيالي يزيّن لي أنها أكثر أمناً، أهدأ قليلا، لكن العقل يعود، ويذكرني بأن التطور، الذي وصلته الأسلحة، جعلها تخترق الجدران، لتحوّلها إلى أنقاض!

رحمك الله يا أمي من هذا الرعب، كم كنت رقيقة، تخافين أقل الأصوات، حتى إنك انهرتِ وتاه وعيك، فلم تستحملي مشهداً على التلفاز، رأيت فيه بقايا تفجير سيارة الصحفي (جبران تويني) في لبنان!

أصابها رهاب، منعها من النوم، وبدأ الوهم يعبث بأعصابها، نسمع صوتها، يستغيث: وين رجليّ، راحوا بالتفجير!

باتت تدور في الغرف، لتهرب من خوفها! وحين يغلبنا النوم، يسرع قلبها الحنون لإيقاظنا، وهي تقول: اهربوا من البيت قبل ما ينفجر!

أصبح هاجسها الأمن والحفاظ على حياتنا؛ لهذا باتت ترفض الجلوس، تدور من غرفة إلى أخرى، رغم رجلها الضعيفة، فأتساءل: من أين أتتها هذه القوة؟ كنت أخاف عليها الانهيار، وأن تفقد القدرة على المشي! فهي بالكاد تتنقل داخل البيت!

أتى الطبيب المختص بالأعصاب؛ ليخبرنا: إنه الزهايمر! سألناه ماذا نفعل، فأجاب: امرأة تجاوزت الثمانين! لا حول ولا قوة!

قاومنا جميعاً لغة الطبيب المحبطة، قسّمنا أنفسنا (أنا وأختاي صفاء وناهدة) إلى دوريات حراسة وحب، تسهر عليها صاحبة الدور، تلاحقها من غرفة إلى غرفة! تعيدها إلى سريرها!

لم نؤمن بكلام الطبيب، عالجناها بدواء، لا نجده في الصيدلية، أحطناها بالعناق والأمان، كنت أفعل ما تحب، وما تؤمن به من معتقدات، أقرأ لها سورة (يس) أمام كوب من الماء، أدعها تشربه، بعد ذلك، استنجدنا بصديقتها وابنة عمها (أم أحمد) التي تقطر طيبة مثلها، أوكلنا لحفيدتها وروحها في الدنيا (شذى) مهمة إغراقها بالقبلات!

لم نخجل من حالتها ونخبئها، كما تفعل بعض العائلات في بلدي، جعلناها تلتقي بالناس، الذين عاشت حياتها، تحب عشرتهم، والحديث معهم!

تاهت كلماتها عن الوعي فترة من الزمن، كنا نمسك بيدها، ونعيدها إلى جادة الصواب، كلما تحدثت عن الانفجار وأوهامه، ذكّرناها أنه حدث في لبنان...جعلناها جميعاً طفلتنا المدللة، استرجعت وعيها شيئاً فشيئاً، حتى إنها لم تعد تذكر تلك الحالة!

كنت، وأنا أسهر على حراستها، أتذكر ملامح علاقتها الاستثنائية بي، كانت لا تملّ من الحديث عن رؤى، رافقتها، حين ولدتني، حتى أصبحت حقيقة في وعيها، وانغرست في لا وعيي، ولدتني بعد أن عادت من السينما (حضرت فيلم "لحن الخلود" بطولة فريد الأطرش وفاتن حمامة وماجدة) كان صوتها ينبض فرحاً، وهي تقول: رأيت نفسي، أنزل درج الجامع الأموي، قرب النوفرة، كأني في نزهة غريبة: الشجر، يميل على الصفيّن، والظلال عم تغمرني، وساقية عم ترقص بين الأشجار، وبعدين سمعت صوت عم يقول: (مبارك ما إجالك) وراح عليّ السيران!

وبذلك تمّت ولادتي قبل مجيء القابلة!

استمتعت بحياتها رغم بؤسها بفضل خلطة سحرية، فقد مزجت فقرها بلغة الحلم والحكاية، لهذا نقلتني إلى عوالم الدهشة والخيال، حتى إنها تجعلني بطلة في حكاية من حكايا (ألف ليلة) فأسمعها تناديني: (ست بدور) فتنتفخ الطفلة في داخلي زهواً بلقب (ست) ثم تعقد لساني الدهشة، فأطير عالياً، وأرفرف بين النجوم، وأنا أسمعها تقول: (شوفي القمر كيف بيدور)

كنا أنا وإخوتي ننتظر المساء؛ لترحل بنا إلى عوالم خيالية جميلة، تصوّر لنا بصوتها وحركتها مشاهد سحرية، تنقلنا في لحظة من فوق الأرض إلى تحتها! كنا نتدفأ بحكاياها متحلقين حول موقد الكاز (البابور) تضع فوقه صفيحة معدنية، ثم تنثر النعنع والملح؛ لتنبعث رائحة عطرية في الغرفة! وحين تشتعل إحدى الجمرات، تسرع لتقول لنا: هذه هي عين الحسود، تبلى بالعمى!

تعتكر علاقتها بأبي، وتشبّ نار التوتر بينهما، فتحمّل عيون الحساد المسؤولية! ثم تأتي بورقة تثقبها بدبوس، وهي تقول: هذه عين (أم سعدة...) بعد أن تقوم بهذه الحركة البسيطة، تظهر علامات الراحة على وجهها الطيب، ويصفو قلبها على أبي، وتتصالح مع الحساد جميعاً!

تخفف الحكاية عبء حياتنا، تفتح أمام طفولتنا عالماً مجهولاً، يملؤه السحر، نتيه فيه، فلا ندري كيف تختبئ العيون في الجمر! وكيف يتمّ التخلص منها عبر ثقوب ورقية!؟لهذا كانت تشتعل هذه الصور في رأسي، وأنا ألاحق حركة أمي، وهي تنسج حكاية العين الحاسدة، وما تشعه من سحر، ينتهي بقول، ترافقه حركة بسيطة! فأفتح فمي مذهولة، فقد بدأ خيالي يسرح ويمرح!

لم تفارقها الحكايا، والأحلام التي تولّدها، رغم أنها وصلت إلى أرذل العمر، فقد كانت تتكئ عليها مثلما تتكئ علينا! حتى حين تخرج من المنزل، وتعيش الواقع عبر تفاصيل كثيرة، كانت تلك الأحلام ترافقها! كم كان يسعدها، حين نذهب إلى المطعم، اهتمام الآخرين بها، وحين يقوم أحد العاملين فيه بحركة بسيطة من أجلها، كأن يفتح لها باب

التكسي، تنقل لنا إحساسها، الذي يلغي الزمان والمكان بشطحة حلم، فتقول: أحسستُ وكأنني ابنة أمير من أمراء ألف ليلة! كم كانت الأشياء الصغيرة تسعدها، تصالحت مع الحياة بفضل هذا الخيال وهذا الرضا بالقليل، فملأت قلبها بهجة!

أسأل نفسي: أين هي هذه البساطة، التي تنعش حياتنا! أين رحل ذاك الرضا، الذي يشع الأمن في أرواحنا؟ آه كم أنا مدينة لأمي في ثقافة الرضا والبساطة! كم أنا مدينة لها بفتح نوافذ الخيال على مصراعيها!

فتحت حكاياكِ يا أمي أمامي أبواب المستحيل، ففي لحظة تتحول القشة إلى إنسان، أو أجد نفسي أصعد مع الحبيب على الشعر المسدل لحبيبته (ليلكي) ليصل إليها، أو أجد نفسي متعلقة على جناح طائر؛ لأسافر مع السندباد!

غذّت حكاياكِ يا أمي خيالي، جعلتني أعشق السفر! واكتشاف عوالم جديدة! أيقظت ربيع المغامرة في وجداني، فاستسهلت تحدي الصعاب!

علمتني حكاياكِ أن البطل ينجح في حياته، حين يخلص في عمله، فيسير على صراطٍ مستقيم! أما من يكذب، فمصيره الفشل! كنت تغيّرين مصير أبطالكِ، لتعلّمينا معاني الحياة، ونعيش معهم حب الناس ومساعدتهم، وتردد قلوبنا ما يرددونه: إن الله في عون العبد، مادام في عون أخيه!

كبرت حكاياكِ في داخلي! فكبر معها حبي للمغامرة، اخترت، وأنا في الخمسين، بلداً بعيداً مكانياً وثقافياً (فرنسا) لأمضي أربعة أشهر في منحة علمية (*2007*) تتيحها جامعة دمشق مرة واحدة في العمر!

هيأت نفسي للسفر، قبل ذلك بسنتين، فحاولت إتقان اللغة الفرنسية، اتبعت عدة دورات في المركز الثقافي الفرنسي، ثم أتبعتها بدورات في مركز اللغات في الجامعة، لم أقتنع بمستواي اللغوي،

فأجريت تبادلاً لغوياً مع شابة فرنسية (داليدا)دفعها حب العربية إلى المجيء سورية؛ لتدرس العربية، دون منحة، أعجبت بكفاحها من أجل العلم، صارت بعد ذلك صديقتي.

قبل السفر فاجأتني نصيحة أحد الزملاء في قسم اللغة العربية (د.عُريب) لِمَ فرنسا؟ سافري إلى مصر، أو أي بلد مسلم، توفرين مالاً، ولا تبذلين جهداً، لا تنسي أنك محجبة، وستعرضين نفسك للمتاعب! أغلقت أذني عن نصائحه، فأنا اخترت السفر إلى هذا البلد عن سابق إصرار وترصد! وقلت له: لا يهمني التوفير، الذي ترافقه حياة راكدة، ومألوفة، أحب أن أعيش تحدياً معرفياً وإنسانياً! أحب أن أغامر في عالم جديد، فقد سئمت السفر إلى بلاد أعرفها، تشبه بلدي (في الفقر، والقهر، والفوضى، وتبذير الوقت) أبحث عما يغنيني، أعرف أن ثمة معاناة تنتظرني، خاصة أنني أحمل هويتي فوق رأسي، لكن لا شيء في حياتي، أتى على طبق من فرح، كل إنجاز فيها، دفعت ثمنه جهداً ودموعاً!

حدّثت نفسي: أ من أجل الكسل اللغوي والتوفير المادي أضيّع على نفسي مغامرة العيش في أفق جديد؟ هل أنا مجنونة؟ أعرف أن كثيراً من الناس، يقع ضحية هذا المطب، ويختار المال وراحة البال، ليريح نفسه بين ذراعي الألفة، ويجنبها عناء السير في وهاد المجهول والقلق!

وبما أنني أحلم برحلة تتيح لي معايشة الإنسان والطبيعة والمعرفة معاً؛ قررت السكن لدى عائلة فرنسية، توفّر لي التواصل الإنساني، وتجنّبني الوحشة، التي أخافها، فأنا أجد نفسي شجاعة إلا في مصارعة غول الوحدة!

نصحتني صديقتي (داليدا) أن أستنجد بصديقتنا المشتركة (فلورا) لأستأجر لدى والديها، لم يكتفيا بالموافقة! بل هاتفتني أمها، ترحب بي قائلة: لا تقلقي ستكونين بين أهلك! تركت كلماتها أثراً طيباً في نفسي! وهدّأت بعض قلقي!

لكن قبل سفري بعدة أيام، أخبرتني صديقتي بأن أمها (باحثة في الفيزياء) ستغيب عن المنزل ثلاثة أيام، فهي مدعوة لمؤتمر خارج فرنسا! إنها تعرف آلية تفكيرنا، وضّحت لي: كي أهيّئ نفسي، فلا أُفاجأ بغيابها، والبقاء في البيت مع أبيها، وبذلك أعيش موقفاً قد لا أرضاه! للوهلة الأولى استفظعت الأمر! كيف أبقى وحدي مع رجل غريب؟ صحيح أنني في الخمسين، لكنني لم أعتد على ذلك! أنا ابنة ثقافة العيب والحرام، ما زالت كلمات أمي تتردد في داخلي، منذ تفتّح وعيي: "الرجل ذئب، لا أمان له! إياكِ والخلوة معه!" لكنها كانت تردف قولها "إذا كان الرجل ديب فالمرأة سبع" فيرسخ في داخلي أنني قوية، أستطيع أحمي نفسي في أي ظرف كان!

لكن ذلك لم ينفِ القلق من داخلي: هل أؤجل سفري؟ لكن الفيزا حُدّد لها تاريخ دقيق! وقد رُتبت منحتي الجامعية على أساسها! التأجيل يعني خسارة مادية وزمنية! إذا كانت الخسارة الأولى لا تهمني كثيراً، فإن الخسارة الثانية تعني ضياع أيام من حساب إقامتي في فرنسا!

حاولت إقناع نفسي: صديقتي (فلورا) راقية، وهي مرآة أهلها، كبري عقلك، مثلما كبرت في السن! فأهدأ قليلاً!

لكن رغم وجاهة هذا المنطق، سرعان ما تعود المخاوف؛ لتثير الشغب في أعماقي، ما زالت عصا الموروث، تطاردني بضربات وهمية، يبدو أنها تحتل الصدارة في تكويني! قررت أن أحسم ذلك التأرجح، فأستمدّ الرأي الحكيم من أستاذي وأبي الروحي (د.عبد الكريم الأشتر) الذي شجعني قائلاً: أنت تبالغين في القلق بسبب بيئة تقليدية نشأت فيها! إنك ستعيشين في عالم متحضر، يحترم المرأة!

طمأنني كلامه، وقلت: فعلاً "ما خاب من استشار" لدي غرفة مستقلة! أُغلق بابي وآمن جاري! كما يقول المثل الشعبي! ومع ذلك عاد القلق، ليتلبّسني، كيف سأواجه أناساً غرباء في فضاء غريب، أسافر إليه للمرة الأولى، صحيح أنني أعرف اللغة الفرنسية، لكن لم تكن

بدرجة كافية، بان عليّ الاضطراب، بل كنت أتحدث عن قلقي من بيئة أحس فيها بأنني غريبة الوجه واليد واللسان!

لاحظت صديقتي (داليدا) أنني على قلق كأن ريحاً، تعبث بي، فقررت بشهامة الفرسان، أن تسهّل الأمر عليّ! فطلبت من صديقتها (جين) أن تنتظرني في المطار، وأعطتني رقم جوالها.

هدّأت قلقي، وهيّأت روحي وأغراضي، لكن لاحظت أمي، التي لم تسافر أبعد من بيروت، حيث تقيم خالتها، أنها لم تكن راضية، إذ لم تهضم فكرة أن أسافر وحدي فترة طويلة! كيف سأعيش آمنة في فضاءٍ معادٍ؟ ما زالت أفعال المستعمر تستوطن ذاكرتها، وتنغّص طفولتها، فقد أسقط قذائفه قرب بيتها (في باب السلام) فهربت مع أهلها إلى بستان قرب باب توما، كما أنها لم تنس الحريقة، التي أشعلها الفرنسيون (قرب سوق الحميدية) فقتلت أبرياء، ودمرت بيوتاً جميلة؛ لهذا كثيراً ما كانت تردد أمامي: "ما بيجي من الغرب شي يسر القلب"

آلمها سفري، فهي مريضة بحاجة إلى رعاية؛ لهذا عبّرت عن اعتراضها قائلة: لمين حتتركينا؟ مين حيسعفنا بعدك؟

أعرف أن ثمة تبادلاً في الأدوار، حصل بيني وبينها، منذ إصابتها بجلطة دماغية (أثّرت على يدها ورجلها) أصبحت ابنتي، التي أدلّلها وأعتني بها! كنت أمارس ذلك بسعادة، هل السبب مشاعر الحب، أم الاهتمام برضا الوالدين، الذي يعني رضا الله، أم أنني أُفرّج عن أمومتي المكبوتة، أم كل ذلك؟!

شعرت أمي بأنني أخذلها، حين أفكر بالسفر بعيداً عنها، فقلت لها: لديك حناين (صفاء وناهدة) وكي أهدهد قلقها، قلت لها "هي أربعة أشهر، تمضي بلمح البصر يا أمي"

أوصلت لي اعتراضها بصيغة هادئة، لكنها تعلن خيبة أملها أمام إصراري: "يللي ما بينفع ببلادو ما بينفع ببلاد الناس" طبعاً أنا في نظرها ابنة فاشلة ضالة، لم أختر طريق الصواب، ورفضت الإصغاء

إلى طموحها في الحياة، إذ لم أختر مهنة، تدرّ ذهباً، فلم أعمل خياطة أو حلاقة نسائية! ركضت وراء العلم، وكان أكثر ما يغيظها أنني أصرف المال على الكتب، التي لا ترى فيها أية فائدة، سوى أنها ورق، يمكن أن تفيد بائع البقالية، فيصُرّ فيها القضامة (حمص مشوي أو محمّص) أو الفلافل!

❊ ❊ ❊

2007/10/9

صدمني سؤال أمي، وأنا أودّعها، حين رأتني أرتدي زياً رسمياً: لِيه لابسة أسود؟ حزنانة على مين؟ على حالك؟ ولا على مين؟ أسرعت بوداعها متعثرة الخطا، وقد اضطربت خفقات قلبي، وجفّ فمي! تحاملت على نفسي؛ لأحرك لساني المتلجلج: انظري أحمل بيدي سترة خمرية!

إنها تحب ألوان الحياة الفرحة، لا يهمها التقيّد بألوان الواجبات الرسمية، التي لم تكن تهتم بها كثيراً، لجم كلامها اندفاعي، فغاصت فرحة المغامرة، التي انتظرتها طويلاً، خنقني الحزن، وحاصرني التشاؤم، رغم أنني حاول التنكّر له، وتحطيمه، وجدت نفسي أردد دون وعي: "لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا"

نزلت درج البناية وضباب دموع، يظلم في عيني، بدأت أسئلة مقلقة، تهاجمني: ما معنى هذا القول؟ هل سيحصل لي حادث في طريق المطار أم في الطائرة؟ أم في الغربة أم؟

لو كنت ممن يتشاءمون لألغيت السفر في الحال، رغم ذلك ترك كلامها غُصّةً في قلبي، وعاصفةً سوداء في روحي، فاضت نفسي قلقاً، فبعثر تماسكي، عندئذٍ اندفعت أحدّث السائق، وأنا في طريقي إلى

المطار! بما قالته أمي، فخفّف عني بقوله: هذه هي عادة العجائز في الكلام، لا يحبّون السفر، يرون أولادهم سنداً لازماً لهم في حياتهم! قلت له: كأن أمي ترى السفر حمّال مخاوف ومتاعب! عاشت تؤمن بأن أمنها في قرب أولادها منها! عندئذ تحس أن السلامة تغمرها، وتغمرهم معاً! ولكن أ ليس من حق الأولاد أن يعيشوا لأنفسهم؟ هل هي أنانية أن أبتعد عن أمي أربعة أشهر؟ السفر إلى (فرنسا الحلم) لن يتكرر؟ أمي ثمة من يرعاها، لست وحيدتها! لكنها تراني طفلتها، التي عليها أن تبقى تحت نظرها، والمفارقة أنها هي من تحتاج رعايتي ورعاية بقية إخوتي!

بدا الجو مكفهراً، تجتاحه غيوم القلق في المطار، اقتحمني سواد لا عهد لي به! يا إلهي كلما قاومت لتغيير إيقاع حياتي الرتيب، تهاجمني أحاسيس، تلجمني، وتتحايل عليّ، لأعود إلى طمأنينة العادة وألفة اليومي!

لاحظت في الطائرة قلة المسافرين (من دمشق إلى باريس) قلت: ربما بسبب رمضان، فقد كانت الرحلة قبل انتهائه بثلاثة أيام! كنت قد قررت الصيام، إذ لم يعد السفر بتلك المشقة، التي عاناها أجدادنا، لكنني سمعت صوتاً في داخلي، ينبهني: لِمَ لا تستفيدين من رخصة الإفطار! فأنت لا تدرين أي متاعب تستقبلك في يوم غربتك الأول؟! هيا ادخلي عالمك الجديد بكامل قوتك!

رغم حبي للمغامرة، ثمة خوف في داخلي، كيف سأقتحم فضاءً غريباً؟ كيف سأعيش في بيئة جديدة، لم أجرؤ حتى في الحلم على اقتحامها؟

حين اقتربت الطائرة من باريس، لاحظت وأنا في السماء امتداد بساط أخضر تحتي، فرح قلبي؛ فقلت في نفسي: هذا ما أحتاجه، وأحلم به طوال عمري!

وصلت قاعة الاستقبال لم أجد أحداً بانتظاري! قلت: ها هي ذي أولى صفعات الغربة! نهضت خبرتي المتواضعة في السفر؛ لتسندني،

وتذكّرني بأن ثمة مفاجآت غير سارة، تنتظرنا فيه! المهم كيف نتعامل معها؟ التوتر لا يفيد شيئا! هيا يا حبيبتي اجعليها لذيذة، كرمى عين المغامرة!

هدّأت نفسي: ربما كانت متأخرة لسبب ما، عليّ أن أتأكد من عدم وصولها؛ لأتصرف على أساس ذلك! وبما أنني لا أملك جوالاً، بدأت أسترق السمع على من حولي من الركاب، أتلصّص باحثة عن صوت عربي؛ ليساعدني، فأنا تقليدية لا أجرؤ على طلب الغوث من أجنبي! التقطت أذني العربية باللهجة السورية، تحركت العصبية القبلية في داخلي، من منا يستطيع أن يتخلى عنها في الغربة، أمدّتني بشجاعة الاستغاثة بجوال كان في يد شاب، اتصلت برقم (جين) لم تردّ، لكن شهامته أبت أن تردني خائبة، فأعاد طلب الرقم بنفسه، لم يرد أحد، كان الخط مغلقا! أحسست بالخيبة، وقلت ها هي ذي أولى المتاعب! وبما أنني عوّدت نفسي دائما على حدوث الأسوأ (هذا هو أحد الدروس، التي لقنتها لي الحياة) تماسكت، وسألت الشاب: أين يمكنني أن أجد تكسي، أشار إلى مكان! أسعدتني مرافقته لي، دون أن أسأله، بل تحدّث مع السائق بالفرنسية، عرضت عليه أن يركب معي، فاعتذر، فهو يريد الانتقال إلى منطقة خارج باريس!

وأنا أركب السيارة، ودّعني الشاب، فردّدت بيني وبين نفسي: "كل غريب للغريب نسيب" هذا هو الوطن، يشع أخوة في الغربة؛ بفضل هذه المشاعر طردت خوفي، وبدأ ينبض إحساس بالأمن في عروقي، استبشرت خيراً، وقلت: لابد أن تكون رحلتي موفقة؛ لهذا ما إن جلست في السيارة، حتى قذفت بخوفي إلى الشارع، وحاولت أن أتشبث بأذيال سكينتي.

بدأت الحديث مع السائق الأسمر بفرنسيتي المرتبكة، سألته: هل يمكن فتح النافذة؟ ...سألني عن بلدي...سألته عن الطقس...! أسعدتني قدرتي على التواصل، وبدأت الثقة، تسري في عروقي! ها قد نجحت في محطتي الأولى!

لاحظت أن العنوان دقيق، لم يضطر لسؤال أحد، ما إن وصلنا حتى ساعدني في حمل الحقائب إلى باب العمارة، اتصلت بمسيو (بونور) على الأنترفون، مددت يدي وأعطيت السائق (***500***) يورو، قلت في نفسي أكسب فكّها إلى فراطة، هذا ما أفعله في بلدي، فوجئت بتجهم السائق، كأن أفعى لدغته، صرخ قائلاً: هذا ممنوع! في تلك اللحظة وصل مسيو (بونور) ليستقبلني! فتحدّث معه بعصبية وبسرعة؛ عندئذ تاهت ثقتي بنفسي، أحسست بأنني مجرمة! ولكن دون أن أدري أيّ ذنبٍ اقترفته!

بعد ذلك فهمت أن هذه الورقة لا يتم تداولها؛ لأن مكانها البنك، فقد اعتادوا تداول القطع الصغيرة فقط! لحسن الحظ كان لدي قطعة من فئة الـ (***50***) يورو، حلّت المشكلة!

استطاع (مسيو بونور) في اللحظة، التي مدّ يده؛ ليساعدني في حمل الحقيبة، مسح صورة مغلوطة في ذهني عن عالم أناني، لا يهتم بالغريب! ليمسح معها توتري وخوفي، بدت لي هذه اللحظة حاسمة في غربتي، تشع نوراً وأمناً، فقلت في نفسي: هذا ما أحتاجه، هنا! عندئذ سكن قلبي، وغمر الدفء روحي، هذا غاية ما أحلم، لا أريد أكثر من أن تمتدّ يد، تطرد وحشتي.

بعد تلك اللحظة، التي حملت لي مفاجأة سارة، عاد عقلي إلى عمله المعتاد، انتبهت إلى أنه عجوز، فأسرعت، أقول له بفرنسيتي المتلعثمة: أرجوك لا تحمل الحقيبة، إنها ثقيلة، أخاف على ظهرك أن يتأذّى! كنتُ أقول ذلك، ودون أن أشعر، وجدت يديّ، تساعدانه على سحبها إلى المصعد، أما داخلي فكانت تنبض فيه مشاعر الامتنان لمروءة! لم أكن أنتظرها!

ما إن دخلت باب البيت مع حقائبي، حتى أصدر (مسيو بونور) أول أمر بلهجة قائد تاريخي: عليك نزع حذائك كلما دخلت! ثم خفّف لهجته

موضحاً (من أجل النظافة)! أسعدني فرمانه الأول، فقلت له مبتسمة: هذا ما نفعله في بيتنا!

دفع باباً في الموزع؛ ليفضي إلى موزع آخر، فيه غرفتان مع منافعهما، دلّني على غرفتي، وسألني إن كنت صائمة، فقلت له: لا؛ لأنني على سفر!

جاءت مفاجأة أخرى، حين سألني بكرم، لم أتوقعه، إن كنت أريد كوباً من الشاي، أسعدني عرضه، لكنني اعتذرت، كنت بحاجة إلى الراحة في غرفتي، والتعرّف على معالمها!

أعترف أن أكثر ما أبهجني في الغرفة استقلاليتها بمنافع خاصة بها! قيل لي فيما بعد، بأن البيت كان عبارة عن شقتين متجاورتين، فتحتا على بعضهما بعضاً، لتستقل ابنتاهما (فلورا وجولي) كل واحدة في غرفة! وبذلك كنت شرقية محظوظة، تقطف ثمار حرص أهل على استقلالية البنت، فهتفت بيني وبين نفسي: تحيى الاستقلالية الغربية!

غمرني فيض من الإحساس بالأمان! هأنذي أعيش في بيت خاص بي، لا في غرفة مستقلة! إذ ثمة باب يفصلني عن البيت الآخر، حيث غرفة المعيشة، فأحاطتني الطمأنينة بذراعيها!

بعد أن ارتحت قليلاً، ذهب معي جار الرضا (مسيو بونور) لأشتري بعض المؤنة، لاحقتني لعنة الخمسمئة يورو، لم أجد من يقبل فكّها، اضطررت إلى طلب الغوث منه!

في المساء على مائدة العشاء، شربت اللبن، فوجئت أو بالأحرى صُدمت، حين أتى بقطعة فاكهة، دون أن يقدّم لي شيئا منها!

هدّأت نفسي، أنتِ لست في بلدك! حيث تُحتّم علينا علاقة الجوار، حتى في وسيلة نقل عامة، أن نضيّف من يجاورنا، مما نأكل!

ما بكِ؟ هل تريدين من الآخر أن يعيش كما تعيشين في بلدك! إنها طريقتهم في الحياة، رحّب بك في بيته، وساعدك في حمل الحقائب، أما الأكل فهو أمر شخصي، لا علاقة لكِ به!

ها أنا ذي أتعلّم درساً من دروس الغربة: احترمي حرية الآخر حتى في الأكل، اخرجي من سجن القمع، وتعلمي أن الضيافة وعدمها أمر شخصي!

* * *

2007/10/10

استيقظت صائمة، لأتابع دروسي مع مسيو (بونور) اصطحبني إلى البنك؛ كي أضع المنحة فيه، وبذلك أحلّ مشكلة صرف الخمسمئة، وأطمئن على صحة أموالي، فقد قال لي بصراحة: نحن لا نضع مبلغاً كبيراً في البيت، قلت في نفسي: كل هذه الاحتياطات (رمز سري للباب الخارجي والأنترفون، رمز آخر للمصعد، عدة أقفال للبيت...وتخافون، ليتكم ترون في بلدي نغلق بابنا وننام)

أفهم أن البنك ضروري لمن يقيم فترة طويلة، لكن أربعة أشهر، لِمَ هذا الإزعاج وتضييع الوقت وانتظار الدور؟! تذكرت عبارة أمي البسيطة، وهي تنصحنا(مخزنك عبّك) في حين أنصح نفسي: (مخزنك كتبك) لكنك لست في دمشق! أنت في بلد غريب، وربما تعرّضت للسرقة؛ فقد سمعت قبل سفري أن أحد الأساتذة السوريين سُرقت منحته؛ لأنه لم يضعها في البنك! لهذا كان عليّ أن استمع للنصيحة!

بعد أن خرجنا من البنك، أحسست أنني سُرقت في وضح النهار، فقد أخذ عمولة كبيرة، لكن وجود (مسيو بونور) أعاد إليّ طمأنينتي، خاصة أنني لم أستطع التواصل مع موظف البنك! كم يضاعف العجز اللغوي إحساسنا بالضعف، نتخيل كيف يتحوّل جهلنا جواز مرور، يتسلل منه الآخرون لخداعنا، لهذا ردّدت بيني وبين نفسي: "من عرف لغة قوم أمن شرهم".

نظر إلي (مسيو بونور) بعينيه الطيبتين، وقال بنبرة حاسمة: إنه لن يصطحبني دائما، وأن عليّ أن أشتري خريطة لباريس، كي تساعدني في الاعتماد على نفسي!

همستُ في أذني: انتبهي هذا هو درس من أهم دروس الغربة! ألا تزعجي أحداً! وألا تكوني عبئاً على أي إنسان! لأنك بذلك تسرقين من الآخر وقتاً، خصّصه لنفسه!

قررت الاعتماد على نفسي، لكن فرنسيتي عرجاء، خاصة حين أريد الحديث بشؤون الحياة اليومية، مما أجبرتني على أن أثقل عليه بسؤال: كيف أشتري خطاً لجوالي؟ فاقترح علي موعداً لمرافقتي من أجل شرائه! بدا لي ثمنه مهولاً، خاصة حين قارنته بما ندفعه في سورية، بدت لي المقارنة في الأسعار مرهقةً للأعصاب! لكن بثّ فيّ الأمان صوت (مسيو بونور) الذي منحته السنون عمقاً ورصانة، مثلما منحته نبرة أبوة، تسكن القلب!

بدأت ألاحظ أن ما يتعبني في بداية إقامتي في باريس هو المقارنة بين تكاليف الحياة في بلدي، وتكاليفها، هنا، فاتخذت أول قرار حكيم: وهو عدم المقارنة في الأسعار، أمي كانت تقول حين ترى في السوق سلعة باهظة الثمن: (شو عايشين بباريز!)

عليّ أن أعترف بأنني أقيم في عاصمة الغلاء، الذي يبدو لي منطقياً، خاصة حين أتأمل دخل الفرنسيين!

فغرت فمي كالبلهاء، حين أخبرني (مسيو بونور) بأن عليه أن يذهب مساء إلى معهد لتعلّم اليابانية، قلت في نفسي: إنهم يعيشون حياتهم مستمتعين بالمعرفة، التي لا تعرف عمراً، تذكرت قول رسولنا (ص) "اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد" إنهم يطبقون هذا القول، ونحن نبتعد عنه!

كم أسعدني أن أرى رجلاً في السبعين يتعلم مع زوجته لغة جديدة، فكثيراً ما قرأت أن هذه إحدى طرق تقوية الذاكرة، تذكرت عبارة شعبية، تتردد في بلادي، لتذبح أي طموح، يراود كبار السن: "في الستين

بدو سكين" مشكلتنا في الشرق، تكمن في عبوديتنا للمألوف والكسل، نفلح دائماً في إرسال رسائل سلبية إلى أنفسنا، تتناسب مع الجهد الأقل في الحياة! لتنعم أجسادنا براحة أشبه بسمّ، يدمّرنا، إذ نسقط متعاً كثيرة من حسابنا، كرمى عيون العادة، وقانون الجهد الأقل، الذي بات قانوناً مقدّساً لدى العرب!

لكن انظري إلى كثير من الناس، من بينهم أمك، ألا تجدينها ترفض الاعتراف بالشيخوخة؟ تسعى وراء الحركة؛ لتزور أحبابها! لا لتتعلم أشياء جديدة! فقد أوقفت قطار عمرها عند محطة (الخامسة والخمسين) إنها تريد أن توحي لنفسها، رغم تثاقل حركتها، بأنها ما زالت بعيدة عن شباك العجز، حتى حين مرضت، ظلت روحها تطلب الطيران، تؤجج في داخلها قوة، تستعيد بها بعض نشاطها، لا يمكن أن أنسى، كيف كانت كلما وقفت على الشرفة، وترى العصافير، وهي تطير، ينطلق لسانها؛ ليحرّر أمنية، خبّأتها في أعماقها: أن تطير مثلها، وتنتقل من مكان إلى آخر، بعيداً عن قيود مرض، جعلها شبه مقعدة!

على مائدة الإفطار، كان عليّ أن أجالس وحدتي، ما أصعب رمضان الغربة، جرّبتها في إحدى مدن الملح، كم كنت أشتاق لمّة الأهل، كنت أبتلع الغصة مع اللقمة، وأفسد على نفسي فرحة الإفطار!

اقترحتُ على (مسيو بونور) قبل خروجه للدرس ترك صحن من الطعام، الذي أطبخه، لحين عودته، لم يمانع، كم أسعدني ذلك، فقد علّمتني أمي أنه من العيب ألا نضيّف طعامنا لمن يراه، أو لمن يشمّه!

رنّ جرس الهاتف بعد خروجه، ظننته من صديقتي الأديبة (روعة) اكتشفت أنه أخ (مسيو بونور) تمكنت من الحديث معه؛ مما عزّز ثقتي بنفسي! التي انهارت صباحاً! حين لم أستطع التواصل مع موظف البنك!

أدركت أن لدي مشكلة في التواصل مع الفرنسيين، طبعاً السبب في ذلك عدم معرفة لغتهم، كما يجب، لهذا جعلت الهدف الأول لزيارتي هذه، هو إتقان اللغة، التي يمكنني عبرها بناء جسور التواصل، فأنقل

بفضلها مشاعري وأفكاري إلى الآخر، لعلي أبني جسر الطمأنينة بين الشرق والغرب!

❊ ❊ ❊

2007/10/11

غريب أمر الأحلام، توقظ مخاوفنا، وتلح على إزعاجنا، مع أن فرويد، يرى أنها تريحنا، وتخلّصنا من أوهام ووساوس، تنخر أعماقنا! فتحتُ عينيّ اليوم، وأنا أرتجف، فقد أحسست أن أحداً، اقتحم ضباب غرفتي، واقترب من سريري، صعقني الهلع، وبدأت أختنق وأصرخ مستنجدة... لكن المدهش في هذا الحلم، أنني لم أترك المنزل، وأهرب، بل تابعت النوم في غرفة أخرى (موجودة فعلاً) قرب غرفتي!

أحسست أن ثمة عدواً، ما زال، يقبع في داخلي، لم أصفِ حسابي معه، بات أشبه بوحش، يسلمني إلى الظنون والأوهام! إنه لم يرَ محتويات غرفتي، كم أنا مدينة لها! أعتقد أن الأشياء الصغيرة كثيراً ما تملك لغة خاصة، تستطيع أن تزرع الأمان في داخلنا، وتقبض على أية رعشة خوف، قد تهاجمنا، حين تأملت، وأنا متمددة على سريري، محتويات، تؤنسني، حتى بدت، وكأنها تحمل لي رسالة ود، ففي صفحتها اليسارية (على الحائط) لوحة كبيرة، تملأ فضاءها زيتونة، تغطي قبباً وبيوتاً قديمة، كُتب في قلبها: زوروا فلسطين ***(Visit Palestine)*** أما على صفحة حائطها الأيمن، فثمة ثلاث لوحات لنساء محجبات في مقام قرب دمشق! صُوّرت بكاميرا خطيب صديقتي (فلورا) كما أُخبرت!

فوجئت بحنظلة، ما زالت يداه مكبلتين خلف ظهره، وهو ممدّد على منضدة صغيرة بجانب سريري، تضمّه حمّالة مفاتيح البيت،

أعطانيها بالأمس مسيو (بونور) بدا ينظر إليّ، عاتبته غاضبة، وقد غُمّ صباحي: أنا هربت منك! لأرتاح قليلاً من همّك؟ لِمَ تلحق بي إلى فرنسا؟ ألا يكفيك أنك لاحقتني في بلدي، منذ فتّحتُ عينيّ على الدنيا؟! حاولت أن أفكّ عجز يديك بكل ما أملك من قوة ووعي، لكن عبثاً! ما أريده الآن هو إجازة من متاعبك، أعرف نفسي لن أستطيع الهروب منك، ما دمت على قيد الحياة! هل يمكن أن يتخلى المرء عن رفيق روحه وآلامه؟

رغم الغصّة، التي أربكت بداية يومي، بدأ شيئاً فشيئاً إحساس بالسكينة والأمان يتغلغل في نفسي، فلم أستطع إلا أن أردّد: كم أنا محظوظة، هأنذي في بيت فرنسي، يعيش أصحابه همومي، ويحترمون ثقافتي!

عاهدت نفسي: عليّ أن أطوّر لغتي الفرنسية، من أجل أن أتواصل معهم بشكل أفضل! يا ربي ساعدني، وامنحني القدرة على التعلّم! لأن جهل اللغة في الغربة، يعني إصدار حكم مؤبد بالعزلة، إذ يصبح السفر دون تواصل مع البشر رحلة إلى جحيم الذات! أعتقد حتى الأمكنة الجميلة، تفقد بهاءها، حين لا نفهم إيقاع لغتها، فيحس الغريب أنه أشبه بأعمى وأصمّ وأخرس، يسوطه سوء الظن بأقوال الآخر وبأفعاله، وبذلك يحكم على نفسه بقلق مجاني، يحاصره، دون أن يستطيع التحرر منه!

كان عليّ اليوم أن أواجه العالم الخارجي، وأراجع وحدي البنك، هيأت نفسي بالأمس، وحفظت اسم الشارع، الذي يتواجد فيه! استسهلت الأمر فقد رسمت خريطة بدائية في ذهني (أخرج من البناية، أتجه إلى اليسار، ثم إلى اليمين) لهذا لم أحمل الخريطة! سرت بكل ثقة بالنفس وإحساس بالنباهة؛ لأنال صفعة بعد دقائق، طعنت غروري في الصميم، فقد اكتشفت أنني ضعت، اختلّ توازني، وبدأ

القلق، يعبث بي! تلفتُّ حولي أريد السؤال، الجميع مسرع، هنا، بحثت، دون أن أيأس، عمن يسير متمهلاً، فلم أجد! تاهت نظراتي بين أجساد متحركة بإيقاع لاهث، مسح ملامحها، فلم أر سوى أقدام مسرعة! حزمت أمري، لابد من السؤال، مهما تكن العواقب، فهي أخفّ من العودة مخذولة فاشلة في أول مهمة أقوم بها وحدي! تذكرت قول أمي:(يلي بتمو لسان ما بيضيع)! وجدت متسكعاً، دلّني، فاستطعت إنجاز المهمة بعد ضياع وقت طويل!.

وأنا أنتظر دوري، فوجئت بـ(مسيو بونور) يهاتفني، ويسألني: أين أنت؟ طمأنته، أنني في البنك! أنعشني اهتمامه، أحسست أنني مدينة لإحساسه بالمسؤولية تجاه غربتي! شكرت ربي، فقد ذهب قلقي! كم نحتاج الاهتمام في الغربة؛ لتذهب عنا رمضاء القلق والخوف!

حين عدّتُ، اكتشفتُ أن البناية، التي أسكنها، لها بابان متقابلان (بينهما حديقة صغيرة وبيت البواب) وأنني بالأمس خرجت من باب، واليوم من باب آخر! لهذا ضيّعت الاتجاه الصحيح، فتاه طريقي إلى البنك! عندئذ هيمن عليّ القلق، ضيّعت ملامح المارة، لكن سرعان ما عادت، بعد أن زال قلقي، كأن إحساس الأمان والثقة، يزيدنا وعياً، فنستطيع تمعن ما يحيط بنا! بدت لي وجوه الناس من حولي متعبة، خاصة وجوه الباريسيات، أفزعتني كثرة الأخاديد في وجوههن وعمقها، قلت في نفسي: كم تبدو المرأة العربية مرفهة، حين أنظر إلى وجهها، تحتفظ بنضارتها، حتى لو غادرها الشباب!

لفت نظري في الطريق أن النساء تصاحب الكلاب أكثر من الرجال، تساءلت: هل يستطيع الرجل العيش دون عائلة؟ ويصعب ذلك على المرأة؟ أ ليست النفس البشرية واحدة، سواء أكانت شرقية أم غربية، تؤلمها الوحدة، وتحاول أن تهرب منها بشتى الوسائل؟ لهذا تستعيض عنها بتربية طفل، أو قط، أو كلب...أدهشتني علاقة الباريسية بالكلاب، تجالسه في المقهى، لا يهمها إن أدار وجهه لها، أم ذيله! المهم أن تحس بقرب كائن، يتنفس إلى جوارها!

لكن ما هذا الفرز بين إحساس المرأة والرجل!؟ ألا تغرز مخالب الوحدة في قلبيهما معاً!؟ ألا تلاحظين اكتئاب كثير من الرجال الوحيدين، خاصة حين يتجاوزون سن الشباب؟ إنها تقتل لدينا جميعاً شغف الحياة، فلا نتذوق في صحبتها إلا المرارة والرعب! ألا تتحول الوحدة إلى سجن، كثيرا ما ترفع جدرانه الأنانية؟ أ ليس الإنسان مسؤولاً عن وحدته؟ أم الظروف والأقدار؟ ألا يعيش آلامها كل من المتزوج والأعزب؟!

* * *

2007/10/12

بعد يومين من وصولي، أخبرتني أختي (صفاء) أن أمي مريضة في المشفى، سقط قلبي، لم أستطع إمساك دموعي، أحسست بخطورة حالتها، نهض عقلي، في تلك اللحظة، مجتازاً حجب الأحزان وظلمتها؛ لينطق بصوت أناني موصياً أختي: "لا تقولي لأحد بأنك أخبرتني"

ما إن أغلقت السماعة، حتى استولت عليّ الدموع! أحسست أنها النهاية، عندئذ احتقرت نفسي! هل يهمني ما يقوله الناس عني؟ هل أخافهم أكثر من رغبتي في رؤية أمي؟ لكن ما يدريني أنه مرض الموت؟ لو كان مرضاً عادياً، لما أخبرتني (صفاء)

أجهشت بالبكاء في غرفتي، وأنا أعاتب أنانيتي، حاصرتني الأحزان! أججتها الغربة! كم نحتاج فيها إلى يدٍ حنون، تقيلنا من ضعفنا وحرقتنا! كم تقهرنا الحاجة إلى كلمة طيبة تعزّينا، وتمسح أوهامنا، التي تكبّرها الدموع! كنت ظمأى إلى كلمة طيبة، تعيدني إلى واقعي ومسؤولياته!

استغربت نفسي، أبكي وأفكّر معاً! هل يمكن أن يعيش الإنسان، في وقت واحد، هاتين الحالتين النقيضتين أو بالأحرى المتصارعتين

بين العقل والعاطفة! بدأت أناقش الحلول من خلال دموعي: إنني أمام طريقين:

طريقٌ يدعوني إلى العودة إلى بلدي، فأخسر كل شيء، إذ يتوجب إعادة ما أنفقته الجامعة عليّ، أما على المستوى المعرفي فخسارتي لن تعوّض... وطريقٌ ثانٍ، يحثّني على البقاء، هنا، فأخسر وداع أمي في أيامها الأخيرة؛ وأقبل بأن يصمني عار الابنة الجاحدة!

تصارع في داخلي صوتٌ يأمرني بأن أستجيب لنداء العقل، وأكسب تجربة، لن تعوّض، لكن صوت العاطفة، بدأ يصرخ في وجهي: أين حبّك لأمك، الكلام لا يكفي! الفعل هو الأساس! إنها، الآن، في لحظاتها الأخيرة، أين حرصك على وداعها، ونيل رضاها!

ثم هل يحق لي أن أترك (الشقا على من بقى) وأتمسك بمنحة، تحولت إلى محنة، ولكن من يضمن لي اللحاق بأمي، قبل أن تفارق الحياة، وآلاف الكيلو مترات تفصل بيننا؟ ما الفائدة من عودتي، بعد أن تكون قد رحلت إلى بارئها؟

رجّحت فكرة العودة، كتبت وأنا أكفكف دموعي، رسالة على الجوال، أطلب من (صفاء) أن تسأل صديقي (د.غيلان) عن إجراءات العودة والتخلي عن المنحة!

اتصلت (صفاء) وبدأت تهدّئني! أمك مريضة في سن الخامسة والثمانين، وهي الآن في غيبوبة، من المتوقع أن تفارقنا في أية لحظة، إنها في غاية التعب، صدقيني لن تلحقي وداعها، مهما سرّعت إجراءات السفر، أنت تحتاجين إلى وقت! ثم ما الفائدة من عودتك؟ هل ستردين لها (روح الأحيا)؟

قلت لها: أريد أن أقف إلى جانبك في هذه المحنة!

ردّت: هناك من يقف إلى جانبي، لا تقلقي!

أحسست أن ثمة شيئاً تخبّئه عليّ! خاصة حين سألتها عن بعض التفاصيل، ولم تجب، ذكّرتني بحديث لنا على شرفة بيتنا، حين قلت

لها: أخاف أن يحدث مكروه حين أسافر إلى فرنسا! كما حدث حين أردت السفر، لأعمل في إحدى مدن الملح، إذ فقدت والدي، قلت لها: أخاف أن أفقد والدتي، فأنا مرصودة، تلاحقني الأحزان أينما ذهبت! سألتني صفاء وقتها: ماذا لو حصل ما تخافين منه!

أجبتها: سأكون عقلانية، وأبقى، لأن عودتي لن تغيّر القدر!

ما أسهل الكلام حين نكون بمنأى عن حُمّى التجربة، قادني الحوار مع (صفاء) إلى إحساس أن ما أخشاه، قد وقع، لكنها لا تريد أن تخبرني بصراحة! خاصة حين قالت لي: هل تظنين أن حضورك سيبعد شبح الموت عنها! هل بيدك تغيير قضاء الله؟

حرق قلبي الحزن، خنقتني لوعة الفقد، هأنذي أواجه عقوقي وحيدة! فقد تركت أمي على فراش موتها، ولم ألتمس رضاها، لم أقبّلها مودعة! نزفت دموعي طيلة الليل!

ما أصعب الحزن في رفقة الوحدة! يتمادى في جبروته وقهره! لا أحد يلجمه! ما أفظع الغربة، تصحبها الغصص، عندئذٍ تخنقنا أصابع الظلمة، وتسد أبواب الرجاء في نفوسنا!

ليس أمامي سوى البكاء والصراخ، الذي يبدو أنه خير وسيلة؛ لتخفيف وطأة القهر! لكن هل يحق لي إزعاج الآخرين وإقلاقهم؟ ما أشد حاجتي لسماع صوت حنون، يقول: البقاء لله، البقية في حياتك...

كم أنا بحاجة لمن يذكّرني بأهمية الصبر، ويسمعني قوله تعالى: "إنّا لله وإنّا إليه راجعون"

أحسست أنني أحتاج من يقول لي: ارتاحت من المرض، رحلت إلى رحمة ربها! إلى كرمه وعطفه! يكفي ما عانته من آلام وعجز!

كم أنا بحاجة إلى حكمة نرددها بعقولنا، دون أن تقتنع بها قلوبنا: بأن الموت رحمة للإنسان وستر، خاصة لمن كان مرضه، يعجزه عن خدمة نفسه!

واجهت حزني بعيداً عن إطاره الاجتماعي! اكتشفت أن طقوسه، تخفّف ثقله، تخرج المحزون بعيداً عن ذاته! تجبره على مواجهة متطلبات الحزن (إعلان الوفاة، مكان استقبال المعزين، الملابس، الضيافة...)

بت أبحث عمن أحدّثه عن أحزاني فلا أجد سوى نفسي ووحدتي! التي تنهشني! وتسلمني إلى رعب، يفيض فراغاً وظلمة، وجدت نفسي في صحراء موحشة، ظمأى للمسة إنسانية! فلا أجد! هاجمتني أشواك الصمت، لتفتح الباب أمام عقلي؛ فيولّي هارباً! بعد أن يقذف بي إلى وحشة، تتشبث بها لوعة الفقد، ويحرسها غول الأحزان! فأتخبط بدموعي حيناً، وحين أريد الهرب منها، تهوي روحي بين سياط، أجلد بها ذاتي! كيف لم أسرع لأكون إلى جانبها! كيف سمحت لنفسي بالبقاء! كم أنا قاسية أنانية! حين لم أعد لألقي عليها نظرة أخيرة! هل يستحق العيش في بلد، ولو كان فرنسا، كل هذه التضحية!

ولكن كيف أعود! وقد توفيت بعد يومين من سفري؟! ما هذا الحظ السيء، الذي يلاحقني! أتيت، هنا، لأنعش روحي وعقلي بتجارب جديدة، ها هو ذا القدر يصفعني، ويملؤني تأنيباً وقهراً!

ضاقت السبل وأظلمت الدنيا من حولي في عاصمة الأنوار! لم أجد ما ينقذني من قهري ووحشتي سوى دموعي! التي لم تتوقف، كنت أشهق كالأطفال، حمدت ربي أنني أعيش في شقة مستقلة، بعيدة عن سمع (مسيو بونور)! لا أريد أن أزعجه بنحيبي! رغم أنني أفتقد المشاركة في الحزن! طال ليلي، باتت دقائقه أيام رعب! أنّبت نفسي صارخة بصوت خنقته العبرات: أين إيمانك بالله؟ أين إيمانك بالقضاء والقدر؟ أين وعيك وحكمتك؟

مع الشعاع الأول من الصباح انهرت على سريري، وأنا أستجدي دمعة فلا أجدها! عندئذ جاءني صوت أمي الحنون: "لو البكي فايد لأبكي وبكّي الحبايب" ردّت هذه العبارة لي عقلي، ونقلتني إلى الواقع، أحسست أنها تعيش فيّ، مثلما أعيش فيها! تريد أن تحميني من حزني!

هدأت روحي! في تلك اللحظة لعلي غفوت، فسمعتها تتابع نصحها بمنطق أكثر وجاهة، تسنده عاطفة أم، تريد أن تحمي ابنتها من الانهيار "لا تبكي يا بنتي بتروحي عيونك"

يا إلهي أمي معي! تحس بي! إنها تخاف على عينيّ الضعيفتين! وتعرف بقلبها الطيب أنني لست نذلة أو عاقّة! أدركت لحظتها أن الذين نحبّهم لن يرحلوا بعيداً عن قلوبنا! أرواحهم ترفرف حولنا، تحمينا من حزننا، وترأف ضعفنا! يا إلهي وصل حنان أمي درجة منعي من البكاء على فراقها! إنها تحس بعيني المتعبتين، وتخاف عليّ من دمعي!

هدأت روحي، وتمالكت نفسي، وفي الصباح نظرت في المرآة أفزعني منظر عينيّ المنتفختين! كان ذلك أول أيام عيد الفطر! اختارت أمي هذا اليوم لتفارق الدنيا، كأنها ترسل لنا رسالة: بأن الموت راحة لها وعيد، فقد أنهكها المرض (جلطة دماغية أثرت على يدها ورجلها) عاشت في صحبته عشر سنوات، ينعشها أمل وحيد، هو أن تتحسن، وتستطيع أن تتحرك وحدها؛ لتخرج إلى الدنيا، دون أن تحتاج إلى يد تتكئ عليها، كانت تناجي ربها، لا أدري لِمَ باللهجة المصرية؟ لعلها متأثرة بالأفلام والأغاني، التي رافقتها منذ طفولتها إلى شيخوختها، فتقول: "إمتى برجع زي زمان؟ فأردّ عليها (قول للزمان: ارجع يا زمان) كانت تقول (بعد الصحة ما في شي إلو طعم) لهذا لم تملّ من تكرار أمنيتها، التي ترددها عبر أغنية فريد اطرش (يا ريتني طير) خاصة أن الطيور، تزور شرفتها يومياً، فتهمس لها برغبتها في أن تطير بعيداً عن قفص عجزها، الذي يضغط بأصابعه الخانقة عليها يوماً إثر يوم، كانت تقيم في أكبر غرفة في البيت، لكن طول صحبتها للمرض، ضيّق جدرانها عليها، حتى بدأ يلتهم رغبتها في الحياة، التي أحبتها كثيراً، رغم أشواكها، فقد سلبها العجز روعتها، بل حرمها متعتها، التي كانت تستمدّها من رؤية الناس والحديث معهم بلغة القلب وبساطة الفكر وعمق الإحساس وبراءته!

أسبغ المرض المرارة على أيامها، خاصة في سنتها الأخيرة! أحست أنه سرق منها أجمل ما في حياتها، حين عزلها عن أحبابها؛ بدت حياتها خاوية مظلمة، خاصة أن الأقارب والمعارف، انقطعوا عن زيارتها لبعد بيتها عن دمشق القديمة! ازدادت تكاليف المعيشة صعوبة، بدأ الناس يحسبون الكلفة الباهظة للانتقال من مكان إلى آخر! ومن يملك المال، كان منشغلا بهمومه الخاصة! كانت على نقيض أقاربها، تعيش منشغلة بهمومهم، تدعو لمريضهم، وترأف بفقيرهم، وتسرع إلى تقديم العيديّة لأطفالهم، كانت في الفرح أول من يقدّم الهدية، وفي الحزن أول من يقدّم العزاء! اختزلت حياتها في هذا التواصل الإنساني! كنّا نساعدها، قدر ما نستطيع، لكنها لم تكن راضية، لأن المرض سلبها حريتها في التواصل، حين قيّد حركتها! بدأت تفقد صبرها في الأشهر الأخيرة، قبل سفري، ففقدت أمنها الداخلي واستسلامها!

يبدو أننا حين لا نرضى بما نملك، ونبحث عما ينقصنا، تزداد أوجاعنا، وتزداد نفوسنا حلكة ويأساً، إننا بذلك نمهد الطريق لانهيار الجسد والروح معاً.

ماتت أمي، حين فقدت الأمل في الشفاء، فقد ملّت العلاج الفيزيائي، كانت تشفق علينا من مصاريفه، وتقول: يا حرام كله على الأرض! فهو لم ينقذها من ضعف حركتها، ولم يعِد لها حيويتها، التي كانت عليها، رغم تجاوزها سن السبعين، كنا نخالفها الرأي، فنقول لها: إنه ضروري، كي لا تستفحل حالتك، لم نكن نقنعها! فهي ترى أن حركتها ما زالت بطيئة، لم يحرّرها العلاج، لتنطلق في حواري الشام دون مساعدتنا! كانت تشتعل غضباً علينا وعلى المعالج (أيمن) الذي كان يستحملها بنبل إنساني؛ عبثاً كنا نحاول إقناعها: أنت الآن تتحركين، تخدمين نفسك! لولا العلاج لبقيت مسجونة في سريرك! كنا نخاف أن نقول لها: أنت تجاوزت الثمانين! احمدي ربك أنك تحسنت، وأفلت من مخالب الفراش، ولو بتلك الحركة، التي لا تعجبك!

لاحظت قبل سفري، كيف بدأت تفقد شهيتها للحياة! لم يعد يسعدها سماع الأغاني، ومشاهدة أفلام الأبيض والأسود، لم تعد تمارس تمارين، أوصاها بها معالجها الفيزيائي، الذي بات صديقاً لها، تحكي له همومها وذكرياتها وأفراحها وأحزانها، في غيابه تعترض على مجيئه، لا تريد أن تكلّفنا مالاً دون فائدة، ولكن ما إن يأتي، حتى تستعيد طبيعتها المضيافة، وتنسى اعتراضها، وتبدأ بسرد مذكراتها على مسامعه!

كنت أقول لأختي: حتى لو لم تستفد جسدياً، فإنها تستفيد نفسياً! تلتقي بمن تحدّثه ويصغي إليها، وبذلك تحس أنها على تواصل مع الحياة، فتنشّط نفسها، وتطرد شبح عزلتها، ولو ساعة كل يومين، تتهيأ لاستقبال الضيف المعالج بكامل نظافتها، تسأل عن الضيافة، يزعجها ألا نفكّر بمثل هذه التفاصيل!

* * *

2007/10/13

لاحظت أن (مسيو بونور) لم يسألني عن أمي، بعد أن أخبرته أنها في المشفى، هل أجابته عيناي الحمراوان؟ وجفناي المنتفخان؟

بما أنه لم يسأل! اعتقدت أنه غير مهتم؛ لهذا لم أستطع إخباره بوفاتها!

نهض في داخلي مارد، يمنعني أن أثقل عليه بهمومي! لا يحق لي، وأنا ضيفة في بيته أن أزعجه بنحيبي وصراخي! سكنت ودموعي في غرفتي، كانت تختفي، حين أخرج منها، أبذل جهد الجبابرة، كي أضغط على نفسي، وأتصرف بشكل عادي! لكن الحزن لا يستطيع إلا الإعلان عن نفسه! من يستطيع إغلاق فوهة بركان بغلالة رقيقة؟

احترم صمتي! لم يسألني عن أمي! لعل صديقتي (ابنته فلورا) أخبرته! بدا لي أنهم يحترمون الخصوصية، حتى في أمر، يحتاج إلى مشاركة وجدانية!

واجهت نفسي: عليّ أن أتعلم لغة المنطق! ألا أسير مع هوى انفعالاتي، التي ستجرفني إلى الهاوية! من نحبهم لن يموتوا أبداً! إنهم أحياء، ينبضون في قلوبنا! وأرواحهم تعانق أرواحنا!

استطعت اليوم الحديث مع أختي صفاء بكل هدوء، اطمأنيت عليها وعلى ناهدة! قلت لها: لقد اختار الله الخير لأمّنا! أ ليس هذا أفضل من أن تعيش مشلولة تماماً، كانت تتحرك داخل البيت، ونستطيع اصطحابها خارجه، ولم يرضها ذلك! من الصعب تقبّل الإعاقة، يحتاج ذلك إلى قدرات نفسية هائلة، امتلكتها قبل عشر سنوات، لكنها الآن لا تملكها! قالت بصوتها الهادئ الحنون: كم سيضنينا رؤيتها مكبّلة في غيبوبتها، دون أن نستطيع فعل شيء، يخفّف عنها العذاب!

أصغيت لنصيحة قلب أمي، وعاهدت نفسي على عدم البكاء! أن أحمي عينيّ؛ لأنني لن أجد من يمسح دموعي في غربتي!

كم تنقذنا بعض الأفكار، وتودي بنا بعضها إلى التهلكة، بتُّ مدينة لفكرة أن أمي لم تمت! صحيح أنها فارقتني جسداً، لكنها بقيت معي روحاً! شيئاً فشيئاً عاد توازني، بدأ طيفها بالحضور، فأجد نفسي أردّد ما يقوله لسانها، وأتصرف بأفعالها! قلت اليوم لـ(مسيو بونور) على مائدة الطعام، وقد اجتمع عليها الخبز والملح، عبارتها الشامية: "أصبح بيننا خبز وملح" وشرحتها له بلسان أمي، التي علّمتني أن المشاركة في الطعام، تعني مشاركة في الروح والدم؛ مما يغذي البشر بمشاعر الأخوة والمحبة!

لا أدري ما الذي دفعه لمساعدتي؟ هل أثّرت به كلماتي هذه، وأحسّ بنبض صدقها؟ أم طبيعته الخيّرة؟ أم إحساسه بحزني لفقد أمي؟ كم قدّرت له أنه لم يتركني وحيدة، أتخبط في البحث عن طريق يوصلني إلى معهد اللغات الشرقية (الإينالكو) بعد أن بيّن لي أن أفضل وسيلة

نقل إليه هي (المترو) وبذلك عرض عليّ أن يدلّني (بما أنه اليوم يوم عطلة) عبر درس عملي؛ كي أستطيع غداً الذهاب وحدي!

إنهم، هنا، يعلّمون الإنسان الصيد، لا يقدّمون له السمكة جاهزة، إنها ثقافة الاعتماد على النفس، التي تطور الشخصية! ذكّرني بأبي شبه الأمي، كيف ربّاني على الطريقة نفسها! بل أضاف إليها حس المسؤولية تجاه إخوتي الصغار، فأنا ابنته البكر، عليّ أن أهتم بهم! تجاوز أبي عصره، فرفض التصنيف التقليدي، ولم يكن يميّز بين مهام الذكر والأنثى!

على مائدة الصباح التقيت بشابة تدعى (كاترين) صديقة (فلورا) بدأت تتحدث مع (مسيو بونور) في السياسة، فهمت فحوى الحوار، الذي يدور حول أزمة السياسة الجزائرية، للوهلة الأولى ظننتها صحفية! وحين سألتها عن مهنتها، أخبرتني ببساطة بأنها راقصة! خبّأت ذهولي بين أضلعي، خجلت من إعلان تخلّفي أمامها، وبدأت دون أن أشعر أنفض من مخيلتي صورة تقليدية للراقصة في بلادنا، تهتم بهزّ الغرائز! أحسست أنها تقدّم مفهوماً للرقص، يكاد العرب لا يعرفونه، إذ أخبرتني بأنها ترقص على أنغام موسيقى صوفية!

قدّمت لي (كاترين) العزاء دون أن تحس، أشعرتني بأن الحياة مستمرة، رغم خبطاتها الموجعة! أمي تريدني قوية، سأقوم بكل ما كانت تحب أن تفعله (الخروج من البيت والمشي وزيارة المحبين) قلت في نفسي: هذه أفضل طريقة لمخاتلة الحزن، وبما أنني في الغربة، ليس لدي أحد أطرق بابه، كما تفعل أمي في حواري الشام، قررت المشي في شوارع باريس الجميلة، قادتني قدماي إلى حديقة النباتات، القريبة من بيتي، في اللحظة، التي دخلتها، أحسست أن الطبيعة تقدّم لي عزاءها، تمسح بيدها الحنون تعبي، صافحت حزني الخضرة والزهور؛ بدأت أصغي إلى لغة الروح، وهي تبذل جهداً، لتقوّيني، وحين جلست،

توافدت إليّ الطيور بكل شكل ولون! رفرفت نفسي، وانتعشت، وهي تتأمل هذا الجمال، الذي هو أشبه بحلم، سمعت صوت أمي يهمس في أعماقي: ماذا تريدين أكثر من الخضرة والماء والوجه الحسن! قلت: ها هي ذي أمي تسرع إليّ؛ لتقف روحها إلى جانبي، تواسي وحشتي؛ لتنسيني غربتي! كأنها تدلّني على طريق، ينقذني من ظلمة الحزن، وتدعوني إلى تأمل نور الطبيعة، الذي يطرد وحشتنا! ويصغي دون ملل إلى همومنا، وتمتد يده؛ لتخفّف أثقالنا، وتخرجنا من كهف عزلتنا!

أعترف، رغم ما بذلته الطبيعة من جهد، لم أنجُ من غصص، تهاجمني، لتخنقني! تذكّرت أن التنفس العميق، يخفّف الضغط النفسي، فجرّبته، وأنا أتأمل الجمال حولي، وأقول: كل هذا الجمال في الطبيعة وُجد من أجل الإنسان، سيخسره في لحظة موته، بل في لحظة حياته! حين تعمى بصيرته، فيسمح للضعف والتشاؤم بالهيمنة عليه!

عليّ أن أعيش لحظتي الحاضرة! صرختُ في وجهي: هيا متعي نفسك بهذا الجمال، الذي منحك الله إياه، إنه خير معين لك، يساعدك على الوقوف ثانية! هيا خبّئي أحزانك مثل كنز، بما أن هذه المصيبة لم تقتلك، فهي قادرة على أن تقويك، كما يقول فولتير، هيا انفضي غبار ضعفك! ثمة هموم كثيرة، تنتظرك في غربتك!

في تلك اللحظة، انعقدت ألفة بيني وبين حديقة النباتات، باتت أشبه بمكان مقدّس أحج إليه كل يوم تقريباً! خاصة بعد أن اكتشفت أن ثمة باباً آخر فيها، يفضي إلى نهر السين، الذي أصبح من أعز أصدقائي!

* *

لاحظت أن (مسيو بونور) يشغل وقته بالقراءة والخروج من المنزل، رأيت أن أنسب وقت للقائه والحديث معه هو وقت الظهر (عند

الغذاء) ضيّفني اليوم على مائدة الغداء (قطعة سمك) سمعت وأنا أمضغ الطعام صوت أمي يهمس: من العيب ألا تردّي العزيمة! قلت له: غداً سنتغدى سمكاً على حسابي! لم يمانع أو يتظاهر على عادة الشرقيين بالممانعة!

وجهت الدعوة أيضاً إلى (كاترين) أردت أن أفوز بصداقتها، فأنا أحوج ما أكون إلى التواصل مع البشر! فقلت في نفسي: ربما يكون قلبها في معدتها، مثلما يشاع عن الرجل!

أحسست أن على الغريب أن يبتكر وسائل التواصل مع الآخرين، لعل الطعام أكثرها سهولة في نسج المودة سريعاً بين القلوب! أ لأنه لغة عالمية مثل لغة الإشارة؟ لكن أعتقد أنه أكثر تأثيراً منها! إنه يسري في الجسد والروح معاً!

* * *

2007/10/14

لعل أول فكرة راودتني، وأنا ما زلت في فراشي، أن (مدام بونور) ستأتي اليوم، عليّ أن أجعل لقائي الأول بها مؤثراً! لاحظت، أثناء غيابها، مكانتها المتميزة في البيت، حتى إن (مسيو بونور) لم يسمح لي بإفراغ حقيبة مؤنتي في رفوف المطبخ، حتى تعود!

همست: عليّ أن أستقبلها بشيء مميز، أتيت به من الشام! لعلي أدخل الفرحة إلى قلبها، فلا تحس أنني مستأجرة عادية، بل صديقة!

لم أجد سوى الزهورات، فهي شراب مميز برائحته العطرة، ويحمل هوية بلادي، خاصة أن المسافر المتعب أول ما يفكر فيه، حين يعود إلى بيته أن يشرب الماء أو أي مشروب آخر، أوكلت لهذه الزهورات مهمة استقبالها في غيابي! فقد كان لدي موعد مع أستاذي (جوزيف) في معهد اللغات الشرقية!

غليت الزهورات في إبريق صغير، دثّرته بمنشفة صغيرة (وردية اللون) علّقت عليها ورقة، كتبت فيها "زهوراتنا الشامية ترحب بك" كل ذلك من أجل أن أفوز بابتسامة ترحيب، تنسيني غربتي، وتخفّف حزني على أمي!

قررت حين أعود، أن أحمل لها أيضاً بيدي ما يفرحها، فلم أجد سوى أصيص مزهر بشكل رائع، قدّمته لها، وأنا أقول بفرنسية مرتبكة: هذه الزهور تحتفي بقدومك! أسعدها ذلك! اتسعت ابتسامتها، حتى ملأت وجهها النحيل، ازدادت أخاديد وجهها عمقاً وطيبة، وهي تعانقني بحرارة، تركت أثراً منعشاً في روحي، رافقني حتى لحظة عودتي إلى بلدي!

في طريقي إلى المعهد استعدت طفولتي، انتابتني مشاعر رائعة، امتلأت نفسي بفرح العودة إلى عهد التلمذة، حيث كانت الأحزان تضلّ طريقها إلى قلبي، غالباً، انطلقت مسرعة، أتمتع بلحظة نادرة، أخطفها من طفولتي، لعلي أنسى صفعات الحياة، التي لاحقتني طويلاً! كنت أسرع في سيري، وأنا أحدّث نفسي، هأنذي طالبة في الخمسين، تركض من أجل العلم، الذي لم تتوقف عن طلبه، انتعش داخلي، خاصة أنني أسير في رعاية شمس خريفية، تبدو هاربة من بلادي؛ لتخصّني بدفئها، وتطرد وحشة غربتي! خفقت في أعماقي اندفاعات الشباب وحماسته، فوجئت بانبثاقها، مع أنني كنت أظنها تاهت في زحمة الخيبات وحصار الأحزان والسنين!

أخبرتني سكرتيرة الدكتور (جوزيف) المشرف على بحثي، بنبرة حادّة بأنه غير موجود، لديه محاضرة، لأول مرة لم أحب اللغة الفرنسية، فقد بدت لي يابسة غريبة عن رقتها ولباقتها، التي كنت أحس بشدوها في قلبي، قبل أذني.

لاحظت أنها لم تدعُني لانتظاره في مكتبها أو مكتبه، مع أنني عرّفتها بنفسي، وقلت لها: إنني أستاذة جامعية، أتيت منذ أيام من سورية! صدمني أنني لم أسمع كلمة ترحيب، كنت ظمأى، كعادة الغرباء،

لسماعها، سألتها: أين أنتظره؟ فأشارت بيدها إلى دهليز مظلم، ظننته عيناي الضعيفتان قاعة استقبال! لكنني حين اقتربت منه أكثر، وجدته موحشاً، لم أجد فيه أثاثاً سوى مقعد خشبي متهالك، انتهت صلاحيته، ولم يعد مناسباً لجلوس الطلاب!

هربت، في تلك اللحظة، مشاعر البهجة بعودتي إلى عهد التلمذة! حلّ محلها إحساس بالإهانة، بدأت أتساءل: لِمَ عاملتني بهذه الطريقة؟ هل أزعجها حجابي؟ هل أزعجتها بفرنسيتي المرتبكة والخجولة؟ هل هي حريصة على وقت عملها، فلا تريد تضييعه باستقبالي؟ هل هو قانون العمل لديهم، يحتّم عليها هذه الطريقة في معاملتي؟

احترت في أمري، ماذا أفعل؟ عزّت عليّ نفسي! هل أبحث عن مكان آخر أكثر كرامة؟ أنا في مرتبة أستاذ، لي عدة مؤلفات، قطعت آلاف الكيلو مترات لأزورهم، وأغرف من علمهم! هأنذي أقبع مهملة في هذا المكان المظلم!؟ قلت لنفسي: هدئي من روعك! السكرتيرة تجهل من أنت؟ ربما لم تحسني التعريف بنفسك، لكن ما الذي تخسره لو دلّتني على مكان لائق للانتظار؟ هل يقدّسون مكان العمل إلى هذه الدرجة، التي تخلو من اللباقة والذوق؟ إلى هذه الدرجة يحرصون على وقت العمل، ويخافون أن يعطّلهم أحد؟ كان بإمكانها أن تخيّرني بين هذا الجحر ومكان أكثر إنسانية، بعيداً عن مكتبها!

تأملت وأنا أجلس على ذلك المقعد المظلم تناقض مشاعري، قبل قليل أسعدتني العودة إلى عهد التلمذة باختياري، لكنني غضبت، حين أُجبرت على العودة إليها بهذه الطريقة المذلّة! غريب هذا الإنسان، كيف يرتقي به شعور الحرية، فيحلّق مفعماً بالتجلي والفرح، ويهوي به شعور العبودية والإذلال إلى الحضيض ؛ ليعيش أقسى درجات الإهانة والألم!

استقبلني أستاذي (جوزيف) بحفاوة أكثر مما توقعت، كنت خائفة أن تتكرر برودة السكرتيرة! حدّثته عن بحثي "صورة الآخر في ألف ليلة

وليلة" وأنني بحاجة إلى بعض المراجع فقط! بيّن لي أن بإمكاني الاستعانة بمكتبة المعهد (أفهمني أنها تقع في مكان آخر بعيدا عن المعهد) أسعدني حين أهداني كتاباً فيه مجموعة أبحاث عن "ألف ليلة وليلة" قام بتحريرها!

لحسن الحظ كان وقت استراحة الغداء، دعاني إلى مطعم المعهد قائلاً: سأعرفك على بعض الأساتذة العرب، فقبلت الدعوة، لاحظت طيبته، حين أراد أن يأخذ علبة الفواكه المجففة، هديتي إليه، فقلت له احتفظ بها لبيتك، أحمل معي قطعاً من القمر الدين، سأقدّمها بعد الغداء!

كان المطعم بسيطاً، وبدت الجلسة لطيفة، اجتمع معي اللبناني والمصري والفرنسي، تحدثنا عن همومنا في البلاد العربية (أهوال السلطة السياسية، تدهور التعليم، الثقافة...)

بعد الغداء سألني أستاذي: هل تشربين القهوة؟ رحبتُ بدعوته على غير عادتي المتحفّظة والخجولة، يبدو أن من فوائد الغربة، أنها تجعلنا أكثر جرأة في التعامل مع الناس! قلت بيني وبين نفسي: هذا العرض يفتح أمامي أبواب الحديث والتواصل مع أساتذة، أحتاج التعرّف إلى أفكارهم! فقد لاحظت في فرنسا مدى جوعي للحديث والتواصل مع البشر، لكن آه "يا فرحة ما تّمت" تحطم حلمي البسيط، فقد صُدمت حين وجدت القهوة تُشرب، هنا، وقوفاً لا جلوساً؛ وبذلك ننهي مهمة شربها في أسرع وقت ممكن! في حين نطيل في بلدي مدة شربها قدر ما نستطيع!

قلت أعزّي نفسي: شتان ما بيننا وبينهم! إنهم يهجسون بالوقت! لذلك يبدو مكان العمل مقدّساً، يحجّون إليه! ثمة نظام يُتّبع، يعطونهم فيه ساعة فراغ للأكل والشرب، ليسوا مستعدين لخلخلة نظامهم من أجل ضيف! ليس لديهم استثناءات أو حالة طوارئ دائمة مثلنا!

إن ما ينقصنا هو تقديس وقت العمل، فلا نبذّره بالثرثرة واستقبال الضيوف! كثيراً ما أجد دوائر العمل في بلدي، قد تحولت إلى مضافة، وهات يا شاي ويا قهوة ويازهورات!

* * *

2007/10/15

تأملت صباحا مدام (بونور) امرأة نحيلة، حتى تكاد تقترب من هيئة طفلة، لكن أخاديد، تثلم صفحة وجهها، أنبأتني بقصة آلام عانتها، ومسؤوليات حفرت عميقاً في ملامحها! حتى إنها منحها هيئة عجوز! سرعان ما حطّمت حركتها النزقة هذه الصورة، التي شكلتها لها! كأن هذه الحركة باتت عادة مستحكمة لديها، ترى هل تريد بها تعويض وقت أضاعته في الماضي، لا أدري أين؟! وكيف؟ لاحظت كيف استطاعت حيويتها هذه أن تهزأ بملامح الهرم وبصمات الشيخوخة! لتهبها روح الشباب! مثلما استطاعت ابتسامتها، التي تشع في وجهها، طرد الصرامة، بكل ما توحيه من قسوة وعصبية! كان لهذه الابتسامة مفعول السحر، الذي تسلل إلى قلبي، أراحني، وشجعني على بناء صداقتنا على أسس متينة! وبما أنني لا ألتقي بالعائلة إلا وقت الطعام، فقد حدثتها عن رغبتي في التشارك في نفقاته، كما حدّثتها بصراحة عن اختلاف عاداتنا عن عاداتهم، قلت لها: كنت صائمة واشتهيت رائحة القهوة، التي يصنعها زوجها بيديه يومياً في الصباح، خجلت أن أطلبها حين فطرت! بالأمس، انتهى رمضان، لجأت إلى اللف والدوران، فقلت له، وهو يعدّ القهوة صباحاً: كم أحبّ رائحة القهوة! لكنه لم ينتبه إلى تلميحي! اعترفت لها بصراحة بأنني ضيفة، أخجل من الطلب المباشر! فهذا عيب، حسب أصول تربية محافظة، اتبعتها أمي!

نظرت إليّ باستغراب وقالت: عليك أن تطلبي صراحة، ولا تخجلي!

قلت: أريد كل يوم فنجاناً صغيراً من القهوة، وليس كبيراً، كما تشربون!

قلت في نفسي: علّمني الفرنسيون التعبير الصريح والمباشر! العرب يقدّمون القهوة دون أن يسألوا الضيف: هل تريد...؟ وأحياناً لا يريد، فيشرب خجلاً! كأنهم لا يريدون أن يبذلوا جهداً لغوياً بسؤاله! فيحرجونه...

بعد عودتي من فرنسا، كنت حين أزور أحداً، غالباً ما أطلب صراحة ما أريد شربه دون تردد أو خجل!

أحسست أن الكلمة لها قيمتها لدى العائلة الفرنسية، إنهم لا يبالغون، ولا يلحون، فلا يستخدمون كلمة زائدة عن الحاجة! أنت حر تريد أو لا تريد! لِمَ التكرار، وبذل جهد لغوي دون طائل، طبعاً، مثل هذا التكرار اللغوي، يُضيّع كنز وقتٍ، حين يمضي لن يعود، لكننا في بلادنا لا نهتم به، رغم أنه لا يمضي فارغ اليدين، إنه يصطحب معه حياتنا!

أنا بحاجة إلى صداقة نقية من الأوهام والأفكار المسبّقة، التي تعكر الوداد؛ لهذا أجريت عملية حفر في داخلي، وأخرجت أمام المدام ما يقال في بلادي عن الغربيين: إنهم ماديون، كل شيء محسوب لديهم بالمال!

أجابتني: هناك من يحسب، وهناك من لا يحسب! ثمة فروق بين الناس!

قلت لها: الآن مع ارتفاع الأسعار في بلادي، كثر من باتوا يحسبونها مثل الغربيين! إننا فعلاً لا نستطيع أن نضع البشر في سلة جغرافية واحدة! ثمة من يربى على البخل أو الكرم، وثمة من يتمرد على ذلك سواء في الشرق أم الغرب!

* *

أخيراً أطلقت سراح مؤنتي من حقيبتي، ورتبتها مع المدام في المطبخ، عرّفتها على أنواع الزهورات الشامية والبهارات الشرقية، فأنا أدرك أهميتها لدى الغربيين، أ لم يخوضوا حروباً من أجلها؟

تعمّدت استخدام ضمير الجماعة (هذه بهاراتنا...) لأعبر عن ملكيتنا المشتركة لها.

لاحظت الحيّز الكبير، الذي احتلته (المؤنة، والزهورات والبهارات) على رفوف مطبخها، فقلت لها محذّرة مقطّبة: انتبهي ثمة احتلال في منزلك، تقوم بهالبهارات الشرقية، لعلها جاءت تنتقم من الاحتلال الفرنسي لبلادي! فانطلقت ضحكتها من أعماق قلبها!

آلمني، بعد الغداء، أن ترمي المدام ما تبقى من طعام، الذي تعبت في إعداده في القمامة! عبّرت عن رأيي بصراحة: إنني لا أستطيع أن أفعل هذا، أحس بأنني أرتكب إثماً، إذا قمت برمي الطعام، التي ندعوها (نعمة الله)!

أجابتني: نحن اعتدنا على تناول الطعام الطازج!

كان درساً مهماً لي في الاقتصاد المنزلي، عليّ ألّا أكثر الكمية! ثمة مأكولات، حتى في بلدي لا نأكلها بائتة، كالسلطة، لكن الطعام، الذي نتعب في طبخه، ونبذل مالا من أجله، لا ضير في أكله يومين!

* *

التقيت بعد الظهر بالدكتور (كامل) من المغرب، دلّني عليه أستاذي (جوزيف) تحدثنا في البداية بالفرنسية، لكنني بعد قليل، فضلت الحديث بالعربية، كي أكون على سجيتي! فينطلق لساني في الحوار دون تلجلج، حين قدّمت له الحلوى السورية، قال لي: إن زوجتي الفرنسية تحبها! فقد درست العربية في دمشق!

دعاني إلى كأس من الشاي في مقهى (في سان جرمان) بدأنا الحديث عن موضوعي وعن حبه لألف ليلة وليلة، إلى درجة اختصاصه بها، ثم

فاجأني بلهجته الأبوية قائلاً: أريد، في بداية إقامتك في باريس، أن أوجّه إليك نصيحتين: الأولى احملي خريطة، تكون دليلاً لك في باريس! والثانية اخلعي حجابك! تأمّل ملامح الاستنكار، التي غزت وجهي، فأردف بلهجة الواثق بقدرته على الإقناع: أنت تقيمين في بلدهم! عليك أن تتأقلمي مع حياتهم وثقافتهم، وكي تستفيدي من معارفهم على أكمل وجه! عليك ألا تكوني غريبة عنهم!

عقدت الدهشة لساني للحظة، تأملته، اضطرم قلبي غضباً، إنه يتدخل في خصوصيتي، وهذا لم أعتد في بلدي، رغم انزعاج الكثيرين من حجابي!

قلت له: سأسمع نصيحتك الأولى، أما الثانية فلا، لأن الغربيين، حين يزورون بلادي، تُحترم خصوصيتهم، مع أنهم يرتدون ملابس تصدم مجتمعي المحافظ لشدة عريها! كم مرة شاهدتهم يتجولون في حواري دمشق القديمة، كان الناس، يكتفون بنظرات فضولية، وتلصص أخرس! يشي برغبات مقموعة، تخترق بسهامها الجسد الأبيض المشوب بالحمرة! لكنهم لن يسمعوا كلمة مزعجة! يحصل هذا في بلدي المتخلف، كما تعلم! فما بالك في فرنسا بلد الحرية والعلمانية!

علت نبرتي دون أن أشعر: هل تريدني أن أتخلى عن حجاب رُبيت عليه، منذ صغري، حتى بات جزءاً من خصوصيتي وشخصيتي! لهذا لن أخلعه، كي يرضوا عني! لا أريد علماً مشروطاً! خبرني متى سُجن العلم بشكل الإنسان أو معتقده! أعتقد أن العلم الحقيقي، ينهض بعقل الإنسان بعيداً عن أي أطر خارجية!

قال بلهجة هادئة: لا تنسي أنك تعيشين، هنا، في بلد علماني، لا يريد أن يرى أي شعار أو رمز ديني، خاصة أن الحجاب يوحي بقهر المرأة، وتقييد حريتها!

قاطعته، والكلمات، تتدفق بحرارة من قلبي قبل لساني: أين احترام الخصوصية! هل تصدق بأنني مع الحجاب أحس بحرية أكبر! فتح فمه

مذهولاً، فقلت: إنني بفضله أصبح أكثر عملية! لهذا لم أجده يوماً عبئاً عليّ، يمنعني من تحقيق ما أريد!

قال بهدوء: - أنت غريبة، هنا، ستشعرين الآخر بغربتك عنه، حين تصدمينه بما لم يألفه!

- سأقول لك من الآخر: حين أريد خلعه، أختار ذلك بنفسي! أما أن يفرض عليّ خلعه، فذلك يشبه أن يفرض عليّ لبسه! المهم حريتي في وضعه أو خلعه! لست طفلة صغيرة لا أعرف مصلحتي!

قلت بيني وبين نفسي: عليّ أن أعرّفه على تاريخي الشخصي! لهذا خفّفت لهجتي المتوترة قليلاً: هل تعرف بأن الحجاب لم يمنعني من طلب العلم أو السفر من أجله!؟ هل تعرف بأنني حين عُينت معيدة، قبل حوالي خمس وعشرين سنة، في جامعة دمشق، سألت أبي شبه الأمي، الذي لا يعرف سوى الثقافة الدينية: هل تسمح لي بالسفر إلى فرنسا لأكمل دراستي؟ قال: اذهبي حيث شئت! فالرسول (ص) يقول "اطلبوا العلم ولو في الصين"

فوجئ ببردة فعلي العنيفة، فتمتم: يهمني مصلحتك، أريدك أن تتأقلمي وتمضي وقتاً مريحاً، هنا، وألا تقف أية عقبة في وجه تحصيلك المعرفي! أعتقد بأنك ستستمتعين بالإقامة بشكل أفضل، حين تندمجين في المجتمع الفرنسي!

قلت وأنا أقف مودعة: اسأل العائلة الفرنسية عن مدى اندماجي بها، مع أنني وصلت فرنسا منذ أيام قليلة! لماذا تتخيل أن الحفاظ على الخصوصية يعرقل الاندماج! أعتقد أن الإنسان فكر ومعاملة، وليس شكلاً خارجياً، قد يصدم الآخر في البداية، لكن سلوكه، يخبر عن اندماجه أو عدمه!

أجاب: أنت تصرين بحجابك تذكير الفرنسي باختلافك عنه!

قلت له: ليس من الضروري أن يؤدي الاختلاف إلى أي نفور أو صراع، كما تتخيل، قد يؤدي إلى غنىً إنساني! على أي حال شكراً لاهتمامك!

في طريق عودتي مُلئت غيظاً من اقتراحه! جرحني تدخله في خصوصيتي، وقد بلغت سن الكهولة، مشيت مسرعة، كأنني أهرب من اقتراحه، وأنا أسمع أمي، كأنها تهمس في أذني: يا لطيف بدو تطلعي عن دينك!

يا أمي إنه عربي متزوج من فرنسية، يريد الاستقرار في فرنسا! لهذا يبحث عن طرق تجعله يحسّ أنه جزءٌ من مكان، اتخذه وطناً، عليّ أن أعذره، إنه مضطر لإعلان ولائه لمجتمع، يراه مختلفاً، مهما حاول الانتماء لثقافته!

أحسست أن (د.كامل)لم يستطع التخلص من ثقافته؛ لهذا اختص بألف ليلة وليلة! ثمة رغبة لا شعورية لديه في الانتماء إلى الشرق، ترى هل يستطيع الإنسان الانسلاخ كلياً عمّا نشأ عليه فعلاً؟

أعترف بأن نصيحته أربكتني، وأدخلت القلق إلى نفسي، لذلك سارعت إلى مناقشتها، على مائدة العشاء، مع صديقيّ العلمانيين، فقالت لي (مدام بونور) منفعلة: أنت حرة افعلي ما يريحك! لست ملزمة بخلع الحجاب، حتى إنهم في الجامعة يتغاضون عن ارتدائه، لكنه في المدارس ممنوع، لأن فرنسا دولة علمانية، تريد أن ينشأ أطفالها بعيداً عن أي مظهر ديني!

زرعت نصيحته الخوف في نفسي إلى آخر لحظة من إقامتي، حتى إنني ترددت في زيارة جامعة (سوربون 3) مع أنها تبعد عن بيتي أقل من خمس دقائق! صحيح أن كلام العائلة أراحني، لكن لم يستطع أن يزيل قلقي؛ ربما لأن (د. كامل) يخالط الفرنسيين في الجامعة، وهو على صلة يومية بمعاناة طالباته المحجبات، اقتحم ذاكرتي موقف السكرتيرة في معهد اللغات الشرقية، الذي بثّ مرارة في روحي!

* * *

2007/10/16

حين هممت، اليوم، بدخول غرفة الصالون؛ لأضع صحن السلطة على مائدة الطعام، فإذا ب(مسيو بونور) يستوقفني مستأذناً شرب كأس من النبيذ، اعتاد عليه، حين يأكل نوعاً محدداً من اللحم!

قلت له مذهولة: أنا في بيتك وتستأذنني! أنت حر افعل ما شئت!

أسعدني استئذانه قدر ما أدهشني! تساءلت بيني وبين نفسي "ما معنى الحرية؟" أ ليست أن نحترم خصوصية الآخر واختلافه، وبذلك نحتفي بالتنوع، فلا يكون الناس نسخةً عن بعضهم بعضاً، ألا يمنح هذا حياتنا جمالاً!؟ألا تعني الحرية أن يفعل الإنسان ما يريحه، لا ما يلزمه به الآخرون! ألا تعني انفتاحاً على الآخر، وفي الوقت نفسه انفتاحاً على الذات، فلا تضطر إلى تزييف قناعاتها إرضاء للغير؟ ألا نحتاج إلى أن نفعل ما يسعدنا، شرط ألّا نؤذي مشاعر الآخرين؟

ترى ألا نسير في طريق العنصرية، حين نغلق أبواب ذواتنا على معتقدات، هي في الأصل حمّالة أوجه!؟ ألا نؤسس بذلك لكراهية الآخر؟ ألا يؤدي بنا هذا الطريق إلى ظلمة، تزدهي فيها أنانية (أنا ومن بعدي الطوفان)؟

عايشت اليوم بفضل (مسيو بونور) تجربة جديدة: أن أحترم مشاعر الآخرين ومعتقداتهم، عندئذ أخلق، بيني وبين من يختلف عني، جواً من الراحة والتفاهم! رغم أنني متدينةٌ، لم أحس أنني أرتكب إثماً، حين أجالس شخصا يشرب النبيذ! بفضل استئذانه، مات في داخلي أي نفورٍ من هذا الشراب! أعترف بأنني لم أعتد على رؤيته، حتى في المطاعم، التي أرتادها في بلدي! كثيراً ما أحاول أن أنتقي تلك التي لا تقدّمه!

أ ليست الحرية هي أن أختار ما أحب! شرط ألا أزعج من حولي؟! أ لا تكمن في احترام مشاعر الآخرين وعاداتهم؟ لن أمسخ بذلك

شخصيتي، وإنما أجعلها تزدهي! إنني حين أطلق سراح نفسي بعيداً عن قيود جامدة، أطلق سراح الآخر، فيفعل كل منا ما يؤمن به!

أ ليس أحد مصائبنا في بلادنا أننا نتغافل عن هذا المعنى للحرية، الذي يرادف احترام مشاعر الإنسان ومعتقداته؟ أ ليست هي خصوصيته؟ هل يحق لنا سلخه منها؟.

أدركت أن لقائي بالآخر، يجعلني أواجه نفسي، ويدفعني إلى تطويرها! فقلت: أنا لم أرتكب ذنباً بمجالسة إنسان يشرب نبيذاً، أرضيت ضميري الديني، حين ردّدت القاعدة الفقهية "الضرورات تبيح المحظورات" عندئذ أدركت أن ديني دينُ يسرٍ لا عسر!

تمدّدت في غرفتي، بعد انتهاء الغداء، وأنا أطير في سماء الحرية، التي تنفتح على الإنسان، مثلما تنفتح على العلم والمعرفة، دون قيود الجغرافيا والتاريخ! أ ليس هذا مفتاح الحضارة، الذي أصابه الصدأ في أمتي؟!

* * *

2007/10/17

لم أفهم، للوهلة الأولى، ماذا تريد مني، صباحاً، سيدة البيت (مدام بونور) كررت ما تريد رأفة بلغتي المتعبة! فاكتشفت أنها تريد أن تستأذنني لدخول حمامي الخاص، فغرت فمي كالبلهاء! أنا في بيتها، وتطلب إذناً بالدخول إليه! لهذا لم أستوعب في البداية طلبها!

ذهبت اليوم مع (مسيو بونور) إلى السوق، اشترينا خضاراً وفاكهة، ثم اشترى باقة وردٍ لزوجته، سألته: ما المناسبة؟ فأجاب أنه اعتاد تقديم الورود لها بين فترة وأخرى! قلت في نفسي: كم امرأة عربية،

تتلقى مثل هذه الهدية بعد زواجها بثلاثين عاماً! أ ليست هذه إحدى تجليات "المودة والرحمة" التي حدّثنا عنها القرآن الكريم!

لاحظت أنهم يهتمون بالورود غذاءً لأرواحهم، فيبيعونها في سوق الخضار والفواكه! قلت لنفسي: الحاجة لجمال الورد كالحاجة للطعام، أ ليست هذه إحدى معاني الحضارة!؟

لم أستطع، في طريق عودتنا إلى البيت، إلا أن أتابع المقارنة بيننا وبينهم، فأرى شوارعهم تتأنق فيها محلات بيع الورود، أما في بلدي فتتراكم فيها المطاعم ومتاجر الألبسة والحلويات والجوالات...الخ أسكن في حي من أحياء دمشق الحديثة، تقطنه تقريباً الطبقة الوسطى، يغصّ بمثل هذه المحالات التجارية، لكنك حين تبحث فيه عن محل واحد لبيع الزهور، لن تجد!

إننا نعيش بعيداً عن الجمال، بل نقتله عن سابق إصرار وترصد، نقطع الأشجار، لنبني غابات اسمنتية، وحين نفكر بتقديم هدية، غالباً ما نقدّم حلوى أو ملابس...لأننا قلما نجد مكاناً، نشتري فيه وروداً أو نباتات منزلية، يتوجب علينا الرحيل إلى حي راقٍ بعيد، كأننا بتنا نجهل الجمال الطبيعي! أما الورود الاصطناعية فمتوفرة والحمد لله، الذي لا يحمد على مكروه سواه!

إننا نعيش في منأى عن الجمال، الذي خلقه الله؛ ليرقى بأرواحنا وأذواقنا! تذكّرتُ مقولة دستويفسكي: "الجمال سينقذ العالم" أ ليس هذا ما نحتاجه؛ كي تزهر أرواحنا رهافة حس، تدفعنا لإعلاء لغة الحب والخير، وإنقاذ أنفسنا من سواد الضغينة!؟

ليس غريباً، اليوم، أن يزدهر القتل في بلادي، فقد قتلنا الجمال بأيدينا، عندئذ أبحنا لأنفسنا مجالسة القبح، الذي أوصلنا إلى كراهية بعضنا بعضاً، فاستسهلنا القتل باسم الدين، الذي بات تجارة رابحة! تعبث به، ولا تعترف بدوره في الارتقاء بروح الإنسان و بأخلاقه، أ لم

نضيّع اليوم أبرز معانيه (اقتران الإيمان بالعمل الصالح)؟ أ ليس هذا العمل هو إحدى تجليات الجمال؟ لكن أين هو هذا الدين؟ أ لم نشوّهه بأيدينا!

* * *

الخميس 2007/10/18

بدا لي هذا اليوم تاريخياً في حياتي، لأول مرة سأشهد إضراباً، سألت (مسيو بونور) عن أسبابه، فقال: شباب يعترضون على تقليص ساعات العمل، لأن ذلك سيؤثر على راتبهم التقاعدي!

وبما أن صورة الإضراب في مخيلتي مضطربة، يربكها عنف، يقوم به متظاهرون وشرطة؛ لهذا سألت: هل أستطيع الخروج من المنزل، أنا بحاجة إلى مراجع في معهد العالم العربي!؟

أجابتني المدام: لا تخافي الشرطة، هنا، لا تتدخل، تأتي لحماية المتظاهرين فقط!

شجعت نفسي، إنها فرصتك أن تعيشي تجربة جديدة، لكن شبح الخوف، كان يطل برأسه، فينثر في داخلي قلقاً واضطراباً! تبدد كل ذلك في الطريق، كانت الحياة تسير بخطوات عادية، مع زيادة في عدد المشاة وراكبي الدراجات، وفيضان حاويات القمامة في الشارع!

صحيح لم أعش إضراباً في حياتي، لكن ذاكرتي امتلأت بمشاهد عاشتها أمي، التي شاركت فيه، أيام الانتداب الفرنسي، حين كانت عاملة في مؤسسة التبغ والتنباك (الريجي) كانت مفعمة بحماسة الشباب، وهي تتحدث عن إجبار المحلات على الإضراب، بلغة عنيفة (سكّر يا عرصة سكّر) يرافقه سلوك عنيف (يرمون الحجارة على من

يتلكأ) تتدفق ذكرياتها، لتنقل هتاف المتظاهرين، وهم يتطاولون على رئيس الجمهورية (تاج الدين الحسيني):

شيخ تاج يا بومة يا بو اللفة المبرومة عطيني شعرة من دأنك لسكّف هالبيتونة

(أي لأصلح حذائي)

شاهدت، هنا، بعين الحقيقة جماهير تتجمع، تصرخ مطالبة بحقوقها، لم أجد أي مظهر للعنف! كلا الطرفين (الشعب والسلطة) يتبادلان الاحترام! وهذا ما نفتقده!

* *

خبّرتني أختي صفاء أنها بدأت تخاف على الصغيرة (شذى) بعد أن لاحظت كثرة شرودها إثر وفاة أمي، إذ فقدت فجأة دلال الجدة، التي كانت مستعدة في كل لحظة للتحوّل إلى محامي دفاع لها، حتى لو كانت الصغيرة على خطأ!

كتبت لها: "لست خائفةً على (شذى) إنها حين تقرر أمراً تصل إليه! مادامت تدرس بجدية، حتى لو شردت قليلاً! فهذا طبيعي، إثر خسارتها الكبيرة بوفاة أمي، إنها الآن في حالة فراغ، تفتقد حنان الجدة وحكاياها، لا تخافي من صمتها! إنها تتأمل بعض أخطائها؛ لتحاسب نفسها! فهي قد تنسى سؤالاً صغيراً في الامتحان، لكنها سرعان ما تعاهد نفسها على الانتباه! إنها مثل أي طالب، يريد أن يجيب بسرعة، ويستريح من الهم، فيقع في مستنقع النسيان!

كم أسعدتني (شذى) بتفكيرها ووعيها، ما أروعها حين تفكر بالتخفيف عن أختنا (ناهدة) أحسست أنني أمام فتاة جديدة في كل شيء!

ما أخبار صحة صديقتي (دنيا)أمانة سلمي عليها، وقولي لها ألا تستسلم للمرض، إنه يتجرأ على ذوي الإرادة الضعيفة، خبرّيها بأنني أريد أن أطمئن عليها في غربتي."

ما أطيبها (صفاء) إنها ملاكنا الحارس، يضم قلبها الجميع، لا تفرّق بين الكبير والصغير والمقمّط بالسرير، كما تقول أمي.

* * *

الجمعة *2007/10/19*

ما إن عادت (مدام بونور) من عملها، حتى دخلت المطبخ قائلة لي: أشمّ رائحةً عطرةً في البيت، فقلت: إنها رائحة الشرق! نظرت إلي، وهي ترفع حاجبيها مستغربة! عندئذ انتبهت إلى تهوري وعنصريتي، فأسرعت إلى القول: إنها رائحة الشرق حين يلتقي بالغرب، ويصادقه!

قلت في نفسي، هأنذي أطبّق القول الشعبي: "قاعدة بحضنا وعم تنتف بدأنّا" انتبهي يا بنتي البيت بيتهم، خففي من هذه العنجهية الجوفاء، أنت، هنا، ضيفة عدة أيام وترحلين!

واجهت نفسي، وأنا أقطّع الخضار في المطبخ: أنت كأجدادك الشرقيين، لا تجيدين سوى التغني بالأمجاد، التي أورثتك تعصباً للذات، دون أن تنتبهي إلى أنها عباءة وهم، تلفّك بسوادها!

انظري إلى بلادك باتت عالة على الغرب في كل شيء! وأنت تتباهين بالطعام وروائحه! انظري إلى قومك انحصر إبداعهم في صنع الكبة والمحاشي!

* *

كتبت إلى أختي صفاء

لا يمكن أن تتخيلي فعل الزهورات والأكلات الشامية على عائلة (بونور) إنها كالسحر!

سألتني كيف تتفاهمين؟ أتعرفين لا أستطيع استخدام لغة أخرى غير الفرنسية، لكن حين تهرب هذه اللغة مني! ألوذ بلغة عالمية (لغة الإشارة) إنها خير قاموس ينجدني، حين يخرس لساني!

أخبرتها بأنني أنظم حياتي، كي أقوي لغتي، على إيقاع الوجبات الثلاث للعائلة، إن أمكن، أحاول دائماً أن يكون على المائدة شيء من الشرق!

* *

عند الغداء قلت لهما: كم أنا محظوظة لوجودي في بيتكما! أجابت (مدام بونور) وقد اتسعت ابتسامتها، وبرق الأزرق في عينيها؛ ليشع حباً ومرحاً: عندنا يقولون "امسكي الخشب" فقلت: عندنا نقول "دقي على الخشب"

غمرني فرح من يكتشف قارة مجهولة، وأنا أكتشف لقاءً لغوياً بين الشرق والغرب، يؤكّد مدى أخوتنا الإنسانية، إننا جميعاً نعيش أوهاماً، نخاف المجهول والحسد، الذي سيسلبنا، ما نملكه من قدرات وميزات! ولكن ألا يمكن أن تغذي هذه التصرفات مخاوفنا، ونعزّز حضورها في وجداننا، وحن نظن أننا نبعد أذاها عنا؟

يبدو أن مثل هذه الأوهام تتشبث بلاوعي الإنسان بغض النظر عن زمانه ومكانه! إنها تمثل حاجة للشعور بالأمان، ودفع أذى المجهول عن أنفسنا وقدراتنا!

* *

أثناء عودتي مساء من عملي في البحث (في معهد العالم العربي) لفت نظري أمر يتكرر يومياً، لم أفهمه، لدى الفرنسيين، الذي

عرفتهم يقدّسون الوقت، إنهم يقفون صفاً طويلاً، ينتظرون فيه دورهم لشراء الخبز! هل هم مثلنا يبحثون عن لذة الطعام، فلا يجدونها إلا بالخبز الطازج!

بالأمس حين نظفت المدام الغاز الكهربائي، الذي يشتغل باللمس في أقل من دقيقتين، قلت لها: إني أرثي لحال المرأة السورية، التي تضيع حوالي أكثر من ربع ساعة من أجل تنظيفه!

أما الجلاية فبتّ أقتنع بضرورتها في البيت، على الأقل، توفر نصف الوقت للجلي! وتحمي اليدين من المواد الكيماوية! إنهم هنا يفكرون بما يريحهم فعلاً، لا توجد لديهم غرفة للضيوف وغرفة للطعام! أما الكراسي حول المائدة فثلاثة، إذا جاءهم ضيف يسحبون كنبة صغيرة، يجلسون عليها، رغم ذلك البيت مليء بالتحف الثمينة، من المغرب ومن فرنسا ومن سورية! إنهم يخصصون غرفة للكتب، التي هي حاجة يومية لهم! أما الضيف فحالة استثنائية؛ لهذا يجلس معهم في غرفة المعيشة!

* * *

السبت 2007/10/20

قال لي (مسيو بونور) على مائدة الإفطار بلهجته، التي تجمع بين الطيبة والحزم: سنذهب اليوم لقضاء عطلة نهاية الأسبوع ***weekend*** في منزلنا الريفي في قرية (سموة) تبعد عن باريس (ستين كيلو متر) لذلك نعتذر، سنتغدى غداءً خفيفاً وسريعاً ***(pouce)*** أحسست بالضيق، فهذا يعني خسارة جلسة حوار مع صديقيّ، انسحبت بهدوء إلى غرفتي وملامح الخيبة ترتسم على وجهي!

فوجئت بعد قليل بـ(مدام بونور) تدعوني لمشاركتهما الغداء، اعتذرت، أنا لا أحب أن أفرض نفسي عليهما، لكنني قدّرت دعوتها كثيراً، دمّعت عيناي من التأثر!

هذه المرأة تسري الرهافة في عروقها! إنها تشكل وزوجها ثنائياً راقياً! إنهما مسرعان، وعلى سفر! ويدعواني لمشاركتهما الطعام! إنهما لا يعلمان، أن غذائي الحقيقي أتناوله، حين أتواصل معهما! هذا هو الشيء الوحيد، الذي يخفف حزني ولوعة فقدي لأمي! لاحظت أن المدام تجيد قراءة مشاعري الداخلية، وتحاول أن تساندني قدر ما تستطيع!

قبل أن تخرج أوصتني أن أحكم ربط كيس القمامة جيداً، قبل أن ألقيه من نافذة خاصة بالنفايات (في المطبخ)

سألتها: هل هناك قائمة ممنوعات؟ قالت: لاشيء!

تركت أبواب بيتها مشرّعة أمامي! لا توجد أية غرفة مغلقة، تحفّز المخيلة على اقتحامها، كما في ألف ليلة، ألا يحرض الباب المغلق مخيلتنا وغريزة التلصص لدينا، فنحس أنه يخبّئ كنزاً، أو حكاية مشوقة، تثير فضولنا لاكتشاف أسرارها!؟

كم تأثرت بتلك الثقة، فقد جعلتني العائلة فرداً منها! وهي لم تعرفني إلا منذ أيام!

لاحظت نفسي كيف كنت ألتزم حدود غرفتي، رغم أن غرف البيت تحت إمرتي! بل اكتشفت أنني ألتزم عاداتهم، فهم لا يشغّلون التلفاز أبداً! لكن حين ضاق صدري بوحدتي، وجدتني أتذكر وصية شحرورتي (ابنة أخي شذى) بأن عليّ أن أشاهد التلفاز، فتحته لأول مرة، فكانت الأخبار قسمتي ونصيبي، أطل حنظلة بعينيه العاجزتين، وكفيه السجينتين خلف ظهره، فأغلقت الشاشة، لأهرب من عجز

العرب وبؤسهم، ودون أن أدري انطلق لساني، يلعن أبو حنظلة، الذي يأبى فراقي!

* *

التقيت بعد الظهر بالشاب السوري (سمير) الذي عرّفني عليه (د. كامل) اكتشفت أنه كان طالباً عندي في الجامعة! انتعش قلبي، حين عرض عليّ مساعدته، وسألني: هل تحبين شراء شيء محدد، تفتقدينه، ولا تجدينه في المحلات قرب بيتك! قلت له: اشتقت لخبزنا المدوّر وللبرغل والتمر! فاصطحبني عبر المترو إلى إحدى ضواحي باريس، حيث يكثر فيها العرب، تغير المشهد الباريسي الأنيق، شيء ما أوحى إليّ بعدم الراحة! فاشتريت منها حاجياتي على عجل!

سألني سمير: - تعرفين العودة إلى بيتك!؟

أجبته مزدهية بثقتي ونباهتي: - طبعاً!

كنت قد وضعت في ذهني علامة فارقة قبل دخولي محطة المترو، لكنني اكتشفت أن خروجي كان من مكان آخر، ضاعت تلك العلامة، وأنا في ظلمة ليل، يزيده قصر البصر والغربة حلكة، خنقني الضياع بأصابعه الوحشية، وانهالت تصفعني كوابيس سوداء مرعبة! مددت يدي إلى وجهي أتأكد من نظارتي الطبية، التي بدت غير ذات نفع، لم تستطع إصلاح ضعف عينيّ الشديد! لهذا لم يجدني نفعاً حمل خريطة باريس، التي بذّرت نقودي في شرائها!

خضت في البداية معركة شرسة في الهجوم على ذاتي! لكنني لاحظت أن الهزيمة هي مصيري، فقد زاد توتري، وانغلق مخي؛ لهذا بدأت أحاول تهدئة نفسي! استخدمت لغة المنطق، وقلت: الخوف يضيّع التركيز، والطمأنينة تجلبه! الحمد لله تذكّرت ملامح المكان! فقد أنجدني (اسم محل للزهور، الذي اشتريت منه قبل أيام) فأخذ بيدي

إلى الاتجاه الصحيح! كم يحتاج الغريب إلى الصحوة الذهنية، خاصة إذا كان يعاني من ضعف البصر والبصيرة مثلي!

* *

قبل النوم كتبت إلى أختي صفاء "أنا واثقة من أنك تبذلين جهدك لتخرجي ناهدة وشذى من أجواء الحزن، أنا متأكدة أن ضميرك الحي، لن يسمح لك بصرف المال، الذي ادخرته للطوارئ، لا تنسي أنني وقّعت لك على بياض؛ لتفعلي ما تشائين (وعمرو ما حدا يرث)! تعلّمت، هنا، أن راحة الإنسان قبل كل شيء، إننا كثيراً ما نسفح أعمارنا على بلاط المظاهر الجوفاء، وننسى أن نعيش حقيقة الحياة! هذا ما كنا نردّده معاً! لكن الآن حان وقت تطبيق هذا القول!علينا أن نرفّه أنفسنا قدر ما نستطيع! لا تتشدّدي بمظاهر الحزن! كثير من الناس، يقول: الحزن ثلاثة أيام فقط! أعرف حزن الفراق، إنه غصّةٌ تدمي الروح، وتلقي بالقلب في مهاوي القلق والضياع! أعرف أنه يبعثر النفس، لكن علينا أن نلهث بحثاً عن سكينة، نلوذ بها، فلا نجدها في كثير من الأحيان! إذ يوقظنا الموت على حقيقة أننا ضيوف في هذه الدنيا أياماً معدودة، الله يعلمها، ثم ينتهي دورنا على خشبة الحياة! كما يقول شكسبير؛ لهذا أعتقد أن من الغباء المبالغة في الحزن، الموت رحلة مكتوبة على الجميع، وسنلتقي من نفارقه، حين تنتهي بطاقة إقامتنا على هذه الأرض.

* * *

الأحد 2007/10/21

كشفت لي الغربة اليوم عن وجهها المرعب، خنقتني قسوة الوحدة، فرقٌ بين صمتٍ نستمتع به في صحبة الآخرين، رغم شغلهم عنا، وبين صمتٍ، يصفع أمننا، فتغصّ بالقهر عزلتنا؛ ليغمرنا إحساس موحش بالقلق!

أحسست اليوم باليتم لا أم ولا أهل ولا أصدقاء! هذه هي الغربة في أبشع صورها! كم يخفّف وجود عائلة (بونور) من عناء وحدتي! مع أنني لا ألتقيها إلا على مائدة الطعام! وجدت نفسي أردد ما يقوله محمود درويش: "تموت البيوت إذا غاب سكانها"!

كم تخيفني الوحدة! يفغر الفراغ فاه؛ ليردد صدى أجوف، يغمر حياتي بصمت، ينطق باللاجدوى! نعم أنا جبانة أمام الوحدة! كنت دائمة الدعاء: ألا يدعني ربي أعيش وحيدة، سواء تزوجت أم لا!

أصغي، فتلتقط أذناي هدير الصمت في داخلي! أحس كأنني بين فكي وحش! لا أملك في مواجهته قوة ولا حتى صوتاً! أحسست بخرس الحياة في بيتي! غرقت في بحر مظلمٍ كئيبٍ، ومع ذلك أحاول الخلاص، فيثقلني القلق، ويلاحقني الرعب!

كم بدا لي البيت، وأنا أواجه فيه وحدتي، شاحباً موحشاً! لا روح فيه! نعم أمتلك حرية التصرف، لكنني ماذا أفعل؟ طعامي بسيط، لا أحب أن أضيّع وقتي في أكلة معقدة آكلها بأنانية وحدي، أحب المشاركة في طعام، أتعب عليه!

تساءلت: ما معنى حياتنا دون ألفة أو مشاركة أو حوار؟ ما الذي يغني روح الإنسان وجمال المكان؟! ومن يهب الطبيعة جمالاً أو يزيدها قبحاً؟

سمعت صوت أمي يهمس في أذني "البيت بسكانه لا بحيطانه" بكيت وحدتي! لفّني الصمت، بات كفن موتي! فتعالى صراخ لوعتي وعزلتي!

شلّني الرعب، استيقظت عواصف أحزاني من غفوتها، لتستوطن اللوعة روحي، وتجمّد أوصالي! باتت وحدتي مرعى أوهام! تتمادى في غيّها، لتغمر ظلمتها أعماقي، فلا أرى حولي إلا الخوف، وقد كشّر أنيابه!

ضلّت السكينة سبيلها إلي، حاولت شدّ عزيمتي، لعلي أفلح في تهدئة نفسي! لكن سرعان ما أمسكت مخالب الفشل بي! عندئذ أحسست، وكأنني في كهف مظلم، باتت وحدتي قبراً، يحفره صمت موحش!

غمرتني كآبةٌ، أحاول دائماً الهرب منها، إذ تحطم توازني! فأجد نفسي فريسة سهلة للهشاشة والانكسار، وأنا أريد نفسي قوية، ما إن أحس بضعفها، حتى يعتكر مزاجي، وتسوّد الدنيا في ناظري!

عليّ ألا أستسلم لهذه السوداوية المدمّرة! عليّ أن أبتكر وسائل تطرد وحشتي، قررت أن أقرأ بصوت عالٍ نصوصا فرنسية، لعلي أحسّ، أن أحداً ما يشاركني الوحشة! أقنعت نفسي، بل أوهمتها، بأن هذا يساعدني من أجل انطلاق لساني في الحديث بهذه اللغة! فأتخلص من تلجلجه! اكتشفت أن خدعتي هذه، لم تنطلِ على وحشتي! أدركت أن الهرب من غول الوحدة، ليس أمراً سهلاً!

ولكن كيف أنقذ روحي من أثقال وحشتها، وأنا سجينة جدران البيت؟ علي أن أفرّ من وحدتي! أسرعت بالخروج، فمن يعش مغلّفاً بجدران الصمت والخوف، تظلم عيناه عن أي جمال في الحياة! أدركت أن الاستسلام للعزلة، يوقظ أحزاننا، ويسرق تمتعنا بجمال يحيط بنا! فنعيش أيامنا بلا طعم ولا رائحة!

تساءلت: أ ليس من الجنون الرضوخ لهذه الوحدة؟ عليّ أن أبحث عمّا يجدّد روحي؟!

بدأت أهدّئ نفسي، فقلت: بما أن محاولتي التي ابتكرتها في طرد الوحشة، قد فشلت! فلأجرب وصفة أمي، حين يزعجها أمر (تشقّ طريق) فتفرّ من قيود جدران خرساء؛ لتنطلق مرفرفة في فضاء رحب!

أقنعتُ نفسي، وأنا أغادر باب العمارة: ربما تستطيع شوارع باريس تقديم بعض العزاء! لا تنسي نهر السين! والحدائق التي تصدح بجمالٍ باذخ!

تمنيت لو أن لي صديقاً أو صديقة، لنجول شوارع باريس! نضيع معاً! ونكتشف أسرارها معاً!

ما أبشع أن نضيع في رفقة الحزن في الغربة، تلاحقنا سياط الوحدة! لتسمح للمخاوف بقهرنا، إننا نعيش بذلك مؤرقين ومطاردين بسوء الظن؛ فنسقط بين مخالب عدم الثقة بالذات وبالآخر!

هيا انطلقي، لا تستسلمي لهذه المشاعر السلبية!

سرت في الطريق أتأمل ما حولي، آلمتني وجوه النساء المتعبة؟ فتساءلت: هل هي مرآة لوجهي المتعب؟ أم أتعبها نظام آلي لا يرحم؟ أم أن عشق الحياة بطولها وعرضها استهلك نضارة الوجه!؟ هل هو الطقس، وتلوث الحياة؟ هل هي طبيعة البشرة! أم هي روحي الحزينة، التي قهرتها الوحشة! فلم ترَ سوى أخاديد الزمن، وهي تجرح وجوه الناس من حولي!

لا أدري لِمَ اتجهت صوب "معهد العالم العربي" هل هي رغبة في انتماء إلى فضاء عربي! ولكن هل يستطيع الإحساس بالمشاركة اللغوية طرد حزني ووحدتي؟ هل سماع أحد الغرباء، يتحدث العربية، سيشعرني ببعض الأنس!؟ إلى أي مدى يمكن أن تكون الغربة نسباً، وقد بات أبناء العربية مشغولين بهمومهم وأنانيتهم؟

لم أجد جواباً عن تساؤلاتي القلقة! فقد صفعني انغلاق أبواب المعهد في وجهي، فالأحد يوم عطلة للجميع! عاد إحساس الخيبة، ليحاصرني، تجرّأت الوحدة في معاودة هجومها عليّ، غمرتني ظلمتها! ردّدت مثل أمي: "راحت الحزينة لتفرح ما لئيت مطرح"

لماذا وقفت كالصنم! هيا تحركي!

بدأت أتأمل الناس من حولي، لاحظت أن بعضهم وحيدٌ مثلي، ولفت نظري كثرة النساء الوحيدات (يتنزهن، يجلس في مطعم أو مقهى...) هذا قلما أصادفه في بلدي!

قلت في نفسي: هرب كثير من الناس مثلي من وحدتهم! صحيح أنني لا أشاركهم نمط حياتهم، لكنني في تلك اللحظة، شاركتهم مشاعرهم ورغبتهم في طرد وحشتهم، اكتشفت أن ثمة أخوة تجمعنا، نسجتها أحاسيس الخوف من العزلة، فالجميع هنا يحاول الهرب منها؛ بدّدت هذه الفكرة قلقي، وبدأت تخفّف غربتي، أحسست ببزوغ قرابة من نوع جديد، تجمعني بهؤلاء الوحيدين: إننا جميعاً نحتاج الانتصار على غول الوحشة! نحتاج المؤانسة، ولو بلغة الصمت، التي تعني المشاركة بلحظة، تضمّ بين ذراعيها كل من قهرته الوحدة!

قلت لنفسي: عليّ أن أنتقل إلى الجانب الآخر، حيث نهر السين! أمامه في تلك اللحظة أحسست أن باريس أمٌّ لنا، لا تميّز بين مواطن وضيف، تغمرنا جميعاً بحنانها، تطير بنا بعيداً عن مشاعر الوحدة! بدأ عقلي يعاود نشاطه، فقد انتشل روحي من عالمٍ، أسير فيه على قدمين، وحلّق بي في سماء فضية، تخفق لمعاناً وسحراً! تدفقت الحياة فيَّ، فقد جرت في دمي موجاته الرقيقة الشجية، فبدأ قلبي يخفق راقصاً، دون استئذان، على وقعها! في تلك اللحظة تساءلت: أليست هذه المياه، التي تجري في عروقي وعروق الباريسيين واحدة؟ أ ليست هي من يبعث الحياة فيّ وفيهم!؟

اقتربت منه أكثر فأكثر إلى أقرب مكان أستطيعه، وجدت فتاةً تجلس قربه وحيدة! مما شجعني على الجلوس، بعد أن أخذت مسافة أمان فاصلة بيني وبينها احتراماً لخصوصيتها ووحدتها! لو كنت في بلادي لاخترت أقرب مسافة؛ لأجلس قربها، لعلي أتحدث إليها! فأضم وحشتها إلى وحشتي! أما، هنا، فالأسلم لغريبة محجبة مثلي أن تبتعد! فأنا أخشى أن أثير خوفها! أو أن أسمع سخرية ما! أو يصدمني تصرف ما!

هدّأت نفسي، وأنا أتأمل جمال السين، والطيور، تحطّ على صفحته الحريرية المتلألئة، جذبت روحي أنوار مدهشة! جلست بقربه، أوحّد ربي، وأشكره على هذا الجمال، الذي انسجمت فيه تموجات النهر الرقيقة مع همس، هو حديث قلوب، لا خرير ماء!

منذ تلك اللحظة نشأت بيني وبينه علاقة حب من نوع فريد، فأصبح أقرب الأصدقاء إلى نفسي! لم أعد أستطيع أن أمضي يوماً في غربتي، دون رؤيته! بات موعدي معه مقدساً، لا أُخلفه إلا لضرورةٍ قصوى!

سرح خيالي، وأنا أتأمله، إلى عين الفيجة (التي تغذّي نهر بردى) كانت زيارتنا أنا والصديقات لها سنوية، نختار فصل الربيع، لنحتفي بمياهها المتدفقة، التي تبدو لنا أشبه بشلالات سحرية، تنشد تجدد الحياة!

بدا لي نهر بردى طفلاً هزيلاً أمام شباب السين المذهل! تمنيت لو كان برفقتي أهلي وصديقاتي، إذ إن التمتع بالجمال، يحتاج مشاركة، فيزهر القلب؛ ليعانق الناس جميعاً! عندئذ تتألق متع الروح، وتزدهي في العيون ألوان الفرح!

بعد أن ارتحت، تابعت سيري؛ لأجد نفسي أمام كنيسة نوتردام! لم أفكر بالدخول إليها، قلت هي قريبة، أستطيع ذلك في أي وقت! أردت أن أستوعب المشهد، الذي ينبض أمامي بكل ما في الحياة من حيوية وجمال! فقد تجمّع السياح، في ساحتها، من كل جنس ولون، وملأتها موسيقى العازفين ببهجة الحياة! تقدّم لاعب السيرك، ليأخذ عقولنا بحركاته البهلوانية! الأجمل من كل ذلك فرحة الأطفال، التي أضفت روعة على لوحةٍ حيةٍ، رُسمت تفاصيل جمالها بريشة الناس والسين معاً!

نقلني كل هذا إلى عالم مدهش! شكراً لك باريس، فقد ضمني حضنك؛ ليخفّف حزني ووحشتي، أخذ قلبك الرهيف بيدي إلى

عالم السلوى والفرح، هأنذي أحلّق بين جناحيك في عالم، ينبض سحراً وشعراً!

تساءلت وأنا أرى الأغنياء والفقراء، يتمتعون بهذا الجمال: لِمَ لا يتمتع فقراء بلادي بمثل هذا الجمال؟ لِمَ يبدو حكراً على الأغنياء، الذين يتفنّنون بسرقة الجمال وقتله! يقطعون الأشجار! يرصفون البحر! ينهبون شواطئه! ويتاجرون بها..؟ لهذا "قررت اغتيالك يا وطني بالسفر" هذا ما ردّده قلبي، في تلك اللحظة، مع نزار قباني!

قبل سفري لاحظت كيف بات الناس في وطني مضغوطين حدّ الانفجار والجلطة، لا أحد فيه يستمتع بعطلته، على نقيض الفرنسيين، الذين يعملون خمسة أيام بإخلاص، دون كسل أو نفاق؛ ليستمتعوا حتى الثمالة يومي السبت والأحد!

حيثما اتجهت كان الجمال يعانقني، والأروع أنه متاح دون أي عبء مادي، في بلادي نعيش حالة حرمان منه! تُرى ألا نسير نحو الهاوية، حين نحوّل الجمال إلى تجارة ونسمح للقبح بالهيمنة على أرواحنا؟ رددت بيني وبين نفسي: ربنا يستر!

منذ تلك اللحظة بات التجوّل في شوارع باريس مصدر متعةٍ وعزاءٍ لي، كنت كل يوم أغيّر طريقي، فأكتشف جمالاً مدهشاً سواء في العمارة أم في محلات الزهور، التي تتبارى في عرض الجمال، مثلما تتبارى المحلات في دمشق بعرض مأكولاتها!

* *

عدت إلى بيتي وأنا منتعشةٌ، تذكرت يوسف فرنسيس، حين قرر أن يقوم برحلة إلى أوروبا، بدأ بباريس، التي جذبته، فتوقف عندها "ولم يتحرك" لهذا دعاها "باريس ذات الألف وجه"

فعلاً تملك وجوهاً للجمال لا حصر لها!

* *

كتبت إلى أختي (صفاء) التي سألتني كيف أتعامل مع حزني:

"لا تقلقي من أجلي، بدأت أعتاد على الحياة في باريس، تصالحت منذ زمن بعيد مع الحزن، لأنني أحاول أن أرى ما أعطاني الله! لا ماحرمني! بذلك تصفو روحي من الشوائب"

* * *

2007/10/22

قاومت اليوم رغبتي، وعشت صراعاً بين قول (نعم) وقول (لا) ما زلت أعيش مكبّلة، لا أملك حرية النطق وفق رغبتي الداخلية، فقد لاحقتني مشاعر الضيفة، التي ألفت رفقة ثقافة العيب، التي زرعتها تعاليم أمي المقدسة، إذ كانت تردد على مسمعي (الغريب أديب) لهذا حين سألتني المدام: هل تريدين عصيراً؟ أجبت بنبرة سريعة: لا! كأنني أريد التخلص من عبء ال(نعم) التي تلح في داخلي، إذ عاهدت نفسي ألا أطلب شيئا، لم أشارك في دفع ثمنه!

أيقظني صوتها من شرودي، يخبرني: نحن لا تستخدم في لغتنا (لا) في الإجابة دون أن نلحق بها لفظة الشكر ***(Mercie)!***

فاجأني أنهم يستخدمون لغة التهذيب حتى داخل بيوتهم، وفي أشياء بسيطة! أخجلني جهلي في أساليب عيشهم ولغتهم! بدأت أقارن بين لهجتي الشامية المعروفة بتهذيبها، وكثرة عبارات المجاملة فيها، لكننا نتحرر منها في البيت، نستخدمها مع الغرباء فقط! آلمني أن أبدو بعيدة عن اللباقة اللغوية، غضبت من جهلي، فارتسمت خطوط الضيق على ملامح وجهي! سرعان ما قرأتها المدام! فوجدتها تردف قائلة: أنا أنبّهك إلى هذه اللغة، كي تستخدميها في الخارج!

أحسست أنها تريد أن تخفّف عليّ وقع ملاحظتها، قبّلتها، وقلت: أنا سعيدة بتعلّمي لغة راقية، تحترم المشاعر، ويقرن أصحابها القول

بالفعل! كأنني سمعت صوتاً يهدر في أعماقي: نحن اليوم أمة ضالة في أقوالها وأفعالها!

* * *

2007/10/23

دمعت عيناي، وأنا أقرأ رسالة أختي صفاء، بدت لي تقطر حزناً، قالت لي: إن الله يحبّك لأن رسائلي السابقة، ضلّت طريقها إليك، فهي أكثر حزناً من هذه!

أحسست أنني مسؤولة عن تفاقم أحزانها، تركتها تواجه قسوة رفقتها وحيدة! صحيح أنني لم أقصّر من الناحية المادية، ولكن متى كان ذلك أهم من المشاركة الوجدانية! ما أسهل الحصول على المال (نعمل، نبيع، نستدين، نرهن...) أ ليس من الصعب العثور على روح تواسينا لحظة الشدة والفقد؟ ألا نحتاج، في تلك اللحظة، قلباً حساساً، يمسح ظلمة أحزاننا، أكثر من حاجتنا إلى الطعام والشراب؟! لن يستطيع الحزين الأكل إلا حين يجد من يمسك بيده، ويشجعه على مواجهة آلامه، عندئذ يقوى على محاولة، تذوق الحياة من جديد! ألا تعيد لنا اليد الحنون القدرة على التأمل واكتشاف، ما تخبئه لنا الأيام من أشياء، تستحق أن تعاش؟ أ ليس قلب الحزين أعمى، يضلّ طريقه عن كل ذلك؟!

أعترف بأنني قصّرت في حقّ أمي، فلم أقم بالمستحيل لأعود، وألقي عليها نظرة أخيرة، صحيح أنني لن أستطيع، لا أنا ولا غيري، الإفلات من القدر، ومنع بطش يد الموت! لكن كان بإمكاني العودة؛ لنتشارك الحزن أنا وأختي، فتخفّ وطأته علينا، ونتجاوز محنته معاً! لم أكن أنانية تجاه أمي فقط، بل كنت كذلك مع أختي! حين تركتها تعاني وحدها مسؤوليات الحزن وطقوسه! فدفعتْ ثمناً باهظاً من أعصابها!

ترى هل خذلتها في لحظة فارقة من حياتنا؟!كم يحتاج فقد الأعزة إلى لمّة الأحبة! ألا تسهم هذه اللّمة في توازن النفس، وتماسك الروح!؟ ألا تخفّف من قبضة الحزن، وتطرد قهر الفقد؟

صحيح أن أختي (صفاء) لديها (ناهدة وشذى) لكنها لا يشكلان سنداً لها، إنهما عبئان، عليها أن تتحمل مسؤولية العناية بهما! أختي (ناهدة) متعلقة بأمها إلى درجة لا تصدق! لهذا نخاف عليها من الانهيار! أما المراهقة (شذى) التي تمرّ بفترة حرجة من عمرها، فقد رعتها جدتها وعمرها أشهر بسبب طلاق والديها؛ لهذا فقدت بوفاتها سنداً حقيقياً، لا يقدّم لها الحماية فقط بل الفرح والدلال والصداقة والحكايا! إذ إن أمي تتقن فن إلغاء الفوارق العمرية بينها وبين الأطفال والشباب!

إنني محظوظة، أعيش، هنا، تجربة غنية، تخفّف عني الحزن، أما (صفاء) فتعيش في قلب الحزن، تصارع أمواجه وحيدة، كلُّ شيءٍ يذكّرها بأمها، وهي إن نسيت، تذكّرها (ناهدة) بصمتها الذاهل، وحزنها الأبكم! أو ترى (شذى) بشرودها الكئيب؛ فتنكأ جرحها! إنها تحمل فوق طاقتها، دون أن تنطق بكلمة لوم وعتب، دائماً تفتح قلبها النبيل لتدفئنا به، رغم أنها ترتجف برداً! غريب صوتها، يقطر منه حنان العالم كله، وقد امتزج بالحكمة، أحسست أن رنة حزنها، منحته إيقاعاً فريداً!

أنا مدينة للبحث، أخرج يومياً من أجله، اكتشفت كثرة المراجع، هنا، عن ألف ليلة وليلة، حوالي رفين طويلين من الكتب باللغتين العربية والفرنسية، هذا في مكتبة العالم العربي فقط! وجدت كتباً لم أعثر عليها في بلدي! وبذلك تحوّل العمل الممتع إلى أعظم مداوٍ للأحزان!

أعترف بأنني خططت؛ لأجعل الذهاب إلى المكتبة نوعًا من النزهة، فأمر من طريق يفضي إليها، عبر حديقة النباتات؛ بعدها تصافح عيناي صديقي السين؛ ليرافقني في طريقي إلى مكتبة (الإينالكو) أو مكتبة معهد العالم العربي، كنت لا أكتفي بتلك الرفقة، بل أصعد إلى سطح

المعهد، لتعانق روحي أنوار مياهه، التي تمتدّ على مدى النظر، تتراقص تارة بخضرةٍ منعشةٍ، وتارة بأشعة فضةٍ!

حمّلني حزن أختي (صفاء) وآلامها الصابرة المضحية مسؤولية أكبر، عليّ أن أنجح في مهمتي العلمية، التي جئت من أجلها! عليّ أن أنتهز الفرصة؛ لأبذل أقصى ما أستطيع لأتقن اللغة، قررت أن أضاعف وقت القراءة والعمل في البحث في البيت وفي خارجه، فأخصّص فترة الصباح حتى الظهر للمطالعة الحرة، وتقوية فرنسيتي، وبعد الظهر إلى المساء للعمل في المكتبة العامة!

* * *

الأربعاء ***2007/10/24***

ذهبت صباحاً مع (مسيو بونور) إلى السوق، كنت قد حدثته عن رغبتي في تقديم هدية لزوجته (صينية قهوة) سألته: هل تعرف مكاناً تباع فيه، فقال: لا! حين قرأ على صفحة وجهي ملامح الاستغراب، أشار إلى محل، وقال: ربما تجدين فيه! طلبت منه أن يدخل معي، فأنا ما زلت أخاف، تهيمن عليّ أوهام جلبتها معي من بلدي! وذلك بأنني سأكون عرضة للاستغلال بصفتي سائحة عربية، يظنونها من الخليج، حين يرون حجابي!

اعتذر بغمغمة مهذبة قائلاً: أنا مستعجل، ظننت أن أمراً هاماً، ينتظره، فوجئت فيما بعد، حين سألته: أين ذهبت؟ قال في جولتي الصباحية، واشتريت سمكاً!

تساءلت: لِمَ لا يريد أن يخسر خمس دقائق، يساعدني فيها؟ هل هي رغبته في أن أعتمد على نفسي؟ هل هي الأنانية الغربية، لا يريد أن يخسر خمس دقائق من نزهته؟

واجهت نفسي: لا تنسي أنه صريح، لم يكذب عليك، ويقول: لدي موعدٌ هامٌ! قدّرت صدقه، وقلت كما تقول أمي، لولا ظن ابن آدم، لدخل الجنة!

عاهدت نفسي أن أكون حسنة النية؛ لأن "بعض الظن إثم"

المهم في هذه التجربة أنني اكتشفت قدرتي على التعامل مع البائع، لم أجد صينية رائعة، تغريني بشرائها، نهض عقلي الاقتصادي ناصحاً: بمثل هذا الثمن، تشترين في سورية صينية (موزاييك) أشبه بتحفة شرقية! قلت: عليّ أن أوصي ابن عمي (نور) الذي سيأتي قريباً إلى باريس! وبذلك أقدّم ذكرى من بلدي، تبقى على مر السنين في بيت العائلة الفرنسية!

* *

أضحكني كثيراً (مسيو بونور) اليوم على الغداء، حين قال: أقترح عليك أن تعيشي مع سياسيين أمريكيين، وبالتحديد مع الرئيس (بوش) ليذوق الطعام السوري، وبذلك تسهمين في تحسين العلاقات السياسية بين بلدك وأمريكا!

قلت بيني وبين نفسي، حتى في مزاحه، يظهر شغفه بالسياسة! إنه يلهث وراءها في الصحف والمذياع والنت! لكنه يقاطعها على شاشة التلفاز!

* * *

الخميس 2007/10/25

لاحظت، منذ جلوسي على مائدة الإفطار مع العائلة، أن (مسيو بونور) يتناول فنجاناً كبيراً من القهوة على الريق، أبديت استغرابي،

فقال: هذه عادة يومية! نهض قلقي؛ ليتدخل متحمساً، كما كان يفعل مع أبي، الذي كان يكثر من شرب الشاي الغامق، فقلت: من المؤذي تناول المنبهات على معدة فارغة! تناول تمرة على الأقل أو تفاحة، كي تحميها!

انشرح قلبي، حين لاحظته، اليوم، يتناول تمرة قبل القهوة، كم شعرت بالاعتزاز، حين أثمر اهتمامي، وبدأ يعتني بصحته، أحسست أن التعاطف الإنساني لا يسعد من نهتم بهم فقط، بل ينعكس على أعماقنا، فتزهر فرحاً، يفوح شذاه منعشاً أيامنا!

تُرى ألا يستطيع الاهتمام بالآخر نسج علاقة فريدة، تتجاوز المألوف والسطحي؟ ألا يبدو لغريبةٍ مثلي، خير تعويض عن فراق الأهل والوطن؟!

أحسست أن التعاطف كثيراً ما يتحول إلى حاسةٍ سادسةٍ، تعين الغريب على التواصل مع غيره، فينمّي قرابة روحية مدهشة، لن يستطيع أي إنسان الوصول إليها، لن يعيشها إلا من امتلك يقظة داخلية، تسانده في تمزيق شرنقة الذات، فينجو من داء بشري، أعراضه الدوران حول (الأنا) وحمى النفعية ولهاث الركض وراء المادة! ألا نجد ذلك مستفحلاً في الشرق والغرب!؟

أعتقد أن من يملك القدرة على رعاية غرسة الحب في داخله، يملك القدرة على نسج حياة أكثر معنىً وجمالاً!

تُرى ألا يحتاج الإنسان، سواء أكان في وطنه، أم في غربته، إلى هذه القدرة؟ ألا يجدر به أن يقذف بنفسه الأمارة بالمادة؛ فيحاول النجاة من زيف، بات مألوفاً وشائعاً، رغم أنه يفتك بالعلاقات الإنسانية!؟ تُرى من يحمي الكينونة؟ أ ليس الحب والصدق والعطاء؟ ألا ننقذ الإنسان، فلا يبدو عبئاً على الآخرين؟ تُرى هل نستطيع فهم جوهر الحياة، دون أن نعيش الانفتاح على القيم الخالدة؟ ألا ترفرف أرواحنا، عندئذ، بعيداً عن هاوية المظاهر الجوفاء، التي يسقط فيها الكثير من البشر!؟ لكن هل الوصول إلى علاقة تنأى عن المادة أمر

سهل؟ ألا تحتاج إلى تاريخ طويل من التجارب والصداقة ومواجهة الذات دون مجاملتها!؟

أعترف بأنني لم أنجُ من لحظات ضعف، كانت تهاجمني، اشتدت حاجتي، في غربتي، للبوح بأحزاني، عبثاً، بحثت عن قلبٍ، يصغي إليّ دون تأفف! كنت أحسّ بأنني متطفلة على حياة عائلة متصالحة مع شيخوختها، لا يحق لي أن أكون بوق شكوى، يزعج هدأتها! ينثر آلامه، ويعمى عن أوجاعها، فقد لاحظت أن الأدوية، تجالسنا يومياً على المائدة! أعتقد أن الغربة علّمتني كيف أغلق أبواب قلبي على أحزاني! فلا أفتحه إلا لأدخل الفرح على من وجدت نفسي ضيفة لديهم!

لحسن الحظ ثمة قلب يصغي إليّ، حين أعاني من قهر ما، أو أزمة، إنها شقيقة روحي(صفاء) وحين لا أجدها، ألوذ بالكتابة!

ألاحظ نفسي كيف أفتح قلبي للإصغاء إلى هموم الآخرين أكثر مما أفتح فمي للحديث عن همومي، ربما لأنني محظوظة في هذه الحياة، إذ أجد في بلدي قلباً رؤوماً، أرمي بين يديه غصصي في أية لحظة!

حاولت، هنا، أن أربي نفسي من جديد، أضبط انفعالاتي، وأخبّئ أحزاني؛ لأنني أردت بثّ روح إيجابية في غربتي! فلا أنغّص أوقات آخرين، فتحوا لي بيتهم! لهذا بذلت جهدي في التأقلم مع طريقة حياتهم! حتى إنني كتبت إلى أختي صفاء:

"هل تعرفين بأنني بدأت أغير بعض عاداتي، لم أعد أشرب الشاي صباحاً، بتّ أشرب القهوة كالفرنسيين، ولكن مع الزيت والزعتر! أ تعرفين أنني أمارس عاداتي في الطعام حين أبقى وحيدة، وتذهب العائلة في رحلتها الأسبوعية!

لا تتخيلي كم فرحت اليوم، حين شاهدت (مسيو بونور) يضع الكشكة الخضراء(الشامية) التي صنعتها، فوق الخبزة المدهونة بالزبدة (الفرنسية) أحسست أنني أمام لقاء حضاري فريد من نوعه!"

* *

أدهشني اليوم (مسيو بونور) حين سمعته، وأنا في المطبخ، يطلب من أخته المريضة في المشفى إذناً؛ ليزورها، وحين سمحت له! سألها عن الوقت المناسب! رغم تأثّره لمرضها، لم يسرع إليها، كما نفعل!

هل نحن عاطفيون؟ أم مزعجون للمريض؟ نقلق عليه، ونريد أن نهدّئ أنفسنا برؤيته، دون أن نسأل عن ظروفه أو ظروف أهله!

تذكّرت، حين مرضت أمي في السنة الماضية *(2006)* كانت تتوهم أن شظايا تفجير، قد أصابتها! كيف زحف الأقارب عن بكرة أبيهم لزيارتها، وكيف أسهم هجومهم الحنون في تفاقم أوهامها! فقد أحسّت أن شيئاً خطيراً، قد حدث لها، فاشتعلت أوهامها! ولم تخمد بسهولة! تساءلت: لِمَ هجم الأقارب، مع أن معظمهم لم يزرنا، منذ أكثر من سنة! إنه الحب، الذي يكنّونه لها، فهي لا تؤذي أحداً، تغمر الجميع بزياراتها وقلبها! لا يمكن أن أنسى مشهد اجتماعهم في الغوطة أيام الزهر، كانوا قد سبقوها، وحين رأوها مقبلة تتكئ علينا، استقبلوها بالزغاريد، وأمطروها بأزهار الربيع! إنها من ذلك النوع الفريد من البشر، يوقظ الحب والمرح حيثما حلّ! استطاعت أن تلمّ العائلة، دون أن تدري، ربما لكونها تجهل رمي الفتن والقيل والقال! لذلك حين مرضت، ظن محبوها، أنها في لحظاتها الأخيرة؛ فأسرعوا لوداعها وإلقاء نظرةٍ أخيرةٍ عليها! لعلهم أرادوا أيضاً استغلال عطلة العيد! فيضربون بذلك عصفورين بحجر واحد! لم يسأل أحد نفسه: هل يناسبها ذلك؟ أو بالأحرى لم يسألونا! ليتهم فعلوا، كما فعل (مسيو بونور)

انتبهي يا ابنتي! هل بدأت تعيشين حالة استلاب؟ وبدأت تنحازين إلى عالم منظّم في كل شيء، حتى في عواطفه! عليك أن تعترفي، حتى لو سألوك الإذن في الزيارة! هل كنت تستطيعين قول: لا!

نعم سأجبن عن قولها، على الأغلب، فهذا يناقض رغبة أمي، وما علّمتني إياه، من ترحيب بالضيف، حتى لو كانت في أسوأ حالة! أذكر أنها كانت تعترض على بعض الضيوف، خاصة إذا كان من الذكور، ترى أنه من غير المناسب استقبالهم إثر وفاة أبي، إذ لم يعد لدينا رجل

يحمينا في رأيها! لكنها ما إن تراهم، حتى ترحب بهم، وتؤنسهم بأحاديثها وطيبتها! وترمي اعتراضها من الشرفة قبل أن يقرعوا الجرس!

* *

أطلعتني اليوم (مدام بونور) على تقاليد تقطيع الجبنة وكيفية أكلها، إذ ثمة سكين خاصة لتقطيعها، ثم وضعها في الصحن، ثم يتمّ تناولها بسكين خاص، قلت في نفسي: ما هذا التعقيد؟ نستعمل السكين مرتين لتقطيع جبنة طرية، أمر يثير العجب! رحل خيالي إلى بيتنا، حيث نأكلها غموساً، فنحرق بهمجيتنا تلك المراحل!

* *

شرد ذهني اليوم، وهيمن عليّ قلق ملتهب، أختي صفاء، تعاني الألم وحدها وضغط المسؤولية، يا إلهي ماذا أفعل؟ ازددت قلقاً، تدافعت أخطائي، صببت ماءً بارداً (عوضاً عن المغلي) على الشاي الأخضر بالنعناع، في المساء ارتكبت خطأً فادحاً، حين كنت أضع الفناجين، التي تفتخر المدام أنها جلبتها من اليابان، في المجلى، تزحلق أحدها من يدي مغامراً، فكُسرت يده، أحسست أنني اقترفت إثماً كبيراً، وقد زاد في إحساسي هذا، أن (مسيو بونور) كان شاهداً على جريمتي، فلم يخفِ انزعاجه! وحين قلت له: أنا مستعدة لكل أنواع العقاب! غمغم بكل أدب (ولا يهمك) أحسست أن العقاب، لن يتخذ في حقي، إلا بعد استشارة وزارة الداخلية والعدل!

* * *

الجمعة 2007/10/26

أدركت اليوم كم نتعب! حين نقارن أنفسنا بغيرنا! إنه تعبٌ ظالمٌ، يرهق الروح، ويعبث بالأعصاب! لا يفيد إلا في زيادة أغلال القهر، التي تحاصرنا، وتنغّص حياتنا! هذا ما فكّرت فيه، قبل أن أنام بالأمس، إذ سرح ذهني حزيناً، يقارن بيني وبين ضيفة (على العشاء) شابة فلسطينية (هي أخت زوج ابنتهما جولي) كانت تتحدث الفرنسية بطلاقة، غضبت من لساني الثقيل، الذي لم يستطع فكّ قيوده إلى الآن! تساءلت: ترى هل هي حيوية الشباب وجمود الهرم؟! سمعت صوت أمي يزجرني: لا تخلّي عينك لبرا! كأنها تريد بذلك أن أتأمل داخلي، وأشتغل على قدراتي الشخصية! أتحدى ظرفي الخاص! عندئذ أرضى بما أحققه من إنجازات!

عندما أتت، في الظهيرة، العاملة المنزلية (نائلة: شابة مغربية) لتنظيف البيت بأكمله، لم أستطع منع نفسي من المقارنة بين عملي الممتع (القراءة والكتابة والتدريس) وبين عملها المتعب، حمدت ربي!

قلت في نفسي: سبحان الله انزعجت، حين أصغيت لصوت ضعفي، فقارنت نفسي بشابة تتدفق الفرنسية على لسانها! والآن يغمرني الزهو والانشراح؛ حين أجد نفسي لا أعمل عملاً متعباً، بل قد يراه بعض التافهين أنه غير لائق!

قلت لنفسي: مقارنتك غبية! انظري كلتاهما تتحدثان الفرنسية بطلاقة! لكن شتان بين ظروف طالبة دراسات عليا، وظروف عاملة منزلية! انظري إلى نفسك، وافرحي بما لديك، يكفي أنك تستطيعين الحوار والتواصل مع الأسرة!؟ وتعيشين تجربة فريدة، ماذا تريدين أكثر من ذلك؟

كم نرهق أنفسنا حين نقارنها بمن تفوّق علينا في الظاهر! ونحن نجهل أننا قد نتفوق عليه في الباطن! كثير من الناس ينظر إلى ما يملكه غيره، وينسى ما وهبه الله من قدرات داخلية، انظري كيف

يسمّم الحسود حياته! فيتيه في زحمة الحقد والغصص! انظري كيف يستسلم الفاشل لمشاعر الغيرة، التي تختبئ وراء عقد نقص، فتلتهم حيويته وسكينته!

انظري إلى فداحة المقارنة! إنها تنسينا ما نعيشه من نِعَم (صحية واجتماعية...الخ) وإمكانيات، تستطيع أن تدفعنا إلى الأمام! ألا يتيه الإنسان في ظلمة الجشع والرغبة في سلب مؤهلات الآخرين وممتلكاتهم! فيعود عندئذ إلى الوراء، ويحكم على نفسه بالعجز عن العمل وتطوير ذاته؟ كأنه مولعٌ بما يعرقل مسيرة حياته؟!

انظري حولك هل تجدين إنساناً، يملك كل شيء؟ كل لديه نقطة ضعف، لكن ثمة من يجرؤ على مواجهتها، وثمة من يهرب منها؛ ليعلّق فشله على شمّاعة الآخرين أو القدر، وبذلك يسمح لمشاعر الحقد باحتلال أعماقه، فينغّص حياته، دون أن يدري به الآخرون!

عليك، يا ابنتي، أن تمتلكي إرادة التحدي والعمل، أنت مسؤولة عن فشلك، انتبهي إلى أن اللهاث وراء إنجازات الآخرين! يقتل وقتك، وينهك حماستك للعمل! نعم قد تتسلل المقارنة إلى أعماقك، دون أن تدري! لكن عليك أن تتأكدي أن أفكارك ومشاعرك هي ما يصنع واقعك، اختاري إما الحماسة للعمل وإما الفشل ولوم القدر!

الله يرضى عليك يا بنتي! حاولي أن تنمّي في داخلك إحساس الرضا الاستسلام لقضاء الله وقدره! أنت تعرفين أن ثمة أموراً لا يد لك فيها، قولي لي من يختار أهله، ودينه، ومذهبه وعرقه...

قلت في نفسي: عليّ أن أرضى بما منحني الله، فرغم افتقادي الشباب، ما زلت أتمتع بروحه، ما زال في داخلي ما يدفعني إلى العمل والمغامرة! وهبني الله الصحة والعقل والقلوب المحبة...الحمد لله الذي أتاح لي عيش تجربة استثنائية، لا أنكر أن كل ما يحيط بي، هنا، يشجعني على العمل، لكنني لا أستطيع منع لحظات ضعف من مهاجمتي، خاصة حين أفكر بأحبتي في دمشق! يغمرني شوقي إليهم،

لكن سرعان ما أقول: إنها أيام وتمضي بسرعة، عليّ أن أحسن استغلالها!

* * *

السبت 2007/10/27

تعلّمت بالأمس درساً مهماً في الحياة! لا يمكن أن أتلقاه في بلدي، عليّ من أجل المتعة الثقافية ألا أتردد في دفع المال! دفعت عشرين يورو (مبلغ كبير، إذا حوّلته إلى الليرة السورية) من أجل حضور مسرحية، عرضت شهامة (مدام بونور) أن تدفعه لي، قائلة: إنه غالٍ عليك! رفضت قائلة: لكنني أستطيع الدفع! لم أعتد تقبُّل إحسان أحدٍ! لهذا كنت أبذل جهدي من أجل أن أفوز بمعاملة ندية، تنتصر كرامتي فيها على حساباتي المالية!

تساءلت: من يستطيع في بلادي دفع هذا المبلغ كُرمى عين الثقافة؟ قلة قليلة من المثقفين، مع أن بعضهم غني! لكنهم ينظرون إلى الثقافة بصفتها مغنماً لا مغرماً! تُرى ألا يكون ذلك النفس التجاري، الذي هيمن على المثقف العربي هو أحد أسباب تخلفنا!؟

علّمتني بطاقة المسرح هذه: أن أفكّر بما يمتّع نفسي، وأن أبتعد عن إجراء حسابات، اعتاد عقلي عليها في كل أمور الحياة بسبب ميراث القِلة! التي حاصرتني في طفولتي وشبابي!

كنت أحطم هذا الميراث في حالة واحدة هي شراء الكتب، أما من أجل بطاقة مسرحية أو حضور معرض فني، فغالباً، ما توّجه لي دعوة مجانية! أعترف بأن المسرح لدينا، نحن العرب، ما زال ضيفاً طارئاً على حياتنا!؟

* *

تحاصرني الغربة، أحياناً، حين يتحدث الزوجان بسرعة، فيغمرني القلق، وتهيمن عليّ فكرة أنني متطفلة على خصوصيتهما، أتساءل: متى تنتهي ضيافتي! فلا أثقل عليهما!

رغم أنني أحاول التأقلم مع نظامهما اليومي، لكن يهاجمني، أحياناً، شعور بعدم استقلاليتي، أعترف أنهما في غاية اللطف معي، لكن كثيراً ما يزداد شوقي إلى بيتي في دمشق! خاصة حين أحس أنني كائن طفيلي عليهما، وعلى نفسي! إذ أحس أنني أعيش في مكان لا يحق لي فيه فرض أسلوب حياتي! فقد لاحظت، هنا، أن وقت الطعام مقدس، قد يؤخر دقائق أما ساعة، فهذا يعني أننا نعيش في حالة طوارئ والعياذ بالله!

بالأمس هاجمني إحساس بالعار؛ لأنني تركت (مسيو بونور) في المطبخ وحيداً، عرضت عليه المساعدة فرفض! أقلقني أنني سأغلق بابي وأرتاح! ليشتغل وحده، مع أنني حين أدخل المطبخ، لا يساعدني أحد، إذ تسود، هنا، المساواة بين الرجل والمرأة بأبهى صورها! لكن ماذا أفعل بالموروث الشرقي؟ صحيح أنني تجاوزته، كسرت صورة المرأة التقليدية (رهينة الزوج والبيت) لكن عاداته ما زالت تعشّش في أعماقي، قد تفلح بالاختباء، أحياناً، لكنها تمدّ لي لسانها؛ لتزعجني في لحظة غفلة! من السهل تبني أفكار جديدة بالكلام، لكن المشكلة تجسيدها على أرض الواقع! تُرى ماذا نفعل بمشاعر وأفكار لازمتنا زمناً طويلاً؟ هل نستطيع الخلاص منها بسهولة، مهما آمنّا بوجاهتها؟

* *

شاهدت اليوم (مسيو بونور) يهيئ حاجيات رحلة نهاية الأسبوع، لفت نظري أنه يضع في حقيبة سفره الصغيرة كتباً! قلت في نفسي: هذه هي الحضارة، إنهم يهتمون بالمؤنة الفكرية قدر اهتمامهم بالغذاء والشراب! لم أستطع إلا أن أقول له: حين نذهب في بلادي إلى رحلة، لا نفكر إلا بما يمتّع معدتنا، أما ما يمتّع العقل، فلا مكان له في حقيبة سفرنا! أليس هذا أحد مظاهر تخلفنا؟!

* *

حين حدّثت (مدام بونور) زوجها، أمامي، بعد انتهاء طعامنا، عن رسالة إلكترونية جاءتها، وجدت نفسي، دون أن أنتبه، أتلصّص على حديثهما! لكن سرعان ما استهجنت تصرفي! وقررت أن ألفت نظرها إلى أنني أتابع حديثها؛ لهذا رجوتها بنبرة جادة، أن تأخذ حذرها فلا تتحدث وزوجها بالأسرار أمامي! زيّنت ضحكتها وجهها وأرجاء الغرفة!

* *

استطعت اليوم أن أعايش أهم معالم باريس بفضل (د. عادل) الذي قادني في سيارته عبر جولة سريعة! بدت لي مدينة مترفة، تجمع جمال الطبيعة، التي خدمها الإنسان، مثلما خدم جمال العمران! كم أذهلتني الفخامة! تساءلت: هل يمكن لهذه العظمة أن تتجلى، لولا نهب فرنسا لثرواتنا!

التقيت صديقي (السين) في طريق العودة، فهمست له: إن نظرة ألقيها على مياهك، تساوي كل تلك الأبهة العمرانية الاستعمارية!

* * *

الأحد 2007/10/28

بعد سفر العائلة للعطلة، تأثرت كثيراً، حين رأيت باب غرفة نومها مشرعاً! ما هذه الثقة المطلقة، التي تكاد تتجاوز المألوف! في بيتنا نغلق باب الغرفة بحركة لا إرادية، حين نسافر في رحلة لعدة أيام!

لم أجرؤ على دخول الغرفة، تطلعت إليها من الخارج، وأنا أردد: إلى هذه الدرجة يثقان بي، وأنا أنتمي إلى عالم آخر! لكني ألا أنتمي إلى الأخلاق الرفيعة نفسها!؟ هل للأمانة هوية أو جنسية!؟ ألا تجري في عروق البشر، دون تمييز بين أبيض وأسود، مسيحي أو مسلم أو

يهودي...؟ لاحظت أنني ازددت حرصاً في استهلاك الماء والكهرباء، ربما أكثر مما أفعله في بيتي!

* *

كم كرهت، هنا، أيام العطل! إذ يتوجب عليّ مواجهة رعب الصمت ودوي الفراغ! يدمع قلبي، حين ترحل الأسرة! تهاجمني الكوابيس والأوهام، فأسمع خطوات الأشباح، تنقر جدران رأسي! عندئذ يصعقني الرعب!

ها قد أصبحت ثانيةً فريسة وحشة! لن يبددها التلفاز! إذ إنني ما زلت أسيرة عادة، لاحقتني في بلدي، ألهث وراء الأخبار وهمّ حنظلة، لهذا هرباً من الهم والغم، لم أقترب منه!

يا الله! ما أغرب الإنسان، إنه دائب الشكوى، لا يريحه صمت ولا ضجيج! حين يغمرني الصمت أشتاق الضجيج! وحين يقرعني الضجيج أحنّ إلى الصمت! هل السبب الحزن؟ أم هي الغربة؟ أم الوحشة...!؟

قررت الفرار من وحدتي! قلت في نفسي عليّ أن ألوذ بجناحي باريس، التي لا تخذل عشاقها أبداً!

كلما غامرت في اكتشاف حي من أحيائها، أجد مكافأة في انتظاري: جمال يطير بي إلى سماء الدهشة! حين تمشيت في شارع قرب بيتي في الدائرة الخامسة (كلود برنار) سلّمني إلى شارع آخر (غي دو لوساك) ما إن انتهى، حتى وجدت نفسي أمام حدائق (اللوكسمبورغ) أبهرني الخريف! لم أعرف في بلدي أن له تلك الأطياف المبهجة! إذ افترشت الأرض ألوان الحياة (الأخضر، البني، الأحمر ...) وحين رفعت نظري إلى الشجر، وجدتها تموج بتلك الألوان نفسها، أسعدني مشهد الأطفال، وهم يعبثون بورقها، كما لو أنها رمال بحر!

إنهم يعتنون بالطبيعة (الأشجار، البحيرات، الطيور...) كما يعتنون بتماثيل تضفي جمالاً وأبهة عليها! كنت أسير منتعشة، لم أفكر بالجلوس، كأن الحديقة ستهرب، وعليّ الإمساك بجمالها! أحسست

بظمئي لهذه النضرة الخريفية! التي هي نقيض ما اعتدّته! أردت أن ألهث وراء هذا الجمال قدر ما تصبر قدماي على ملاحقته! سرت دون هدى، أشرب الخضرة، وأتذوّق البحيرات والتماثيل! حتى أوصلني دليل الجمال إلى باب آخر للحديقة؛ ليسلّمني إلى شارع، لم أسر فيه من قبل، تابعت المسير، وأنا أحفظ اسمه (قلت في نفسي: إذا ضعت رجعت من حيث أتيت) فأنا لم أحمل الخريطة، التي تضيق بخطها المنمنم عيناي! لاحظت في شارع فرعي قبة تتوهج فضتها! أسرعت باتجاهها، اكتشفت أنها كنيسة ***(Sulpice Saint)*** دخلتها بناءً على نصيحة مدام (بونور) بدت الإضاءة ضعيفة، لكن الألوان تشعّ على طريقتها الفريدة! أذهلتني الجداريات، التي رسمها (دولا كروا) تجولت مطمئنة النفس في أرجاء الكنيسة شبه الفارغة (مع أنه يوم أحد) كم بدت موحشة رغم امتلائها بالتماثيل واللوحات والشموع المتوقدة في كل مكان! هاجمت مخيلتي زحمة هؤلاء الناس في حديقة (اللوكسمبورغ) تساءلت: هل السبب هو الفكر العلماني؟ أم الرغبة بالتمتع بجمال الطبيعة؟ أم..؟

في طريق عودتي اشتريت كستناء مشوية (وهي الأكلة الوحيدة، التي سمحت لنفسي، هنا، بشرائها جاهزة) من بائعة تجلس على الرصيف بالقرب من الحديقة، أعطيت البائعة (*2* يورو) ظننت أنه السعر، فقالت: بقي خمسون سنتا، أعطيتها الباقي، فرفضت! وقالت: في المرة القادمة! كم تأثّرت بهذا التصرف، فقد أدركت أنني غريبة، وأنني لا أتقن الفرنسية! وأنني ربما بلهاء، وقد يكون تعاطفها معي أنها ظنت بأنني فقيرة! فأرادت أن تكسب فيّ ثواباً!

أسرني تصرفها، شعرت في تلك اللحظة أن باريس ازدادت بهاءً، ورقة إحساس!

* * *

الاثنين 2007/10/29

سمعت اليوم لأول مرة همس المطر، رقص قلبي بين ضلوعي! وحين جاءت العاملة المنزلية (نائلة) سألتها عن الجو، أخبرتني أن هناك برداً!

تأخر صديقاي، عن موعد الغداء، على غير العادة قلقت عليهما، اتصلت بـ(مسيو بونور) فأخبرني أن ثمة حادثاً على طريق العودة من رحلتهما الأسبوعية إلى قرية (سموة) مما أدى إلى زحمة السير! سألته: متى ستأتيان؟ قال: بعد خمس وأربعين دقيقة! للوهلة الأولى لم أفهم، لكنني قلت: سأنتظركما! فردّ: هذا لطف منك!

لم أفهم حين حدّد الوقت بالدقائق؛ لأننا نحدّده في بلادي بالساعة (نصف، ربع...) إنهم، هنا، يتعاملون بدقة مع الزمن، فيحدّدونه بأقل ما يمكن! أما نحن فنتعامل معه اعتباطاً (بالمشايلة)!

بعد الغداء لاحظت أن إحساسي بأنني ضيفة خجولة ما زال مهيمنا عليّ! ضيّفتني المدام قطعة حلوى، رفضتها مع أنني أرغب بواحدة قبل شرب القهوة، لاحظت العاملة (نائلة) تتصرف بتلقائية، فقرّرت التعلم من عفويتها!

استطعت اليوم استيعاب نظام الحياة العادلة، التي يعيشها الزوجان، ثمة أسلوب يتبعانه، وأنا جئت لأنضم إليه! دون أن يقولا شيئاً، أو يطلبا، تركاني على راحتي لأختار الوقت المناسب، أحسست أن العمل ظهراً مناسب لي (من أجل تحضير الطعام) وبذلك أستطيع الذهاب إلى المكتبة بعد الغداء لاستكمال العودة إلى المراجع!

ما زلت أعاني من نكد الموروث الشرقي، فأنا رغم اقتناعي بعدالة توزيع المهام المطبخية ومراحلها، إذ من يحضّر الطعام لا علاقة له بالمرحلة التالية (تنظيم المطبخ، تنظيف الآنية، وضعها في الجلاية) وهذه كانت مهام (مسيو بونور) لكنني بيني وبين نفسي، أحس بعدم الرضا عن الذات، كيف أتركه يعمل في المطبخ، وهو الرجل!؟ مع أنني ممن يؤمنون بضرورة مشاركة المرأة العاملة في أعمال البيت، حتى إنني

طفّشت أحد المعجبين لاشتراطي تلك المشاركة! لكنني حين شاهدت ذلك عملياً أصابني القلق، ربما لأنني لم أعتد ذلك بسبب جرثومة التقاليد، التي نشأت عليها، ربما أيضاً بسبب أن (مسيو بونور) رجل في السبعين، كنت أحس أنه من المعيب تركه يعمل وحده! لكن ساحة المطبخ ضيقة، لا تتحمل بطلين، كما تقول أمي!

كي لا أظلم عاداتنا في الشام، فقد كان أبي، رحمه الله، يدخل المطبخ، صباح عطلته يوم الجمعة، ليعدّ لنا الفول أو التسقية (الفتة).

* * *

الثلاثاء 2007/10/30

شممت، بالأمس على العشاء، رائحة اللحم الشهية، منذ وصولي لم أذقه! شيء ما نفّرني من اللحم! لكن هذه أوّل مرة أشتهيه! لا أدري السبب! ربما لأن المدام هي التي طهته! عادة (مسيو بونور) هو من يطهوه، ترى هل السبب أنها اعتنت بتوابله؟ أم النفَس؟ كما تؤكد أمي!

لحسن حظي أن المدام لا تأكل اللحم الأحمر إلا نادراً! تأكل، غالباً، السمك، الذي يمكنني مشاركتها فيه!

حين وُضعت اللحمة على المائدة، تعمّدت عدم النظر إليها، يكفيني رائحتها! ردّدت بيني وبين نفسي: أحيانا تكون الرائحة أشهى من الطعم! أكلت الجبنة مع السلطة بتلذذ! هل اشتغل العقل الباطن؛ ليقنعني بذلك؟ لا أدري!

المهم بدأت أعيش، هنا، تجربة جديدة، أدرّب فيها نفسي على اختيار ما يناسبني من طعام، وما يريح معتقداتي، التي تصنع ذوقي، دون أن

أستهجن خيارات الآخر وذوقه! بل أشتهيها، أحيانا، وبذلك صرت أكثر احتراماً لحريته!

بالمصادفة وقع اليوم في يدي قول جان دو لابروبير (***Jean de la Bruyère***) وهو أديب فرنسي (ولد عام 1645) اهتم بدراسة الطبائع والعادات في القرن السابع عشر.

"Il faut chercher seulement à penser et à parler juste, sans vouloir amener les autres à notre goût et à nos sentiments ; c'est une trop grande entreprise"

(إنه لمشروع عظيم: أن نسعى للتفكير وللحديث بدقة، دون أن نلزم الآخرين بأذواقنا ومشاعرنا!)

* *

أقلقني عدم وجود رسائل في بريدي الإلكتروني! أخاف على صفاء من هموم أخرى تحاصرها، وتمنعها من الكتابة! كم تكبّر الغربة همومنا ومخاوفنا! وتزيد قلقنا! خاصة حين نفتقد كلمات الأحبة! عليّ أن أشكر النت الذي بات يتيح لنا التواصل السريع، دون كلفة مادية تذكر!

حدّثت المدام بقلقي، قالت: إذا لم يكن هناك أخبار سيئة فالأمور تجري على ما يرام، لا تخافي فالخبر السيء، لا يتأخر، إنه يسرع الخطى إلينا !

حاولت اليوم أثناء الفطور، وأنا أقدّم لهما طعاماً صحياً (قمح كامل بالزيت والزعتر) أن أضع في صحن كل منهما ملعقة صغيرة، وقلت لهما: من أجل ألا تسرعا في الأكل! فضحكا!

لاحظت أن عادة السرعة في الأكل والشرب مستحكمة لدى المرأة أكثر من الرجل، فسألتها عن السبب؟ فقالت: ضغط الحياة والمسؤوليات، خاصة الأطفال! قلت لها: أنت الآن في حلّ منها، حاولي

أن تتخلّصي من تلك العادة، التي تتحكم بك، مثلما تتحكّم بي؛ لهذا أحرص على القمح الكامل، الذي يعلمني المضغ الجيد! كي يسهل بلعه!

حدثتني عن ممارستها (اليوغا) فقلت لها: لا أجد لها أثراً في حياتك! فأخبرتني بأنها ستهتم بذلك حين تتقاعد بعد عدة أشهر، عندئذ ستغيّر حياتها!

* * *

الأربعاء 2007/10/31

فوجئت بنفسي أردد قول أمي: يوم الأربعاء فيه ساعة نحس!

عدت، اليوم، من السوق متعبة، حاولت فتح الباب، فتح القفل، لكن الباب لم يستجب! أدركت أنه مقفل من الداخل، تخيلت أن المدام تقوم بعمل ما سري، لا تريدني أن أعرفه! احترمت رغبتها، وضعت أمام الباب الخضار إلى جانب أصيص الورد، الذي أتيت به هدية لها!

خرجت أتسكع في شوارع باريس بصحبة غضبي! لِمَ لا أدري! كبُر إحساسي بالغربة! أعود إلى بيتي؛ لأكتشف أنه مغلق في وجهي! ضاع إحساسي بالأمان في تلك اللحظة، تضاعف قهري وتوتري! لكنني بدأت أهدّئ نفسي! إنه بيتها، تفعل به ما تشاء! أنا مجرد متطفلة على حياتها، مستأجرة عندها! مضى شهر، وبقيت ثلاثة أشهر، سرعان ما تمضي!

ولكن ما السر الذي يدعوها إلى إقفال الباب؟ اليوغا تمارسها أمامي في غرفة المعيشة؟ الرياضة تلعب دون حرج؟ مازاد ضيقي أنني نسيت الجوال داخل البيت!

لاحقتني ساعة النحس إلى المركز التجاري، حين ذهبت لشراء (راديو ترانسزيزتور) لم أستطع فهم آلية البيع! (أدفع في مكان،

وأستلم في مكان آخر) خانتني اللغة ربما لشدة توتري، فقد أغلقني الغضب بقفله! مما جعلني أزداد قهراً وإحساساً بالضياع! المهم أنني اكتشفت، بأنني صففت بالدور في مكان خاطئ! حين خرجت من المركز، بعد أن حصلت على الراديو، يجلدني الغيظ من بلاهتي! وصلت إلى الدوار المؤدي إلى البيت، ولكن لم أتبيّن في البداية أي شارع فرعي عليّ أن أدخله، وقفت أردد: إنه يوم النحس العالمي! أخذت نفساً عميقاً، وبدأت أتأمل، وأتذكر بعض التفاصيل، التي هدتني إلى طريقي الصحيح!

عدت إلى البيت! لأكتشف أن المدام قفلته بقفل داخلي، ونسيت فتحه، قلت بيني وبين نفسي: جلّ من لا ينسى! طبعاً لا يحق لي أن أسألها لِمَ أغلقته فهذا شأنها الخاص؟ عليّ أن أقمع حشريتي الشرقية! وهذا ما أعوّد نفسي عليه في الغربة!

غمرني طوفان النحس في يومي كله، رغم ن أمي تحدّده بساعة واحدة فقط! تُرى هل تتغير طبيعة النحس في الغربة؟ هل تتناسل فيها؟ فقد فاجأني الطباخ الكهربائي بإضرابه عن العمل! سحبت (الترانس المركزي) كما علّمني (مسيو بونور) سقط منه شيء، فأصابني الهلع والاضطراب، ألغيت الطبخ، لعنت نفسي وأدوات الحضارة! ففي بيتنا يتوقف الطباخ عن العمل مع انتهاء أسطوانة الغاز في الشهر مرة تقريباً! هنا يتوقف بوقاحة، رغم وجود الكهرباء، كلما عنّ على باله! لم أيأس حاولت لمس (الترانس) بيد حنون، لكنه زاد عناداً!

جاءت بعد قليل العاملة المنزلية (نائلة) استنجدت بها، فصلّحته! طلبت أن يبقى هذا الأمر سراً بيننا! لا أدري، إن كانت ستفشيه، وتخون ابنة جلدتها العربية!

قلت بيني وبين نفسي: هل يحق لي أن أومن بالخرافة! هذا يوم نحس من بابه إلى محرابه! فقد زاد قلقي، حين لم أجد في بريدي رسائل من أختي!

إنها مجموعة من المصادفات! نحمّلها على ظهر المجهول، الذي ندعوه (نحساً) لنهرب من إحساسنا بالمسؤولية (خذلان الطباخ الكهربائي) أو الانتباه إلى الطريق، وأحيانا نريد أن نحمي من نحب؛ لذلك كنت أرغب في إعفاء المدام من مسؤولة نسيان القفل! وأرى أن النت المريض في بلدي مسؤول عن عدم وصول رسائل أختي!

يبدو أن الغربة بدأت تعبث بي، وتؤثر على وعي وقدراتي العقلية! عليّ أن أتحملها، إنها بضعة أيام، وتصبح ذكرى! لاحظت أن ما ينقصني هو: تخفيف توتري! ما زلت عصبية، لم تنضجني الغربة! كما لم تنضجني السنون! ما زلت سريعة الغضب، أستسلم للتوتر (أعكّر الماء، كي أخوض فيه) كما يقول المثل! عاهدت نفسي على تدريبها، لعلي أنتقل من جحيم الغضب إلى جنة الهدوء!

أيقظني من صراعي مع ذاتي، صوت (نائلة) وهي تغني أثناء عملها! قلت: تعلّمي منها، إنها تمتّع نفسها، رغم عملها المتعب! فوجئت أنها تغني بالعربي! فسألتها: لِمَ لا تغنين بالفرنسي؟ قالت لي: لا أحب! كم أسعدني غناؤها للمشرق العربي (للمطربة صباح) وهي المغربية! قلت لها: أريدك في المرة القادمة أن تسمعيني غناء لـ(صباح فخري) انتعش في داخلي فيروس القومية العربية! وغلت الحماسة في عروقي، قلت لها: نحن أمة واحدة من الشرق إلى المغرب رغم كيد المعتدي! وغناؤك دليل على ذلك!

قبل أن تذهب امتدحت أناقتها!

قالت لي: أحب في بعض المرات الاهتمام بنفسي!

قلت: من أجل أحد معين؟

قالت: لا أحد يستاهل!

سردت عليّ ببساطة قصة بؤسها! تزوجت رجلاً اضطهدها، مع أنه يسكن بيتها! كانت تعمل داخل البيت وخارجه! وهو لا يعمل شيئاً!

قلت: لكنه يشتغل في الليل!

قالت: لا أريد هذا الشغل!

قلت لها معزّية: الدنيا لم تنتهِ عند رجل واحد، أنت شابة جذابة، وتعملين عملاً شريفاً! لا بد أن تجدي من يقدّرك!

قالت: بعد طلاقي، صرفت النظر عن الزواج! لكن ممكن أن أعيد النظر، فيما لو تقدّم رجل غني!

قلت: هل يهمك أن يكون عربياً أم فرنسياً!

قالت: لا تهمني جنسيته!

قلت في نفسي: مسكينة تعبت من الخدمة في البيوت! من حقها أن تخدم بيتاً واحداً! من حقها أن تجرّب مشاعر سيدة البيت، وهي تعامل خادمة!

في المساء وأنا عائدة إلى بيتي، أستمتع بأناقة باريس، واجهت، لأول مرة في حياتي، عراكاً بين كلبين! نغصّا عليّ متعة المشي! بدا أحدهما غاضباً، يعوي بعداء، ويحاول الهجوم، فيردعه صاحبه! في حين نظر الآخر له باحتقار من نوع فريد، إذ بدا لي مشوباً بوقار، يقرّبه من عالم البشر!

تابعت مسيري، لأفاجأ بكلب أبيض يعوي في وجهي، وقفت مرتعدة، أدركت صاحبته خوفي، فقالت:

إنه ***(Bébé)*** في الثالثة من عمره، لا تخافي منه! إنه ليس شريراً!

أتذكر مقولة صديقتي (نوار) المشهورة (وين ما منروح بيلحقنا الكلب)

أحياناً أتساءل أليس أطفال العالم البائس أولى بالعناية من هذه الكلاب! حمدت ربي لأن عائلة (بونور) تهتم بالثقافة دون الكلاب، حتى في بيتهم الريفي، الذي يبدو أنهم يخصصونه للعطل، لا يحتفظون بكلب!

قلت في نفسي: آه يا باريس! يا مدينة الورود والكلاب، تهتمين بالورود من أجل أناقة شوارعك! فتأتي الكلاب؛ لتشوّهها!

كتبت إلى أختي صفاء "إلى الآن لم أتأقلم مع كلابهم، فقبل يومين، وأنا أهم بدخول المصعد كدت أصطدم بكلب يخرج للنزهة مع

صاحبته؟ وحين أتجول في الشوارع يلفت نظري انتشار خيوط من الماء الملتصقة بجدران الأرصفة، أعتقد أنها بول كلابهم لأنها ترسم خطوطها في الأسفل!

كثيرا ما أستغرب وجود برازها في الشوارع الأنيقة! بعض الناس، والحق يقال، كان يحمل كيساً، يلمّه به! وبعضهم ينسى ذلك!

لكن عليّ أن أضيف أن باريس مدينة الكتب أيضاً، ألاحظ أن المكتبات، هنا، محظوظة، إذ لم يهملها الرّواد مثل بلادي! حتى لاحظت أن كل سوق، أو مركز تجاري، فيه مكان لبيع الكتب، بالإضافة إلى بيع الكتب المستعملة على الأرصفة!

يبدو لي الكتاب رفيق الفرنسيين! أدهشني مشهد في المترو منذ يومين، أم تحمل رضيعاً في يد وكتاباً تقرؤه في اليد الأخرى!

قلت بيني وبين نفسي: إنهم أبناء بررة لمقولة المتنبي "وخير جليس في الأنام كتاب" في حين نبدو عاقين له! لقد قتلناه في الماضي، وخذلناه في الحاضر!

* * *

الخميس 2007/11/1

علّمتني الغربة ألا أقطع صلتي بأي إنسان، بل أسعى إلى كسب صداقته، وألتمس له عذراً! حتى الشابة (جين) التي خذلتني، ولم تأتِ إلى المطار! ولم تفكّر حتى بالاعتذار! قلت في نفسي: هي لا تملك رقم هاتفي! ربما كان لديها ظرف منعها! عليّ أن أحدّثها؟ أنا في غربة وبحاجة إلى علاقات إنسانية، تغنيني! خاصة مع الفرنسيين! بدأت ألتمس لها، وأحضّ نفسي على التواصل معها، خاصة بعد أن أصبح لدي رقم جوال!

حين حدثتها، بدت في غاية اللطف! دعتني إلى شرب كأس من الشاي في بيتها (القريب من معهد العالم العربي، حيث أشتغل في

مراجع بحثي) لم أجد علامة فارقة سوى حجابي الأبيض؛ لهذا استدلّت عليّ بسرعة!

تسكن (جين) في عمارة في شارع (سان جرمان) غرفة بسيطة مع منافعها! لفت نظري فيه مجموعة من الخرز ومزق من أقمشة وأزرار! سألتها: ما هذا؟ فقالت: إنها بكلة شعر! قلت في قلبي: شتان بينها وبين ما تصنعه ابنة أخي (شذى) صاحبة الذوق الرفيع، تحوّل أشياء بسيطة إلى جمال مدهش، أما هذه البكلة فوالله لو وجدتها في الطريق لما التقطها! الفنون جنون كما تقول أمي!

تلقيت، بفضل (جين) دعوة من صديقتها (سونيا) إلى (***Unbrunch***: كلمة إنكليزية، تعني وجبة بين وقت الفطور والغداء) توازي في بلادي الصبحية، حيث تجتمع الصديقات أو الجارات لشرب القهوة، لكن، هنا، يصاحب الاجتماع تناول الطعام.

لم أذهب فارغة اليدين، أخذت معي هدية (طبخة فاصولياء بالزيت) أتاحت لي هذه الدعوة، دخول عوالم الشابات الفرنسيات (إيزابيل، سونيا، جين) كيف ينطقن الفرنسية بإمالة محببة! ويعشن بعيداً عن تقاليد المائدة، التي عرفتها عند عائلة (بونور) فقد بدت عارية من غطاء المائدة، وأُبعدت عنها سكين تقطيع الخبز...إنها أشبه بطربيزة صغيرة، افتقدت عليها الخبز (الباكة) الذي كنت أتخيل أنه عزيز على قلوب الفرنسيين! قلت في نفسي: إنها ضرورات الريجيم! فقد أحضرت صاحبة البيت (سونيا) المعكرونة والفروج، إلى جانب أربعة أصناف من الجبن، ذقتها جميعاً، إذ كانت وجبتي، التي تماشت مع ذوقي! ثم قدّمت الحلوى اللذيذة من صنع يديها!

لا أدري كيف تخلى لساني عن ثقل لغته، بدأت أحاور، وأسأل، وأنا في غاية السعادة، ربما لأنني استطعت التواصل مع عالم الشباب! هل السبب شخصيتي أم لباقة الشابات وبساطتهن؟ فقد أحسّست بأنني أعرفهن منذ زمن بعيد!

لاحظت أن ثمة معتقدات مشتركة بيننا! وصفت (إيزابيل) حماتها العجوز (التي تؤذيها بكلامها) بالقذرة و(الخنزيرة) أخبرتهم أننا أيضاً نصف الإنسان المؤذي بالخنزير! قلت بيني وبين نفسي: ثمة إجماع في الشرق والغرب على وصف هذا الحيوان بـ(المنفّر والكريه)

تحدثن عن هم عام (الغلاء) وتزايد نسبة الطلاق! تبيّن لي أن هذه هموم، تنغّص حياة البشر جميعا! ثم انتقل الحديث إلى الثقافة؛ أحسست أنني أكاد أفتقد هذه النوعية من الشابات في بلدي، إذ حلّ، هنا، محل المغيبة والثرثرة النسوية المعتادة الحديثُ عن الكتب والسينما والمعارض الفنية، إنهن يفقّن كثيرين من مدّعي الثقافة، الذين صادفتهم في حياتي!

انتبهت إلى أن المكتبة، تحتل مكاناً كبيراً في كل بيت دخلته، سواء أكان لجيل الكبار أم لجيل الشباب! حتى صديقتي (جين) التي تعيش في غرفة واحدة! وجدت لديها حائطاً بأكمله مملوءاً بالكتب، التي يفوق عددها، ما يملكه بعض أساتذة الجامعات في بلادي!

لفت نظري، كيف أن المضيفة الشابة (سونيا) كانت تعتني بطفلها، وهي تتحدث معنا، دون أي توتر، ألاحظه لدى الأم الشابة العربية، إذ كل شيء مرتّب من أجل طمأنينة الطفل وراحة الأم!

وحين عرضت علينا ألبوم زفافها، لاحظت بساطة مكياج العروس بألوانه الهادئة، أما المكان فكان حديقة، تزهو بألوان نيسان! أدهشني اهتمام النساء في حفلة العرس بارتداء أنواع شتى من القبعات المزركشة، فتساءلت بيني وبين نفسي: هل يردن بوضعها الاستغناء عن حلاق الشعر، ويوفرن أجرته؟ أم يتبعن تقليداً معيناً! وضعت بعضهن غطاء أسود رقيقاً على الوجه ***(voile)*** كنت أظنه، يستخدم في الحزن فقط (طبعاً بتأثير السينما الغربية) وإذا بي أكتشف أنه يوضع في الأعراس أيضاً!

سألت عن تكاليف العرس، قالت: باهظة، لكن يتشارك فيها أهل العروسين!

علمت أن (إيزابيل) لديها طفلان، وهي حامل في شهرها الثالث! قلت لها: أنت مثل العرب تحبين كثرة الأولاد! فابتسمت دون أن تعلق! تحدّثت إلينا ببساطة عن معاناتها مع عائلة زوجها، وعن المشكلة العالمية والأزلية بين الكنة والحماة!

أحسست بقرابة تجمعني مع هؤلاء الشابات رغم اختلاف الأجيال والثقافة! احتفت بنا (سونيا) كما نحتفي نحن العرب، وإن بدت أكثر بساطة، ودون عناء، كأنها تطبّق القول العربي القديم "شرّ الإخوان من تُكلِّف له" حضّرت كل شيء أثناء وجودنا، وبأسرع وقت ممكن! بقيت صديقتها (إيزابيل) لتساعدها في أعمال البيت، كما تفعل الصديقة الحميمة عندنا!

٭ ٭

تأثرت اليوم كثيراً، حين استأذنتني (مدام بونور) من أجل أن تُسكِن في الغرفة المجاورة لغرفتي صديقة تركية لابنتها (فلورا) قلت لها: هذا بيتك! افعلي ما تشائين! أنا مستأجرة لغرفة واحدة فقط! لكنها لفتت نظري قائلة: المنافع ستكون مشتركة بينكما! فإذا كنت لا ترغبين قولي! قلت: لا مانع عندي!

أحسست بالامتنان لهذه العائلة، تشعرني أنني في بيتي فعلاً، يفكران براحتي! لاحظت أنها تهتم بالإنسان أيا كانت هويته! أ لم تتطوّع ابنتهما (فلورا) في تعليم أطفال اللاجئين العراقيين اللغة الفرنسية (بعد 2003) حتى إنها كانت تنتقل إليهم من مسافة بعيدة (حي العباسيين) إلى مخيمهم (في السيدة زينب)

٭ ٭ ٭

الجمعة 2/11/ 2007

أنعشتني زيارة الشابات الفرنسيات، كم تكبر أوهامنا عن الآخر، حين لا نعايشه، يتمادى خيالنا في إقامة الحواجز وصروح سوء الظن! كثيراً ما نكتفي بملامح مشوهة له، رسمها خيالنا؛ ليعزّز إحساسنا بالتفوق! في حين تكبّلنا عقد نقصنا، فلا نرى حقيقتنا وحقيقة الآخر!

أحسست أنهن قريبات من روحي رغم الفارق العمري والثقافي...أحسست أن ثمة روحاً واحدة، تضم ابنة الشرق إلى ابنة الغرب! أ لا ننقذ النفس البشرية، ونعيد لها براءتها، حين نبعدها عن شيطان السياسة وجروح التاريخ؟ ألا يكفي ما زرعته في نفوسنا من أحقاد وكراهية!؟

ألا تفتح العلاقة الإنسانية، التي تؤسسها الصداقة، عيوننا على ما يجمعنا لا ما يفرقنا؟

إننا بذلك نلمّ شتات أرواحنا، ونستطيع أن نطهّرها من تشويه صورة غيرنا، فنستيقظ على ما يجمعنا، وندفن ما يفرقنا، وبذلك نبعد الوهم وسوء الظن عن أفكارنا، التي تدور حول الآخر!

حاولت أن أنقل اليوم هذه الأفكار والمشاعر إلى (مدام بونور) فقلت: لاحظت، خلال زيارتي بالأمس، أن الخنزير حيوان كريه عندنا وعندكم! وأننا نشترك في رسم صورة منفّرة له!

قالت: إننا نراه حيواناً مقززاً! يأكل قذارته! من هذا المنطلق نكرهه! لا من منطلق ديني! لا أدري لِمَ جبُنت! ولم أقل لها: إن الإسلام حرّمه لهذا السبب!

أكتشف نفسي، أنني كنت، في البداية، أريد أن أسمع للآخر أكثر من الدفاع عن ثقافتي! ترى هل السبب في أنني أبحث عما هو مشترك بيننا؟! هل لأنني مهمومة ببناء جسر بيني وبينه! فلا تبدو ثقافتي، التي شوّهها أصحابها وأعداؤها، غريبة عليه!؟ لعلي كنت أريد أن أدافع عنها بطريقة غير مباشرة، وذلك عبر سلوكي وتصرفاتي!

تغمرني المدام بلطفها واهتمامها، فقد جلبت لي اليوم مسرحية ساشاغويتري "كان أبي محقاً" من السوق؛ كي أقرأها، قبل حضورها، وبذلك تخفّ معاناتي اللغوية، كم تقوّي مثل هذه التصرفات النبيلة أحاسيس صداقة رائعة، ستترك بصمتها على روحي حتى فراقها جسدي!

* *

تعرّفت على الراقصة الفرنسية (كاترين) في بداية إقامتي، هنا، وهأنذي اليوم، بعد مرور أكثر من ثلاثة أسابيع في باريس، أتعرف على طالبة الدكتوراه التركية (رنيم) تعدّ رسالتها (في جامعة امستردام) عن الحدود السورية التركية، تتقن العربية والإنكليزية والفرنسية، جاءت إلى باريس من أجل بعض المراجع في المكتبات العامة! لا عيب فيها سوى أنها أتت بالأمس في الساعة الرابعة صباحاً! وأيقظتني، ولم أستطع استرداد نومي، سامحها الله!

لفت نظري أنها، منذ اللحظة الأولى لوصولها، تتصرف في البيت وكأنه بيتها، النت والكهرباء الماء دون إذن ولا دستور، قلت في نفسي: كأن عائلة (بونور) فاتحة (أوتيل أمية كما تقول أمي) لأبناء الشرق والغرب! كل ذلك بفضل علاقات ابنتها (فلورا) التي تنفتح على عوالم إنسانية لا تعترف بالجغرافية ولا بالتاريخ! كأن علاقاتها صورة لنفسها الحساسة الشاعرة!

ترتسم في وجه (رنيم) ملامحنا العربية! تأملتها، وقد تزيّنت استعداداً للسهر خارج البيت (حوالي التاسعة مساءً) قلت في نفسي: إنها تحتفي بباريس على طريقتها الخاصة! لاحظت أنها تحدّثت بحرية عن رغبتها في الإقامة في غرفة صديقها، الذي أعطاها مفتاحها! لكنها لم تستطع فتحها! لهذا اضطرت للبقاء عند (عائلة بونور)

أوحى لي كلامها هذا، وخروجها للسهر في مثل هذا الوقت بانتمائها إلى العالم الغربي!

لاحظت أمراً آخر أنها اشترت مؤنتها، ووضعتها في المطبخ! كي لا تكبّد الأسرة المضيفة أعباء مادية! في البداية استغربت ذلك، إنهم، هنا، كما تقول أمي "يأتي الضيف و زوادته معه"! لكنني حين تأملت الغلاء في باريس، تفهّمت عاداتهم! يكفي أنهم يقدّمون الإقامة، ذات الكلفة العالية! فتوفر هذه العائلة الكثير على الضيفة، بالإضافة إلى ذلك تقدّم لها جواً عائلياً مريحاً!

* * *

السبت 2007/11/3

تأثرت كثيراً حين سألتني صباحاً الفتاة التركية(رنيم): هل تسمعين موسيقى، أجبتها: بكل سرور! كبست زراً في (كمبيوترها) فإذا بي أسمع (فيروز) تغني للقدس "زهرة المدائن" أحسست، في هذه اللحظة، بنقيض ما أحسسته في الأمس، بدت قريبة مني، حين اكتشفت أنها تحبّ ما أحبّ!

جعلتني الأغنية أنتقل من القدس إلى سورية إلى تركيا؛ لتحطّ بي في غرفة فرنسية! نبض قلبي، وأنا أحلّق في عوالم فيروزية، يعانق كل تلك الفضاءات في وقت واحد! ويمحو أي سوء فهم أو تشويه شعرت به نحو تلك الفتاة التركية! إذ بفضلها اكتشفت نفسي! وما يقبع في داخلي من قبح! كم أنا متسرعة في الحكم على الآخر، استناداً إلى سلوك، قد لا ينتمي إلى بيئتي الشرقية؛ قلت عنها بالأمس: إنها فتاة متغرّبة! الآن أحسست أنها تنتمي إلى عالمي بكل جماله وهمومه! فقد استطاعت لحظة صدق، نبض الفن الرفيع في عروقها، أن تهدّم كل الأوهام

والحواجز، التي يصطنعها البشر! نأت بي تلك اللحظة عن كل سوء التفاهم، التي رُبيت عليه! وفتحت مسام روحي لمشاعر الحب، فأحسست أنني أعرف (رنيم) منذ سنين طويلة!

حدّثتني حوالي الساعة الحادية عشرة، أن اليوم عيد ميلادها! فكرت أن عليّ أن أقدّم لها هدية، ولو كانت رمزية، فلم أجد سوى زجاجة عطر صغيرة، اصطحبتها معي من دمشق.

كم جلبت لها هديتي الفرح! كم أسعدني فرحها! ما أسرع الهدية في نسج صداقة بين قلوب ظمأى للتواصل الإنساني! إنها خير معين للغريب، سواء حين يقدّمها، أو حين يتلقاها، أ لم يقل نبينا (ص) "تهادوا تحابوا"؟ أ ليست خير جسر يصلنا بالآخر منعشاً روح المودة بيننا وبينه!؟أ ليست أبلغ رسالة للحب، وقد تنزّه عن أي غرض!؟إنها خير وسيلة نتدرّب بها على العطاء، دون أن نحسب المقابل؛ لهذا تبدو خير معلم لنا، تنير لنا طريق إسعاد الآخرين، إنها طريقة يسيرة، لا تكاد تكلفنا شيئاً، لكنها تسمح لنا بتأسيس علاقات نزيهة، وتلفتنا إلى أن مشوار الحياة يزداد جمالاً، حين نعيش معاني الود بين أناس، نصادفهم في طريقنا، اكتشفت بأننا نسعد أنفسنا قدر ما نسعد الآخرين! تُرى ألا نستطيع بذلك أن نعيش عمق الحياة، فلا نكتفي بالتجوال على سطحها!؟

أعترف بأن رغبتي في العطاء أزهرت بعد موت أبي (عام 1995) في تلك اللحظة اقتربت من حقائق الحياة أكثر، بدأت استوعب بشكل ملموس آنية الرحلة الأرضية! وأن الموت قريب، قدر ما نظنه بعيداً! أدركت أن ما يبقى من الإنسان هو الذكر الحسن! بات همي إسعاد الآخرين، الذين أعيش بينهم، بغض النظر عن جنسيتهم وانتمائهم! حاولت أن أبث الفرح حولي، فقد وجدت في هذا السبيل خير معين لي على مقاومة أحزان الحياة ووحشتها!

رنّ في الساعة الثانية عشرة جرس الأنترفون، كانت كل واحدة منا في غرفتها تعمل، يا إلهي ما الخبر؟ قلما أسمع هذا الرنين! يا ربي خير!

أمسكت سماعته وأنا أقول: من؟ سأل رجل عن اسمي، وهل هذا السكن هو عنواني؟ حين تأكد من أنني صاحبة العلاقة، قال: هناك هدية لك من البنك، الذي أودعت فيه مالك! استنجدت بـ(رنيم) كي تنزل، وتستلمها، فأنا بحاجة لبعض الوقت (من أجل ارتداء الحجاب وما يناسبه من ملابس) وحين جاءت بالهدية، فوجئت بأنها قيمة (مسجلة، ستريو، دي في دي) كم فرحت وصديقتي بها! حتى إنها قالت لي: عشت، هنا، سنين، ولم أتلقَ هدية! أنت، هنا، منذ أقل من شهر، وتظفرين بمثل هذه الهدية! قلت: ربما ظنوني غنية، ويريدون جعل الهدية شبكة، يصطادون أموالي بها، فأبقيها في عهدتهم! لعلها نظرية المؤامرة، التي تتلبّسني أحياناً!

* *

أردت اليوم، بعد الظهر، اكتشاف حي باريسي جديد، بالقرب من بيتي، تسكعت فيه، وحين وجدت أحد بائعي الكتب (على الرصيف) اقتربت لعلي أشتري كتاباً! وأمرّن نفسي على استخدام اللغة اليومية، والحوار مع نماذج جديدة من البشر، غير نموذج عائلة (بونور) لعلي أتعرّف على وجه باريسي جديد! لكن ما إن اقتربت، حتى فاحت رائحة الخمر منه، فولّيت هاربة، دون أن أكلّف نفسي عناء الإصغاء لكلماته التي بربر بها!

هأنذي انتهك معاهدة، أبرمتها مع نفسي، وهي أن أتجرأ، وأحدّث الناس في الشارع والأماكن العامة الأخرى، كي أحسّن أدائي اللغوي خاصة في الحوار! هأنذي أفرض شروطي على الناس حتى في الشارع! لكن ماذا أفعل بميراث رُبيت عليه!؟ إذ ثمة صورة للسكير مخيفة، لا تبرح ذاكرتي، أذكر مرة حضرت جلسة شراب، بعد انتهائي من مناقشة أحد الطلاب، شرب أحد الأساتذة الجامعيين! وبدأ يحكي شروي

غروي، ثم بكى، وهجم على أحد أساتذتنا الكبار (د.الأشتر) يريد أن يقبّل يده! أحزنتني صورته المهينة! تساءلت: هل يوقظ الخمر الأحزان وانكسارات العمر؟ حتى بات رجل، يقارب الخمسين، يعول كطفل صغير، دون أن ينتبه إلى أنه يزعج الآخرين، وينغّص سهرتهم!

ابتعدت عن السكير، أحسست بالأمان، خاصة أنني دخلت حصني الكائن في حديقة النباتات، جلست ألتقط أنفاسي وأفكاري! تذكرت الملاحظة الذكية، التي أبداها (مسيو بونور) حين قال لي: لغتك غنية في الأمور الثقافية، أما في شؤون الحياة اليومية، فهي صفر!

أعترف بأنني إلى الآن، لم أستطع الاقتراب في باريس من (السكارى والكلاب) ما إن ألتقيهما في الشارع، حتى تغمرني مشاعر القلق والخوف! فأسرع خطواتي مبتعدة دون إرادة أو وعي!

كانت الحديقة مكتظة بسبب العطلة، خرجت منها، بعد أن افتقدت هدوءها المعتاد! أحسست بحاجتي إلى مشاعر السكينة! سرت في الطريق على غير هدى! حتى وجدت نفسي أمام كنيسة، فدخلتها! بدت لي شبه مظلمة، تجولت في أرجائها الفارهة! أتأمل التماثيل، واللوحات، شعرت بوحشة المقاعد الفارغة! عزمت على التقدّم إلى الأمام، حيث اشتدّت الإضاءة، أحسست برغبة في الجلوس، لا أدري الدافع هل هو الخشوع؟ أم الرغبة في الإحساس بالأمان؟ أم الرغبة في تأمل اللوحات الفنية والتماثيل؟

ما إن جلست حتى وجدت نفسي أكثر صفاءً وهدوءاً! كم أحتاج إلى قوة عليا، تسندني، تخفّف عني أعباء الحياة ووحشتها! لأول مرة ألاحظ وجود شباب في الكنيسة (ثلاثة ذكور وفتاتين) يجلسون متفرقين، كانوا جميعاً خاشعين! خشعت معهم لرب واحد! يجمعنا حبه، وتفرقنا أنانية البشر وأحقادهم! كان نظرهم يسرح بعيداً، لم

يبالوا بالتماثيل ولا بالصور! كأنهم يريدون أن يتواصلوا مع عالم آخر بعيد أكثر نقاءً وأكثر أمناً من هذا العالم الصاخب، الذي يضج رعباً وعنفاً!

* *

حين عدت إلى البيت، كتبت إلى جميع الصديقات هذه الرسالة:

"الكل مشغول البال، ويسأل: كيف أقضي أيامي في باريس!

سأحدثكم يا أحبائي عن البارحة كيف أمضيته! يبدأ يومي كما في سورية مع صلاة الصبح، ثم بقراءة بضع آيات من القرآن الكريم، لكن بالأمس حدث تطور مهم، وذلك بفضل الحوارات التي أخوضها مع عائلة (بونور) فقد قالت لي المدام: لا أعرف إنساناً على ظهر الأرض، تقبّل مصائبه برضا، فقلت لها: هناك النبي (أيوب) نطقت اسمه بالعربية، سألتني: من هو؟ فقلت لها: ظهر قبل النبي موسى، فنادت زوجها (المهتم بالتاريخ) لتعرف اسمه بالفرنسية، لم يتذكر، تحوّلا إلى خلية نحل، بحثا في الموسوعة، التي تملأ مكتبة البيت! فلم يجدا، جاء (مسيو بونور) بالقرآن الكريم (ترجمة جاك بيرك) لأنني قلت لهما: ذُكر اسمه فيه، لأبحث فيه، وفي غوغل، الحمد لله أن الوقت ليس للعمل، إذ إن نظام النوم المبكر ساري المفعول لدينا! ذهبت إلى فراشي، فتحت القرآن عندي، فوجدت اسمه في (سورة الأنبياء/آية ***83***)

في الصباح أخبرتهم بنتيجة بحثي، أحضر (مسيو بونور) نسخته الفرنسية من القرآن، وعرف أن ***(JOB)*** هو اسمه في الفرنسية، بفضل صبر أيوب اكتشفت طريقة لتعلّم الفرنسية، إذ طلبت استعارة هذه النسخة الفرنسية؛ لهذا بتّ أقرأ آية بالعربي ومقابلها الفرنسي!

انظروا كم يعبدون المعرفة، حتى لو كانوا في سن الشيخوخة!

والآن أكمل لكم يا أحبائي الحديث (الذي جرى بيني وبين المدام) فقد تابعت حواري معها عن أهمية الإيمان في الحياة! فهو خير معين لنا؛ كي نصبر على شقائها! وأن حياتنا، دونه، تزداد بؤساً وبشاعة! ذكرت لها مقولة دوستويفسكي، التي اكتشفت أنها تعرفها: "إذا لم يكن الله موجودا فكل شيء مباح" وقلت لها: إن الإيمان الحقيقي بالله في رأيه: هو أن نتقبل الشقاء رغم إدراكنا بأننا لا نستحقه! طبعاً كل ذلك بفرنسية مكسرة! الله يبعدها عنكم!

والآن أنقل لكم مشهداً من حياتي المطبخية؛ لتلمسوا بأنفسكم مواهبي فيها! كانت العائلة تخطط للذهاب لل ***weekend*** في الساعة الحادية عشرة! لكنني قلت اليوم سأعمل لكما تبولة، فأخّرا ذهابهما ساعتين كرمى لها، واحتراماً للمكمور بالزهرة! بيني وبينكم اكتشفت سراً يجعل الطعام شهياً، في البيت نضع البهارات أثناء الطبخ، فنضيّع نكهتها! لكنني اكتشفت أنها حين تكون مطحونة، علينا أن نضعها بعد أن نسكب الطعام! هأنذي أضع بين يديكم أحد أسراري المطبخية! لهذا (شو ما طبخت العفشا عائلة بونور بتتعشى) وتعبر عن إعجابها، وأنا المبتدئة في عالم الطبخ، قلت لهم بالأمس: ليتكم ترون طبخ ناهدة وصفاء لغيّرتم رأيكم في مستوى طبخي!

أمضي نهاري في البحث وإتقان الفرنسية، أما في المساء، قبل النوم، فأجلس مع نفسي، أكتب بعض الخواطر التي تشبه اليوميات..!

في الختام أشواقي للشام وللأهل جميعا"

* * *

الأحد 2007/11/4

زرت اليوم صباحاً مع الطالب السوري (سمير) اللوفر، فتحت فمي مذهولة، وأنا أردد: ما هذه الفخامة! ما هذا الترف! كم أدهشني

تنوعه، واتساعه! كل شيء فيه مدروس لخدمة السائح! حاولت أن أبدأ زيارتي بالقسم الخاص بالشرق (الحضارة الفرعونية، الرافدية...)

كم أدهشتني عظمة آثارنا، التي سرقوها، وما زالوا! أحسست للوهلة الأولى بالغضب لسرقة كنوز أجدادي! آلمني جشعهم في امتلاك ميراث الفن والتاريخ؛ لينالوا إعجاب العالم! لكن للأمانة هم يذكرون انتماءها، ولا يزورون حقيقتها!

أتساءل اليوم، وأنا أشاهد تدميرها في بلدي على يد إرهابٍ، ارتدى زي الإسلام زوراً وبهتاناً: هل نستحق هذا الميراث الحضاري؟ أ لم يفرّط به ضعفنا وتخلفنا؟ أ لم يحافظ عليه الغرب، رغم سرقته، من داعش وأخواتها؟ انظري كيف يعرضونه في أرقى متاحفهم، بعد أن يرمّموه! آه إننا نهدّم ما يعزّز ثقتنا بأنفسنا! وهم يبنون ما يعزّز ثقتهم بأنفسهم، حتى إنهم يجعلون ميراث الآخرين ميراثاً لهم، تحتفي به متاحفهم! لكن لا تبالغي في الغيظ، وانظري ألا يعترفون بحضارة الآخرين؟ ألا يرونها تشكل جزءاً من الحضارة الإنسانية!؟ رغم ذلك لم أستطع إلا أن أقول: إن متاحفهم بفضل كنوزنا، تكتسب أهمية عالمية؟

آلمني ضعفنا! تذكرت بأننا نعيش عالة على حضارة، أبدعها أجدادنا الأقوياء! ألا ترين بأن الجهل والفرقة أخطر علينا من جشع الآخر!؟ انظري كيف نستبيح آثارنا إما بالتدمير أو بالسرقة؛ لنسلمها لقمة سائغة له!

وحين انتقلنا إلى أرجاء أخرى من المتحف، لفت نظري كثرة المنحوتات، التي تركّز على الجسد، تساءلت: هل يبدو هذا الجسد لدى الغربيين أهم من الروح؟ أم أن ثقافتهم تقوم على التجسيد؟ وأنا رُبيت على ثقافة التجريد، خاصة في فن النحت؟ ألا يبدو التجريد أقرب إلى الروح، الباطن، اللامرئي؟ ألا يرحل بنا إلى الأعماق؟

انتبهي، يا ابنتي، أنت، هنا، تصبّين الآخر الغربي في قالب (مادي تجسيدي) والأنا الشرقية في قالب (روحي تجريدي) أنت بذلك تسقطين في مهاوي المقولات الجاهزة! انظري ألم يبرعوا بفن يخاطب

الروح دون أية لغة أخرى (الموسيقى)؟ ألا تجدين لديهم شعراء عظماء خاطبوا الروح، وتغنوا بجوهر الحياة؟ ....الخ

كفاكِ تقسيماً للعالم، ووضع الحدود بين الشرق والغرب، ثمة روح مبدعة وروح نائمة وكسولة...انظري إلى أين وصلت روحك وحضارتك، انظري إلى كثير من بلادك العربية، التي تتغنى اليوم بالكراهية؛ لتعيش حصار الدم والإرهاب!

❊ ❊ ❊

الاثنين 2007/11/5

رأيت أمي في منامي، وهي تريني كسراً في رجلها! لكن حين نظرت إلى وجهها، بدا متألقاً، عندئذ اطمأن قلبي، خاصة أنها كانت ترتدي ملابس بيضاء! أحسست أن روحها، تحمّلني مسؤولية ما، وصلتني الرسالة! ثمة ما يتعبها، ويؤلمها، ربما ابتعادي عن أختيَّ وعن حبيبة قلبها (شذى)! لكنها في الوقت نفسه، لا تريد أن تشغل بالي؛ لهذا بدت راضية عليّ؛ مما بثّ الطمأنينة في نفسي!

❊ ❊

قررت اليوم أن أقدّم هدية البنك إلى العائلة، فقد جاءتني على عنوانها! لم أحس أن هذه الهدية تخصّني، فأنا لست بحاجة إليها، إنها تثقل غربتي!

حين قدّمتها أنطقت الفرحة لسان (مسيو بونور) العربية، فسمعته يقول لأول مرة: (شكراً) أما (المدام) فلم تستطع أن تخفي

دهشتها واستغرابها، فقالت بصوت فرح: هذا كثير! هذا غير معقول! إنه الجنون!

قلت: أنتم أحق بها مني، لو لم أسكن عندكم، لما جاءتني على عنوانكم!

أثّرت فرحتهما بالهدية في نفسي، قلت: بالأمس فرحت بقدومهما، واليوم جاء دورهم؛ ليفرحوا بها!

لاحظت أن الفرح يُصيبنا بالعدوى، لذلك طار قلبي مزغرداً! قلت لهما دون لف أو دوران: الحظ الطيب جعلني أسكن عند عائلة تحمل صفاتها في اسمها وتصرفاتها (بونور: تعني السعادة) لهذا أنا محظوظة لوجودي بينكم، وهذه أجمل من أية هدية، أتلقاها!

بدا لي الأجمل من تقديم الهدية طريقة التعبير عن الفرح بها! نتلقى الهدية، في بلدي بإهمال، لا نحتفي بها، نقول بآلية: شكراَ، أو سلمت يدك! دون أن نعبّر بملامحنا أو حركاتنا أو صوتنا عن فرحتنا بها! حتى إنني لاحظت في المهرجانات النسائية (المباركة بالزواج أو الولادة...) تُرمى الهدية جانباً! كأنها تُجلب؛ لتلاحظها ربة البيت أو إحدى قريباتها، وفي أحيان كثيرة، لا تُسمع كلمة "شكراً"!

هل نحن أمة نكد، لا يفرحنا شيء؟ لعلنا فقدنا حساسية الفرح لشدة ما نعيش من أحزان وإحباطات! لكن ألا يشكل الإحساس بالفرح، والتعبير عنه ملاذاً لنا، يخفف عنا ضغط الحياة وبؤسها! ألا يجب أن نربي أنفسنا على التعبير البهيج بأشياء صغيرة، مادامت الأشياء الكبيرة بعيدة المتناول عن أفراحنا؟

* * *

الثلاثاء 2007/11/6

منذ وصولي فرنسا اتصلت بالأديبة (روعة) التي تعيش في باريس، أعزّيها بوفاة زوجها! وأحدّد معها موعداً؛ لألتقيها، كانت تكرر اعتذارها، بأنها فقدت (خمس كيلو) من وزنها أثناء مرض زوجها، الذي رعته في المشفى طيلة أشهر!

قالت لي: (كأنها تريد أن تثنيني عن الزيارة، وأن أكتفي بالعزاء الهاتفي) بأنني سأراها في حالة بائسة! هي لا تعرف أنني، في سورية، أهتم بالمشاركة الوجدانية بالأحزان، أكثر من الأفراح! وأنني أسعى لذلك، مهما كانت ظروفي، إذ إن ما يدفعني شيء أسمى من كلمة (واجب) إنه حب المشاركة في حزن، لا تخلو حياة الإنسان منه! لهذا قلت لها: أنا لا أريد أن أرى جسد (روعة) وإنما روحها! عندئذ وافقت على لقائي في اليوم التالي!

* *

تعطّل كمبيوتري اليوم، بذلت (مدام بونور) جهداً رائعاً في إصلاحه، لكنها لم تفلح! طلبت منها أن ترشدني إلى محل مختص بإصلاحه، فرفضت! قالت سيكلّفك كثيراً!

أحسست أنني مقطوعة عن العالم، اقترحت عليّ العمل على كمبيوتر زوجها، الموضوع على المكتب، فتحته لي، اطلعت سريعاً على الأخبار، وأغلقته! لم أكن مرتاحة، لا أحب إزعاج أحد! كما أنني لا أحب استخدام أشياء ليست لي!

* *

بعد حوالي شهر من وصولي بتّ أكثر جرأة، بدأت بمواجهة هذا العالم الجديد، أدخل المحلات وأشتري، بل تشجعت اليوم، وذهبت إلى البنك؛ لأشكره على هديته!

* * *

2007/11/7

حين ذهبت، اليوم، إلى السوق حدث أمر جلل، لأول مرة في حياتي، أقترب من كلب! فقد اضطرتني محاسن الصدف إلى الوقوف بالدور خلفه! كان، يصطف خلف صاحبته، أسود مهيباً في حجم حمار صغير!

لأول مرة في حياتي، أتجرأ على تأمل عيني كلب! لمست فيهما حزن الأسير وعجزه! حزّ في نفسي الرسن الموضوع في عنقه! أحسست أن ثمة شيئاً مؤلماً، ينغّص حياته، ويعكّر صفو رؤيته! أ ليس هذا القيد سبب بؤسه؟ بدا لي في جلسته الذليلة كائناً مطواعاً رغم عدم شعوره بالراحة! تُرى أيفتقد حرية الحركة؟ إذ كان، كلما اقترب الدور، ينهض متثاقلاً كعبد مأمور؛ ليقف، ويلحق بصاحبته، أحسست أنه يعاني قلقاً ما، كأنه يفتقد شعور الاستقرار سواء في السوق أم في غيره! مثلما يفتقد حرية التنزّه في فضائه الطبيعي (الحقول والغابات) أ ليس هذا الكلب أحد ضحايا الحضارة الغربية، التي جعلته عبداً ملحقاً بحياة الإنسان وعالمه الاصطناعي الخانق!؟ أ لم تحكم عليه بالنفي عن فضائه الرحب!؟

حين تأملت بؤس حياته، وإذعانه لمصيره، أحسست بأنه أليف، خفّ رعبي، لكنني مع ذلك حافظت على مسافة أمان بيني وبينه، لا أدري ما السبب! هل هو الخوف من أن تنشب أنيابه في لحمي الملتصق بعظامي؟! هل هو مرض الكلب؟ هل هي التربية، التي تقرنه في لاوعيي بالنجاسة والقذارة؟

كم تنفّست الصعداء! حين انتهت صاحبته من الشراء، ولشدة فرحي بفراقه! وجدت نفسي، أقول له: باي!

* *

زرت بعد الظهر الأديبة (روعة) في بيتها القريب من برج (إيفل) قلت في نفسي، قبل لقائها، يجب أن أعزّيها بطريقة مبتكرة، تليق بها! أردت أن أبعد عنها الهم والحزن، ولو لدقائق، وأن أجعل لقائي بها حميماً قدر المستطاع!

استقبلتني بكل أناقتها، لكن صدمتني نظارة سوداء، تحجب جزءا من ملامحها! ما إن جلست، حتى ارتسم على وجهي تساؤل، يشوبه استغراب ملح؛ بينّت لي بأنها تضعها؛ لتخفي عينيها المتعبتين بسبب الحزن! تذكرت كيف لزمت المشفى، ترعى زوجها بإخلاص المرأة الأصيلة، إلى درجة أدهش تفانيها الفرنسيين!

ما إن دخلت البيت حتى نزعت حذائي، فقالت: أعدتني إلى عادات بلدنا! أ تعرفين هذه أول مرة يأتني ضيف، ويفعل هذا! فأجبتها: هل تعرفين أن العائلة الفرنسية، التي أسكن بيتها، تفعل ذلك؟

قدّمت لها هدايا صغيرة، تحمل رائحة الشام (زهورات، كشكة، بامية، صرة مولد...) وأنا أقول لها: انظري ماذا جلبت لك (ستك أم أحمد) من أكلات طيبة! كدت أقول لها (جدتك أم أمجد) كما في روايتها السيرية!

حين فتحت علبة الحلويات الشرقية، أدهشتني حركتها، فقد شمّت رائحتها بفرح، وفسّرت لي قائلة: من عادتي أن أستعمل حاسة الشم، قبل أن أتذوق أي طعام! قلت بيني وبين نفسي: هذه بعض أعراض الشوق، إنها، بهذه الطريقة، تحاول التعويض عن رائحة الشام!

أشاع دفء حديثها السكينة في نفسي، انطلقت تروي لي، وكأنها تعرفني منذ سنين، علاقتها الاستثنائية بزوجها! فرحه بنجاحها، تشجيعه لها! وعن ثقته بها (كتب لها كل ما يملك) أخبرتني بغصص حزنها، حتى تكاد تقوّض حياتها! كررت قلقها على وزنها، الذي نقص إثر فجيعتها بمرضه، ثم بموته!

تجلت رهافة حسها ولباقتها، حين اصطحبتني في أرجاء (الصالون) لتعرّفني على أفراد عائلتها من البومات، التي هي من كافة الأشكال

والحجوم (زجاجية وخشبية، منحوتة ومرسومة) حتى إنني فوجئت بأن عددها حوالي (ست مئة)بومة! أحسست أنني أقف أمام طوطمها الخاص، بعيداً عن الخرافة الملتصقة به، إذ تلاحقه سوء السمعة في الشرق والغرب، فالبومة نذير الخراب والدمار! لكن الأديبة (روعة) أرادت أن تخالف أفق توقعنا جميعاً!

قالت لي: هذه هدايا أصدقائي الفنانين، فهم يعرفون ما أحبّ! تذكرت، كيف كانت ترسل لي بطاقات معايدة (تحمل صورة بومة مشفوعة أحيانا بجملة: هل تدرين بأن عينيك جميلتان؟) أما عنوانها البريدي، فقد كتبته في صحبة بومة! لتجعله طابعها الخاص، الذي يميزها عن غيرها!

حاولت تخفيف أحزانها بكل ما أستطيع، حدّثتها ببعض الطرائف، التي حدثت معي (منها كيف صففت بالدور وراء كلب) فضحكت، وقالت: هذه أول مرة أضحك منذ وفاة زوجي!

وحين سألتني: هل تشربين سفن ولا عصير جاهز؟ قلت لها، وقد تلبّستني شخصية الجدة، التي عاشت في منتصف القرن العشرين: هل تعرف ستك (أم أحمد) هذه المشروبات الضارة؟ قالت: لا!

قلت لها: إذاً أنا أشرب مثلها الماء! عندئذ بحثت لي عن كأس زجاجي جميل، قدّمته لي، فاختارت لي واحداً عليه خمس بومات بعيون الشيطان! ضحكت وأنا أشرب الماء مع هذه الصحبة الطيبة! وقلت لها: أ لم يكن يكفيني صحبة بومة واحدة فقط!؟هل تريدين أن أشرب في جو احتفالي؟ وضحكنا!

حدّثتها عن متعتي في إعداد بحثي "صورة الآخر في ألف ليلة" حدّثتني عن ظاهرة المرأة المبدعة في اختيار مواضيع للبحث، فقد أعدّت قريبة لها رسالة دكتوراه عن علاقة اليوغا بالصلاة!

قدّمت لي (شوكولا محشوة بالبرتقال) احتفت بي، أجلستني على مكتبها المطل على السين، حين أخبرتها بسر العلاقة بيني وبينه، وأنه بات من أعزّ أصدقائي!

تبادلنا بعض الذكريات عن الأهل، وعن تجربة اليتم! وقالت: أنت محظوظة، لم تفقدي أمك، وأنت صغيرة! إحساس اليتم يصاحبني إلى اليوم! يتم الأم جرح، أحسه، لا يريد أن يندمل رغم مرور السنين! حدّثتني عن أبيها، وكيف كان باستطاعته أن يضعها في مدرسة خاصة! لكنه رفض، لأنها تخرّج فتيات غبيات، يصلحن للسخافة فقط!

أمر واحد، لم يرحني في هذه الزيارة، وهو أنها لم تنزع نظارتها السوداء! فقد أحسست أنني مكشوفة أمام عينيها المتفحّصتين بفضول روائي، دون أن أستطيع في المقابل تفحّصها! لهذا بدت لي تلك النظارة أشبه بحاجز نفسي أو ستارة بيني وبينها! فالعين مغرفة الكلام، كما تقول أمي!

تساءلت: هل تريد أن تخفي عينيها الحزينتين على زوجها، وهي التي بكت أمامي عليه!؟ هل تريد إخفاء تعب السنين وخطوط الزمن حول أجمل ما في وجهها، كما اعترفت لي؟! ترى هل تريد أن تجعل النظارة السوداء من جملة عنايتها بمظهرها وأناقتها!؟ ألعلها تريد امتلاك حرية التفتيش في خبايا الآخرين، وتخفي عنهم أسرارها؟

أعتقد أنني تركت أثراً طيباً في نفسها إلى درجة أنها دعتني لأبات عندها (مع أنني لاحظت عليها التحفظ، فهي تعيش عزلة، تختلي فيها مع إبداعها) فقلت لها معتذرة: لا أستطيع ترك أهلي (عائلة بونور)!

عند الباب تبعتني بوماتها، لتودّعني، مثلما استقبلتني!

* * *

2007/11/8

التقيت بصديقي الروائي العربي (أنيس) الذي درس في دمشق، في مقهى قرب بيتي! ما إن تراه، حتى يوحي لك بالوداعة والحنو، إنه ممن

ينشرون حولهم عبق الود والألفة! كما أنه من الناس القلائل، التي تملك براعة الاعتذار! حتى إنه استقبلني بشفافية، جعلت اعتذاره يقطر صدقاً، فهو لم يردّ على هاتفي بسبب سفره! أسرتني لباقته، أعتقد لو تهيأ للدماثة أن تتجسد في رجل لكانت (أنيس)

رغم بصمات الزمن، ما زال يحتفظ بعينيه الطفليتين، اللتين تشعان طيبة، ما زال صوته ينبض بإحساس مرهف، أعتقد أن مثل هذه الصفات، تجعله قريباً من قلب المرأة! وقد استغلها أروع استغلال!

لاحظت عبث السنين في وجهه، فقد زرعت تجاعيد، التهمت نضارته، وحصدت جزءاً من شعره! لتعوّضه زيادة في الوزن!

لم يعلق على حجابي! اكتفى بامتداح أناقتي الباريسية! إنه يحترم الحرية الشخصية، ينفتح على الآخرين، كان أول انطباع أخذته عنه! هو شهامته، فهو يسرع في إغاثة زملائه بنبل! بل يحث الآخرين؛ ليحذوا حذوه!

بعد أن تحدثنا قليلاً، قمنا بجولة في المكتبات العربية، أحسست أنه صديق لكثير من أصحابها! يدخل المكتبة، لا ليشتري كتاباً، بل لينشئ حواراً مع صاحبها! ويستفهم عن أحدث الإصدارات العربية! ويناقش معهم هموم الثقافة العربية! وأحوال القراءة المتردية عند العرب!

كان الحوار الأكثر إثارة مع أصحاب المكتبات عن القرآن الكريم، إذ اتفق وصاحبة المكتبة (التونسية) أن (محمداً) قد كتبه إثر عودته من الشام بمساعدة الراهب (بحيرة) قلت: لكنه كان أمياً، ولغة القرآن الكريم تبدو بمستوى فني رفيع! هل تأملت تنوّع لغة خطابه! وغنى مشاهده التصويرية؟

قال: انظري إلى قصص القرآن، التي أُخذت من الأديان السابقة! قصة إبراهيم، موسى، عيسى...

– القرآن الكريم اعترف بالأديان السابقة، وتحدّث عن قصص أنبيائها، انظر كيف أضاف إليها تفاصيل، لن تجدها في الكتب الدينية السابقة! هل يمكن لخيال رجل أمي أن يمتلكها!؟

قالت صاحبة المكتبة: تأملي الوصايا العشر في التوراة، تجدينها في القرآن!

– ألا تلاحظين أن هذه الوصايا، هي مجموعة من الأخلاق الرفيعة، التي نحتاجها في كل زمان ومكان (لا تسرق، لا تكذب، لا تظلم...) ألا يحتاجها المسلم والمسيحي واليهودي وغيرهم! لهذا وجدت في الكتب السماوية كلها!

– أنت متعصبة للإسلام! تدافعين عنه انطلاقا من رؤيتك ضيقة!

– أدعوكِ إلى قراءة الخطاب القرآني، قبل أن تهاجميه، تمعّني فيه! لاحظي كيف ربط الإسلام بين العمل الصالح وبين الإيمان! حتى إنه وجّه خطابه، مرات كثيرة، إلى الذين آمنوا وعملوا الصالحات؟

لكنها قالت لـ(أنيس) بنبرة مستفزَّة: ثمة آية توحي بابتذال المرأة، إذ تختار الرسول لتعرض نفسها عليه، والقرآن يحلل ذلك! ويوثّقه "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ...وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ...(50/الأحزاب)

قلت: القرآن يوثّق حالة جرت في عهد النبوة! وهي حالة ليست غريبة، ما زلنا نعيشها إلى اليوم! ألا تلاحظين معي، كيف تبذل بعض النساء أنفسهن أمام مشاهير عصرنا؟ ألم تسمعي ببعض الفتيات العربيات، اللواتي هجمن على مغنٍ ومزّقن قميصه!؟ هذا لن نجده

عند المرأة العادية فقط، بل عند المثقفة أيضاً، فقد سمعت أن إحدى الكاتبات عرضت نفسها على أحد النقاد المشهورين! وبذلك تسوّق روايتها بجسدها!

قالت: على الرسول أن يكون منزّهاً عن مثل هذه الأمور!

قلت: المرأة، في هذه الآية، تعرض نفسها بكامل إرادتها! والرسول حر في أن يقبل أو يرفض! والخطاب القرآني يؤكّد أنه (بشر عادي) يأكل، ويمشي في الأسواق، لكنه يحمل رسالة سماوية!

أحسست أنني في حوار الطرشان، آلمني ألا أستفيد! أفيد! يبدو أن كلاً منا يتمترس حول أفكاره، التي يؤمن بصحتها، وغير مستعد لتغييرها! كنت قد بلغت غاية التعب! قلت لـ(أنيس) إننا لن نصل إلى نتيجة، لن تقنعاني ولن أقنعكما! الأفضل أن نفكر بشيء مشترك، نتفق عليه (الطعام) دعوتني قبل قليل للغداء، هل غيّرت رأيك؟

اختار مطعماً تركياً، يبيع (سندويش شاورما) حين دخلناه، قال لي: اخترت هذا المكان؛ لأنني لا أريد أن أحمل إثمك! قلت له: ما أطيب قلبك أيها المؤمن التقي! امنحني بعض بركاتك!

بدا مكاناً مزدحماً بالصخب وضيقاً! لا مكان فيه للحوار! مخصص لتناول وجبة سريعة، يولي بعدها المرء هارباً من ضوضائه، لفت نظري الخدمة الذاتية، حيث يرمي الزبون بنفسه بقايا طعامه، ليجمعوه في مكان خاص، كل شيء، هنا، محسوب حسابه! لا نجد التبذير المعتاد في مطاعم الشرق!

سألته، أثناء تجوالنا في شوارع باريس، وأنا أتذكر كثرة مغامراته النسائية في بلادي، أما زلت تؤمن بمقولتك المأثورة: "امرأة واحدة لا تكفي الروائي"

أجابني: طبعاً المرأة هي فرصة حياة! عليّ أن أنتهزها!

قلت: ألا يحس الرجل، وقد تجاوز الشباب، بضرورة الاستقرار!

قال: بصراحة أنا أبحث عما يحفّزني على الكتابة!

- لكن هل تدري مدى معاناة المرأة، التي تُخلص لك! حين تتركها بحثاً عن علاقة عفواً عن رواية جديدة!
- أنا أخلص للمرأة، حين أعيش معها قصة حب!
- لكنك سرعان ما تخونها!
- ليست خيانة، إنها صدق مع الذات، التي تنتعش بالحرية!
- الحرية تعني الانطلاق وراء الأهواء! كنا بتعدد الزوجات! وأصبحنا اليوم بتعدد العشيقات! ابتسم قائلا:
- هل تعرفين أن كل امرأة تعطيني شيئاً متفرداً، يصلح لرواية!
- كأنك تعيش قول بلزاك "كل امرأة تنام معها، هي رواية لم تكتب"
- كل امرأة أحببتها، كانت تهبني ذاتها وحكايتها! إنها مغامرة في عالم جديد، يغني ذاكرتي، ويحفّز مخيلتي على الكتابة!
- هل هي مادة أولية، تستخدمها للكتابة! أين مشاعرها؟
- أنا أحترم مشاعرها! وفي الوقت نفسه أخلّد تجربتنا في رواية!

قلت له وأنا أتذكر ماضيه المجيد في قصص الحب:
- أحس أنك تعيش حياتك وكأنها رواية! فتخلط وقائعها بالخيال!
- هل هناك أجمل من هذا؟
- هل فكرت حين تخلط الخيال بالواقع أمام امرأة تحبك! أنك تخلط الواقع بالكذب!
- إنه الكذب الجميل، الذي يمنح العلاقة نكهة خاصة، ويجعلها أكثر تشويقاً!
- كأنك تتحدث عن رواية لا عن علاقة إنسانية!
- هذا ما يمتعني، ويجعلني أعيش علاقة حب استثنائية!
- هل فكرت بامرأة تعطيك حياتها مخلصة، فتعيش، بعد أن تتركها، ينهشها الألم والضياع!
- لم ألزمها على شيء! هي التي تختار تلك العلاقة!

- لكن لا يمكن للمرأة، في رأيي، أن تختار مثلك، رواية عوضاً عن حياة مستقرة!

قلت بيني وبين نفسي أنت تختار الكذب والخيال، أما المرأة فتعيش عواطفها بصدق! أ ليست هذه أنانية ذكورية؟ هل هذا هو الإبداع! أم إباحة الكذب من أجل الكتابة؟ تُرى أ يمكن أن تعاش الحرية في صحبة الكذب؟ هل يحارب المثقف من أجل حرية المرأة؛ ليمتلك أولاً حرية العبث في عواطفها، خاصة حين تكون غضة نقية!؟وبذلك يغني حياته وإبداعه على حسابها!

سرح ذهني إلى صديقتي، زميلته في الدراسة، التي أحبته باندفاع فتاة رقيقة وحساسة، أخلصت له الحب (أكثر من سنتين) لتفاجأ، بعد عودته من وطنه، متزوجاً بأخرى! المصيبة أنه اختلق لها رواية وهمية، سردها بنبرته الحميمية، التي تقطر صدقاً؛ فبدا لها مدافعاً عن حبه لها! بل أقنعها بأنه أُجبر على الزواج، وقد أمعن في سرد تفاصيل دقيقة، أسعفه بها خياله الروائي، الذي ابتكر خلطة تجمع هم الوطن بهم الإنسان بقهر سلطة لا ترد! وبذلك استطاع أن يقنعها بفضل موهبته، ليس في التأليف فقط، بل في التمثيل أيضاً! حتى إنها رهنت بين يديه فترة من أجمل سني عمرها! لتفاجأ بعد ذلك أنها كانت رقماً بين عشيقاته! لم يكن أمامها من سبيل، وقد فُجعت بحب حياتها، سوى اعتزال الحياة، فاكتهلت في عزّ شبابها! أحسّت أنها ضحية أبجدية الكتابة، تتلهى بأحلامها في الحب، وتوثقها في رواية، وبذلك يدوس الرجل المثقف (نصير المرأة) إحساسها البكر بكل طزاجته وبراءته، كان ذنبها أنها كانت تحلم أن تعيش الحب والاستقرار معاً! لكنه من أجل لعبة الإبداع، رمى بفتاة مرهفة كعصفورة إلى مهاوي الخيبة والأحزان! حتى نغّص القهر حياتها، واستنزفتها ذكريات موجعة؛ فباتت تبحث عن الأمان، فلم تجده إلا بالاستسلام لقضاء الله!

كان الفضول يأكلني، لأعرف ماذا فعلت السنون الطويلة به، هل اكتفى بالشيب واعظاً؟ فسألته عن قصص حبه، هل وجد لها خاتمة؟ فصرّح لي قائلاً:

- ما زلت نهماً للحياة!
- سبحان الله! كل هذه العلاقات، ولم تشبع!

يبدو من ينتهب اللذات في هذه الحياة، لا يمكن أن يملّها! يريد أكثر فأكثر! أما المحروم، فيقنع نفسه بفلسفة الحرمان!

قلت لنفسي في طريق عودتي إلى البيت: كأنك تريدين من الروائي أن يعيش زاهداً في مباهج الحياة! لا! لا! أريده فقط أن يتنازل عن جشعه في المتع، التي تبيحها أنانيته، أريد ألّا ينسى المرأة، ويراها شريكة مشاعر وفكر! أحس، أحيانا، ثمة من يدّعي الثقافة، ويدوس على إنسانيتها، حين يحولها إلى أداة تلهب رغبته وإبداعه!

تساءلت: هل يحق للأديب ما لا يحق لغيره؟ ألا يظلمها الروائي حين يخلط الخيال بالواقع في علاقته بها؟ ألا يعيّشها أوهام حبه وخيالاته، ليحبكها قصة، تكتب مجده، في حين تريد المرأة أن تعيش حباً حقيقياً، أساسه الاستقرار في واقع، قد يجمّله الخيال!

أحسست (أنيس) يتكئ على علاقاته؛ ليزهر خياله ومجده، عندئذ يستطيع أن يجذب إلى وهجه فراشات، تحلم بالحب، الذي لن يكون لدى الكثيرات دون الإحساس بالسكينة والأمان!

لعله لم يستطع الإحساس بالمرأة رغم علاقاته المتعددة، رسم صورتها في رواياته، كما يحب، فهيمن عليها، كما فعل غيره من الروائيين، لهذا ضاع صوتها الحميمي، مثلما ضاعت استقلاليتها! فافتقدنا نديتها للرجل، إذ تبدو تابعة لشهواته دون أية إرادة! ينطقها برغباته وحتى بأفكاره! عندئذ يمارس الروائي ديكتاتورية، تجعل الرواية أداة قمع لأي صوت مخالف له؟! المصيبة أنه يحمل لواء الحرية والديمقراطية، لكنه يبدو لي أنه مهموم بحمل لواء رغباته وأمجاده، جاعلا المرأة وقوداً لها! هل أنا مخطئة؟

أنت تتخيلين أن المرأة بريئة من المسؤولية! أ ليست هي من تستجيب إليه بكامل عواطفها ووعيها؟ لِمَ تلغي المرأة عقلها، وترضى أن تكون لعبة عشق وكتابة؟

ولكن، هل تختلف مشاعر المرأة عن الرجل؟ هل الاستقرار في علاقة واحدة رغبة نسوية فقط؟ هل هي رغبة المرأة التقليدية فقط؟ هل هي غريزة الأمومة، تحفّز المرأة على رغبتها في الاستقرار؟ هل غريزة الأبوة لا تحتاج لمثل هذا الاستقرار؟

أ ليست إشكالية الحياة تكمن في خصوصية الإنسان بغض النظر عن جنسه؟

بما أن كل إنسان يملك بصمة خاصة، ليس فقط في إصبعه وإنما في مشاعره وفكره وأحلامه! لهذا لا يحق لي أن أُطلق أحكاماً عامة!

***

2007/11/9

مرّ شهر على إقامتي في باريس! توسوس لي نفسي، منذ أيام، أن ثلاثة الأشهر الباقية، لن تكفي لإتقان اللغة، والعودة إلى مراجع بحثي الكثيرة! أفكّر بتمديد إقامتي (المنحة سيزيد منها ما يكفيني وأكثر) قبل أن آتي، قيل لي بأنه غير مسموح! ربما من باب التخويف، أو إمساك القانون من ذنبه! ربما لن تعترض الجامعة، حين لا أكلّفها أي عبء مادي! لكن هل يحق لي بعد وفاة أمي ترك أختيّ وحيدتين؟ خاصة أن (صفاء) تعاني بصمت ولا تشتكي، إنها تجيد كنز آلامها؛ كي تخفيها عنا جميعاً! هل يحق لي إهمال العناية بحبيبة قلبي (شذى) وعندها ثانوية عامة؟

حدّثتني صديقتي التركية (رنيم) أنها ستسافر غداً إلى (هولندا) من أجل الجامعة، وستترك البيت اليوم. سألتها بحشريتي الشرقية، التي لا تريد أن تفارقني: أين ستمضين ليلتك؟ قالت: عند صديقي!

قرأت استغرابي على وجهي! قالت: لديه غرفتان، وهو حبيب صديقتي!

استغربت ذلك، قلت في نفسي: ما زلت أعيش في عالم آخر، ولعلي أنتمي إلى جيل آخر! لن أستطيع أن أستوعب هذه العلاقات بين شباب تعلّم في الغرب، وتطبّع بعاداته! لكنني استبعدت السبب الثاني (عقلية الكبار في العمر) حين تذكّرت الطالب (سمير) الذي أخبرني برغبته في الزواج من سورية! قال لي: لم أستطع التأقلم مع عادات الغربيين!

ترى هل السبب في ذلك أن (رنيم) رُبيت في دولة علمانية بعيدة عن الموروث، وأنا أنتمي إلى مجتمع محافظ؟ أم السبب هو الإنسان نفسه، تربيه قناعات أهله، ثم فكره! لا دخل للدولة ولا للمجتمع في مبادئ، يختار ما يريحه منها! لكن هل يمكن أن ينسى عادات، رُبي عليها منذ طفولته؟ أم..!

* *

كنت أطبخ اليوم شوربة الخضار (ومن بينها الكوسا) أخذت (عرموش الكوساية، التي تتوّج رأسها) ووضعتها على جبيني بين الحاجبين، ثم أخذت أخرى، وذهبت إلى غرفة المكتب، حيث تعمل المدام على الكومبيوتر، وسألتها: هل تضعين واحدة مثلي! أمي تقول بأنها تمتص سخونة الجسم! وبلغة أكثر حداثة: تمتص الطاقة السلبية من الجسم! فرحبت بابتسامة عريضة!

كنت أمام لوحة مدهشة سريالية لامرأة غربية، تجلس وراء الكومبيوتر، وهي تزيّن جبينها بعرموشة، أحسست أنني أمام مشهد فريد، رسمته أنامل شرقية وغربية؟!

* *

لابد أن أعترف بجميل المدام، فقد ضيّعت وقتاً طويلاً اليوم من أجل إصلاح (كومبيوتري) كم شعرت بالخجل منها! إنها تريد أن توفّر علي دفع المال لإصلاحه!

* * *

2007/11/10

تجرّأت اليوم، واقتربت أكثر من صديقي! إذ مشيت على رصيف ضيق، تحنو ذراعاه على السين! الذي سلمته قياد روحي، فأخذ بيدي، وأوصلني إلى متحف اللوفر! بدا لي صديقي، وقد ازداد بهاء وجلالاً في صحبة أمواج رقراقة، تشدو أغنيتها العذبة من الأزل! لتوحي بشبابه، وتحديه السنين!

كم سعدت بقربه في طريق الإياب أيضاً! شكراً لك يا صديقي! يا مخلّصي من زحمة السياح وتوتر الحياة وأوجاعها!

كم أنعشني همس خريره! وفتح أمامي آفاقاً، تطير بروحي في سماء فضية نحو السكينة والجمال، اختلط الأمر عليّ! هل أنا أسير في السماء أم أحلّق على الأرض في مرآة صفائه! لكن سرعان ما أيقظتني من حلمي السماوي رائحة كريهة مزروعة في أسفل أحد الجسور!

ثمة قرابة بين القذرين، سواء انتموا إلى عالم الدرجة الأولى أو العاشرة، تبدو الدناءة واحدة، هنا وهناك! إنها تفرّخ قبحاً، وتبث

سمومها على الملأ! اجتاحني غثيان، نغّص لقائي، وذكّرني بعالم بشع، يلاحقني، وأحاول الهرب منه!

* *

ما يدهشني حين أسير في الطريق، هنا، علاقة الآباء بالأبناء، إذ كثيراً ما أشاهد أباً وحيداً، يحمل طفلاً رضيعاً، وقد تقيّأ على سترته! لعل المنظر الأكثر إدهاشاً: امرأة تحمل كلبها، كما تحمل طفلها الرضيع! ضمن محفظة صدرية، وبذلك يكون أقرب ما يكون إلى قلبها! تُراه يعوّضها عن كائن بشري حلمت بحمله!؟ كل منا يعيش أوهاماً، تجمّل حياته؛ ليستطيع متابعة مشواره فيها! المهم ألا تتحول هذه الأوهام إلى مخدر، ينسينا جوهر كل شيء: الإنسان!

* * *

2007/11/11

أدمنت جمال باريس، وعالمها المرتب، أستمتع في المشي، أنظر إلى شرفات البيوت، فأجدها مزدانة بالورود الزاهية، لا بحبال الغسيل مثلنا!

رسمت مخيلتي صورة باهتة لزهورنا، وخضرتنا؟ أتساءل: لِمَ ألوانها ذابلة؟ هل السبب المناخ الصحراوي أم إهمال الإنسان لها؟ ترى هل تنعكس معاناتنا عليها؟ ولكن ألا يعاني الإنسان الغربي؟ هل ينجو أحد من المعاناة وصفعة القدر؟ انظري إلى وجوه الناس هل تجدين أحداً، نجا من ملاحقة الكدر والأحزان؟

غالباً ما أجعل خط سيري يبدأ بحفل استقبال، تقيمه لي حديقة (على الأغلب حديقة النباتات) فتنتعش روحي، التي خنقتها الصحراء!

ثمة احتفال، هنا، بالجمال، حتى في الشوارع الفرعية الضيقة، تطل برأسها حديقة صغيرة، خاصة بالحي، إنهم يهتمون بما يخدم الإنسان والبيئة معاً! في بلادي نتوحش عليهما معاً!

دخلت إحدى الحدائق، كل ما فيها، بدا مبهجاً (الخضرة، الزهور، الطيور، البحيرات...) لكن أفزعتني عزلة الناس ووحدتهم! ملأتني الشفقة والحزن لحالهم، أحسست ببؤسهم حين رأيتهم يأكلون وحدهم! يا الله كل هذا الجمال! وهذه الأناقة، ما فائدة ذلك حين يشكو الإنسان من الوحدة؟! هل يمكنه في هذه الحالة التمتّع بالجمال؟ ترى أ لا تستطيع ظلال الأشجار أن تحضنه، وتطرد وحشته؟

أ يمكن اعتياد الوحدة؟ أ ليس الخوف منها، يرسم صورة مرعبة لها؟ ولكن ثمة من اختار التعايش معها! بل يدافع عنها، حتى يراها ملاذ إبداعه!

المهم في ذلك حرية اختياره لها! فلا يحس بأنه مجبر عليها! ولكن هل حقاً أن الإنسان مخيّر في العيش وحيداً؟ ألا تسيّره الظروف، تكرهه على صحبتها؟

أعترف بأنني لم أعد أحسّ بالوحدة، التي كانت تجلياً لفقدان الإحساس بالأمن! بدّد الجمال، الذي أحاطتني به باريس، قلقي، يبدو أن الألفة مع المكان مرآة الألفة مع سكانه! كم أنا محظوظة في العيش لدى عائلة، أنستني صداقتها وحشة الغربة!

صحيح أنني أعيش يومين في الأسبوع منفية عنها، لكنني لم أعد أعاني الوحدة، التي هاجمتني في بداية إقامتي، إذ سرعان ما يتسلل الزمن هارباً، والفضل في ذلك يعود إلى باريس و إلى العمل في البحث!

الحمد لله أنني تحررت من قهر الوحدة؛ فتخلّصت من إحساس، يتغوّل في أعماقي رعباً! يقهر الروح، حتى يكاد يزهقها! كثير من الناس، يخاف أنياب وحشتها! سمعت أن أحد الأساتذة السوريين، حين أتى في منحة إلى باريس، استسلم لخناقها، فأُصيب باكتئاب!

أعترف بأنني بتّ بحاجة إلى يومي عطلة، أخرق فيهما نظام عائلة (بونور) الصارم، آكل وقت أشاء، وفي أي مكان! يبدو أن ممارسة بعض الفوضى، تجدّد النفس، وتهبها الإحساس بالانتماء إلى الوطن!

* * *

2007/11/12

ثمة روح مشتركة تجمعنا سواء أكنا أبناء الشرق أم الغرب! لاحظت قبل أيام، أنهم مثلنا، يخافون الحسد (يمسكون الخشب لردّ أذى العين الشريرة) واليوم تبيّن لي وأنا أحاور المدام أن ثمة مقولات شعبية، نربى عليها جميعاً!

في الصباح أبديت إعجابي بأصيص كبير، وُضعت فيه نبتة، تعيش في الظل، وتزين الصالون (وهو غرفة للضيوف والطعام معاً) قالت لي المدام: كانت نبتة صغيرة، صارت ما يشبه شجرة، بعد أن نقلتها إلى وعاء كبير!

قلت: يدك خضرة، كما نقول في بلدنا، حين نرى غرسة، زرعها إنسان، فتألقت، وزهت!

قالت: لدينا التعبير نفسه تقريباً!

كأننا نحتاج هذه المقولات! إنها تبقينا جميعاً على صلة بالمجهول، الذي نحس بأنه يخاطب أعماقنا ومخاوفنا ورغباتنا المتربعة فينا! فهي تحفّزنا على العناية بالطبيعة والجمال!

* *

لاحظت نفسي، أثناء التسوق، حين أريد أن أشتري شيئاً، يحتاج إلى الصف بالدور، ويكون في المحل (أو المركز التجاري) عدة عمال، أختار الدور، الذي يبيع فيه عامل ملوّن!

لا أدري لِمَ أرتاح إلى الملوّنين أكثر من العمال الشقر؟ هل السبب ذاكرتي، التي لا تريد أن تنسى عهد الاستعمار، كأنها تحفر بعيداً، لتصل إلى تاريخ مأزوم بالحروب؟ لعلها معايير الغرب المزدوجة من هموم العرب!؟ أم عقدة الآخر، أخاف أن يعاملني باستعلاء! أم لعله الإحساس بالقربى مع هؤلاء (سواء أكانوا آسيويين أم أفارقة) المجبرين على ترك أوطانهم والعيش غرباء هنا!

اصطففت اليوم بالدور أمام عامل أسمر من أجل شراء وحدات للجوال، اقترب دوري، تقدّمت، فجاء رجل (أشقر) ليقول لي: هذا دوري، أنا قبلك! كان يتحدث بحدة أفزعتني! نظر إلى حجابي بعينين تتقدان شراً، فازددت خوفاً! ومما زاد الطين بلة رائحة كريهة، انبعثت منه! كم يزداد الإنسان بشاعة، حين يعطّره برازه! تراجعت، كنت على استعداد للانتظار ساعات، ولا أسمع كلمة تؤذي أذني، أو أشمّ رائحة تقلب معدتي!

في هذه اللحظة المشحونة بالقلق والاضطراب والرعب والقرف! أخرجت جوالي من محفظته بانتظار دوري!

حين عدت إلى البيت افتقدت تلك المحفظة، فلم أجدها! حزنت على فقدها، إنها تحمل رائحة الشام بزخارفها المنمنمة! تبدو رقيقة

كقلب (صفاء) التي أهدتنيها! لهذا أحب صحبتها، وأفرح وأنا ألقي بجوالي في قلبها!

بدأت أقنع نفسي بالتزام الهدوء! فالغضب لن يعيدها إليّ! حين حلّلت هذا الموقف، لم أجد سوى احتمالين لا ثالث لهما: الأول أنها سقطت مني، ولم أنتبه! أما الثاني، وهو الأرجح، من كان يصفّ بالدور ورائي، اقترب خلسةً، ونشلها من محفظتي! وكلّه أمل أن يجد مالاً، فقد خدعته بشكلها الشرقي الغريب! ابتسمت، وقلت: إنه سيأكل مقلباً، حين يجدها فارغة، صحتين وعافية!

يبدو أن فقدان الأشياء في الغربة، له طعم حارق ومرّ! هاجمني إحساس بالضياع والقهر، عظّم إحساسي بالمسؤولية، عما حدث، بدأت أجلد ذاتي! لم تركزي، إذ سمحت للتوتر والقرف بالهيمنة عليك! لم تنتبهي! بدأت تهرمين! أين معاهدتك لنفسك: أن تكوني يقظة في الغربة! ولكن، مهما حاولنا، ألا يخذلنا الوعي في لحظة نكون أحوج ما نكون إليه!؟ أين ذلك الإنسان، الذي يحتفظ بكامل يقظته دائماً!؟

كم يؤرقنا ضياع الأشياء! صحيح أن ضياع المحفظة أمر تافه، لكنه استطاع أن يلتهم سكينتي! ويدمّر تصالحي مع ذاتي! من يصدق أن شيئاً صغيراً، قد أفلح في تنغيص أوقاتي، وبعثرة جهدي، وتمزيق أعصابي! أ ليست هي ضريبة الاستسلام للحزن وللغضب!؟

واجهت نفسي: ما بكِ؟! كبّري عقلك! ألا تعرفين أن هذه الأشياء باقية، وأنت زائلة! متى تتعلمين أن الإنسان أولاً؟ أنت تكثرين ترداد هذه المقولة بينك وبين نفسك! لكنك سرعان ما تفشلين في تطبيقها!

إنني أبدّد طاقتي وأعصابي في التوافه! عليّ ألا أغضب لضياع الأشياء! ما دمت بخير أنا ومن أحب! إنه درس لي! ليتني أستوعبه، ولا أنساه! عندئذ أتحرر من عبودية المال، وأصون روحي وعلاقتي مع أحبائي!

لماذا تضعين سوء النية والسرقة، اذهبي واسألي المحل، ربما وجدها، وحفظها! بدل أن تتخيلي أوهاماً، تستنزفك، افعلي شيئاً، تستطيعينه، وهي فرصة تتدربين فيها على الحوار، تسلحت بعدة جمل، صححتها لي المدام، كي أستطيع التواصل على أكمل وجه!

صحيح أنه خاب أملي، ولم أجدها، لكنني أحسست بالراحة، فقد قمت بما أستطيع من أجل استعادتها! يكفي أن ضياعها علّمني درساً في النظرة إلى نفسي وإلى الأشياء، أدعو الله ألا أنساه!

* * *

2007/11/13

تحدّثنا اليوم أنا والمدام على مائدة الفطور عن عملها (وهي المختصة بالفيزياء) وعن تقاعدها القريب، سألتها: هل تحسين أثناء عملك أن هناك قانوناً، ينظّم الطبيعة؟ أجابت:

- طبعاً، وهذا القانون نعرفه عن طريق العلم! لا كما تتصورين!

- برأيك هل وُجد هذا القانون مصادفة؟

- أنا لا أفكّر بهذه الطريقة! أفكّر بعمل القانون فقط!

- ألا تفيدك دراسة الفيزياء في تأمل حقائق الكون، في علاقة الحركة الجسدية بالروح! فقد قرأت مرة لأحد علماء الفيزياء الفلكية (لورانس كراوس) "أنا لا أستطيع أن أثبت بأن الإله غير موجود"

- سأحاول الإجابة عن ذلك في فترة التقاعد! ثم وقفت؛ لتعلن لي انتهاء الحوار! كنت أريد أن أقول لها: هل تخافين أن يقيدك الإيمان؟ ألا تعلمين أن الحرية "هي أضمن الطرق المؤدية إلى الله"؟ كما يقول أنسي الحاج!

* *

حدّثتها، في جلستنا المسائية، عن فكرة تراودني كثيراً، بعد أن عايشت الموت عن قرب بوفاة والدي (لم أقل أمي، كأنني لا أعترف بوفاتها) أحسست أن رحلتنا على هذه الأرض سرعان ما تنتهي؛ لهذا كنت أبحث عما يرضي ربي ونفسي معاً! إذ ثمة سؤال يلاحقني: ماذا ستفعلين بأموال، ستزيد عن منحتك؟ لا شيء في ذهني سأرصده للعلم! أسعدني أنها تؤمن مثلي بأهمية العطاء! قلت لها:

- ألاحظ نفسي كيف يسعدني العطاء أكثر من الأخذ! حين أعطي أكون أكثر حرية وفرحاً، أرضي نفسي وربي! حين آخذ أفكر كيف أرد، فأحس أنني مقيدة بذلك الجميل! أسرعت لتوضّح الفارق بيننا، فأضافت:

- نحن نفعل الخير من أجل الإنسان!

- لكنك تلتقين مع الدين، ألا تعلمين أن الإيمان الحقيقي لا معنى له، إلا إذا جسّده العمل الصالح!

- لست بحاجة للدين لأفعل الخير!

- فعلاً الاستثنائيون من البشر، الذين يملكون قلباً مرهفاً، يسع الإنسانية كلها، ليسوا بحاجة، لكن العاديين، الذين يشكلون أكثرية، أعتقد أنهم بحاجة لضوابط أخلاقية، ترتقي بحياتهم، إذ يبرمجون أعمالهم على إيقاع الثواب والعقاب!

* * *

2007/11/14

سألت المدام، بما أننا اليوم سنذهب إلى المسرح، هل ما زال الفرنسيون، يهتمون بأناقتهم، ويرتدون ملابس رسمية للذهاب إليه؟! هذا ما كنت أقرأه في الروايات!

قالت: لم يعد أغلبنا يهتم بذلك!

لا أدري لِمَ حرصت على ارتداء (طقم رسمي أسود وقميص أبيض)؟ أحسست أن علي أن أكون وفية لما قرأته! وإلى زمن روائي عشته، ما زال يخفق في قلبي أحلاماً وسحراً! لاحظت المدام، ارتدت كعادتها ملابسها البسيطة والأنيقة دون مكياج! كم تشبهني!

ما إن دخلت الحي الذي يقع فيه مسرح (إدوارد السابع، قرب دار الأوبرا) حتى غمرتني أضواء مدهشة في بهجتها وأناقتها، وقد زاد المطر الحنون من تألق المساء وبهائه، قلت في نفسي، وقد غمرني إحساس بالزهو: ها هي ذي باريس تتلألأ بأمطارها وأنوارها، صوّر لي غروري أنها ترحب بي على طريقتها الفريدة! وأنها تريد أن تهبني لحظة مفعمة بالجمال والفن!

حين اقتربت من المسرح، أحسست أنني أقترب من أبهة قصر ملكي! كل شيء فيه فخم حدّ الدهشة! قلت في نفسي إلى هذه الدرجة، يبدو هذا الفن لديهم ضرورة حياتية وجمالية! أدهشني امتلاء المقاعد بالحضور، رغم غلاء بطاقة الدخول! ما أبهرني حقاً هو هذا الاحترام الشديد للفن! لم أسمع أثناء العرض همسة واحدة! بصراحة ركّزت انتباهي على التواصل اللغوي، لكن الحوار بدا لي سريعاً! الحمد لله أنني قرأت المسرحية، وإلا لكنت (مثل الطلطميس ما بعرف الجمعة من الخميس) كما تقول أمي!

جالت بي المدام، في فترة الاستراحة، أرجاء المسرح، الذي يزيّن جدرانه بصور عظمائه! كما وجدت صوراً لـ(ساشاغويتري) مؤلف مسرحية "كان أبي محقاً"

أحسست في هذا المكان أنني أطوف في حلم مدهش، يزرع في روحي ألوان فرح، لم أذقها من قبل! أزهر الجمال في داخلي، وحلّق بي في عوالم نبيلة، عشت أيامي ظمأى إليها!

بدا زمني، هنا، في حركة دائبة، ينفض الغبار عن روحي، وعقلي! كأنّ هذا الزمن، لا يستطيع أن يعلن عن نفسه إلا بالفن، الذي يترك

بصمته على أرواحنا، مثلما يتركها على وجوهنا؛ لينبهنا من غفوة الرتابة اليومية، التي تمسك بخناقنا؛ فتعمى أبصارنا عن رؤية حركته، حتى إننا لشدة غبائنا، نظنه لا يتحرك! يأتي الفن؛ ليوقظنا، ويفتح أعيننا على حقائق الحياة الخالدة، التي تزداد ألقاً في صحبة جمال، يقاوم الزمن، ولا يعترف به!

كم نرتكب أخطاءً في حق أنفسنا وغيرنا، حين نهمل الفن الراقي! إننا نسلّم أنفسنا للهمجية؛ لتملأ فراغ أرواحنا!

كم آلمني أننا مازلنا في بلادي نهمل فن المسرح! لهذا نحكم على أنفسنا بأن نعيش أسرى زمن رتيب! نألف فيه النوم، ونستمتع بالكسل والتلفاز؛ كأننا نعلن موت الإحساس فينا ويباس الضمير!

في طريقي إلى البيت، سرت منتعشة، حرّرني الفن من آلامي، طهّرني من التوتر، سرح ذهني، الذي يهوى النكد، إلى أيام عملي في إحدى مدن الملح (سنة ونصف تقريباً) كنت أعيش في توتر دائم، يحاصرني فيه اللامعقول! عشت متكلة فيها على (أخي المحرم) في أمور الحياة الصغيرة، أنا التي تصرف عليه وعلى أسرته! لكنني كنت لا أستطيع الحركة دونه! كان الزمن هناك يسير متثاقلاً، خاصة أيام العطل، حتى شارفت على الكآبة! أحسست أنني عدت إلى عصر الحريم! أسرعت التجاعيد إلى وجهي، وشحب لون شعري!

* * *

الخميس 2007/11/15

دمّعت عيناي، وأنا أقول لمسيو (بونور) كم الفرق شاسع بيننا وبينكم! يتوجب على الإنسان، في الشرق، أن يناضل في كل لحظة في حياته، إذ يهدده الجوع والاستبداد والجهل... في حين لاحظت أن

إنسان الغرب، يناضل من أجل رفاهية أكبر! كأن قدرنا أن نعيش مقهورين محبطين، وأنتم مرفّهون حدّ التخمة!

قال لي: انظري كم نتعب، لنحصل على تلك الرفاهية! أنتم اعتدتم الكسل!

قلت له: حتى الغني، الذي يعمل عندنا، هو مثلكم لا يشبع، ولا يقنع؛ لذلك يعيش حياته مؤرقاً، يريد أن يفوز برفاهية أكثر وأكثر! لكنه، على نقيضكم، يعيش حياة آلية بعيدةً عن الثقافة وتأمل الجمال! تبدو لي طبقة رجال الأعمال، عندنا، نهمة للمال، تجد متعتها فيه، فتعيش حياتها تغذّي معدتها وما تحتها، لا روحها! لهذا لن تكون مؤهلة للنهوض بمجتمعها! بل هي أحد أسباب تخلفه!

* *

لاحظت بالأمس كيف ضغطت المدام (وهي في الخامسة والستين) على نفسها، إنها تلهث من الصباح إلى المساء! تذهب باكراً إلى العمل (بعد أن تسرع بالتهام بضع لقيمات) وفي المساء تذهب مع زوجها إلى دروس اللغة اليابانية سيراً على الأقدام! تعود إلى بيتها في العاشرة، لهذا لن أستغرب استيقاظها صباح اليوم مريضة!

تذكرت قول الشاعر، وأنا أراها شاحبة، ترتعش من البرد:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

هي لا يرضيها القليل، تبحث عن الكمال في سلوكها وعملها، وفي سبيل ذلك تنسى حاجتها إلى الراحة! قلت في نفسي: نحن نبالغ في الراحة، وهم يبالغون في العمل!

تصبح المرأة الستينية في بلادي جدّة، تستمتع بصحبة أحفادها، وقد تمضي وقتها في القيل والقال، وفي اختراع مشاكل صغيرة مع الكنّة، فتغذّي أيامها التوافه! حتى المرأة العاملة، قلّما تعطي عملها

حقه، فهي تعيش مؤرقة بهم الحياة اليومية، تتيه في دوامة الحسابات والنفقات! إنها، غالباً، لا تلتفت في شبابها لتطوير ذاتها ومعارفها، فما بالكم في سن شيخوختها!

* * *

الجمعة 2007/11/16

لاحظت اليوم على مائدة الإفطار، كيف تحافظ عائلة (بونور) لاشعورياً على التقاليد الفرنسية في الطعام، وإن غيّر كل من الزوجين عاداته بسبب متاعبه الصحية، إذ من المفروض أن يكون على المائدة الزبدة والمربى، فتوزّع مهام أكل الزبدة إلى (الرجل) ومهام أكل المربى إلى (المرأة) فيوفّقان بين التقاليد والصحة!

تأملت اليوم الخبز اللذيذ المتبقي على المائدة، الذي سيكون مصيره بعد قليل الإعدام في سلة المهملات! قلت في نفسي: ليتهم يحتفظون به، ويرسلونه إلى بلاد تعاني المجاعة! همست أمي في أذني: "هذا هو البطر بعينه! يرمون نعمة الله! من يحفظ النعمة الله بيحفظه!"

حدّثت المدام بهذه الفكرة، وأننا في بيتنا في الشام، مازلنا نفعل ذلك، ونستحرم إلقاء الخبز في القمامة! ردّت علي: حين كنا أطفالاً، ونترك شيئاً في الصحن دون أن نأكله، كانت أمي تقول: هناك أطفال في الصين جائعون، ويشتهون هذا الطعام!

قلت لها متحسّرة: أصبحت، اليوم، الصين دولة عظمى، أما العرب فما زال معظمهم، يشحذ على موائد اللئام!

ترى هل السبب أن العرب، يقلّدون الغرب في كل شيء، ويرمون عاداتهم الأصيلة وراء ظهورهم!؟

أم أن المال العربي صاحبه الجهل والإسفاف في الفن؟ ألم نجرم في حق العلم والفكر والذائقة الجمالية؟

* *

ما زالت تلاحقني فكرة تمديد إقامتي، هنا، شهرين، إنها فرصة تتاح لي في العمر مرة واحدة، وإذا أردت أن أطوّر نفسي ولغتي معاً، لن تكفيني أربعة أشهر! لكن أ ليست هذه فكرة أنانية؟ هل يحق لي ترك أُختي (ناهدة) تحاصرها جدران الأحزان!؟ هل يحق لي ترك الصغيرة (شذى) في رفقة الحزن وهم الدراسة؟ هل يحق لي ترك (صفاء) في جحيم المسؤوليات وحدها؟ لكن أ لم يعتدن غيابي؟! ماذا سأفعل لهن، إن عدت قبل شهرين!؟

أ ليست خسارة أن أتوقف عن متابعة إتقاني للغة؟ سمعت صوتاً ينهرني: انظري أ لم تلاحظي مدى تطورك في وقت قصير؟! بدأت نفسي الأمارة بالسوء، توسوس لي: أمك رحلت، ولم تستطيعي وداعها! قصّرت في حقها، وانتهى الأمر! لِمَ تستعجلين العودة، وقد رحلت من كانت بحاجة إلى رعايتك؟ قلت: عليّ أن أستشير (صفاء) في هذه الخطوة، إن شجعتني بقيت، وإلا، لن أسمح لنفسي أن تكون أنانية! كما أن عليّ أن أستشير عائلة (بونور) ربما تمانع! وربما تسرّها إقامتي لديها، كما تسرّني! وإذا كان "قلب المؤمن دليله" كما تقول أمي، فأنا أحس أن مشاعر الود، التي أكنّها لها، ألمحها في عيونهم! لكن ما يدريني، ربما كنت أسبغ رغبتي هذه عليها؟! هل يمكن أن تكون مشاعر الضيف، هي نفسها مشاعر المضيف؟ ما يدريني أنني ضيفة ثقيلة؟ لكنهم صريحون، لا يجاملون أحداً! لهذا اطمأن قلبي إلى مشاعرهما! قلت الآن عليّ أن أستشير أولاً من يعاني الحزن والفرقة، هذا هو المنطق والعدل! عاد الوسواس الخناس: لا تستشيري أحداً! لقد أتيحت لك فرصة تطوير ذاتك معرفياً وإنسانياً! لِمَ لا تستغلينها؟ لكن صوتاً في داخلي اعترض: أين حنينك إلى الأهل والأصدقاء؟ أين حنينك إلى الوطن؟

أعترف أنني، أعيش، أحياناً حنيناً مبهماً! يهاجمني الشوق إلى وطني! الذي لم يغادرني لحظة، منذ أتيت، أحس أنه يرافقني في مأكلي ومشربي وقولي! إنه أمي وأختي وصديقتي، كثيراً ما أحاول الفرار من تيه وحشة تنقضّ عليّ فجأة، أو لحظة شوق، تغرقني لجتها، فلا أفلح! الحمد لله أن استغراقي بالعمل، الذي أحب، ينقذني من تلك اللحظات، ويخفف وطأة الفقد!

* *

كتبت إلى أختي:

"العزيزة صفاء

تأجلت المحاضرة، التي من المفترض أن ألقيها، بسبب الإضراب، باتت المواصلات مشكلة في باريس، تخيلي أن العاملة المنزلية، لم تأتِ، وهي مغربية معترة، لكنها تملك روحاً مدهشة، تقاوم بها حِلكة أيامها وظروفها، إنها دائمة المزاح، وحين لا تكون العائلة في المنزل، تنطلق بالغناء أثناء العمل! أصبحت صديقتي، قدمت لها هدية بسيطة! كم فرحت بها!

هل تعرفين أن نصف الكيلو من سكاكر (القمر الدين)أهديته إلى ثلاثة أشخاص، فانظري إلى الفكر الاقتصادي الذي أتمتع به!

ثمة مجموعة من الرسائل غير منظورة، هنا، تشجعني على البقاء، ليس الأسرة فقط، وإنما موقع البيت أيضا! قريب من المكتبات ومعهد العالم العربي ...الخ

صفاء هذه رسالة خاصة بك وحدك! أريد رأيك بصراحة ووضوح! لاحظت أنني لن أستطيع إنجاز شيء مهم على صعيد اللغة الفرنسية في مدة أربعة أشهر، بالإضافة إلى أنه يتوجب علي قراءة مراجع كثيرة بالفرنسي وبالعربي عن ألف ليلة، قولي لي رأيك بصراحة: هل أكون

أنانية إذا فكرت بتمديد إقامتي في فرنسا شهرين! إنها فرصة العمر، كل ما يهمني رأيك! لا تترددي في قوله! هل يحق لي ذلك؟!

بما أننا مرتاحون على الصعيد المادي، لماذا لا أسمح لنفسي بأن أمدّ في عمر هذه التجربة شهرين آخرين! ستقولين لي: ماذا عن أختك (ناهدة) ألا ترين أن عليها الاعتماد على نفسها، نحن لن ندوم لها!؟ أما (شذى) فقد لاحظت أنها أصبحت أكثر إحساساً بالمسؤولية، لو كانت أمك على قيد الحياة، لكان علي أن أسرع بالعودة من أجلها؟

ها أنذي أتحدث إليك بصراحة، لأنك أقرب مخلوق إلى نفسي، أهلي كلهم اجتمعوا في شخصك، أنا واثقة بأن نصيحتك هي نبض القلب والعقل! أضع بين يديك قراري، أنت شريكتي فيه! أ تعرفين كثيراً ما أخاف ألا أستحق أخوتك ونبلك!

سلامي إلى الجميع"

* * *

2007/11/17

بدأت أتأمل أخطائي في الفرنسية، لاحظت أنني، أحياناً، أطبّق، دون أن أشعر، القواعد العربية عليها! هل هي رغبة كامنة في تماهي الآخر مع لغتي؟ لاحظت نفسي أعامل الفرنسية كالعامية، التي نستخدمها في بلدي، حيث نتساهل في القواعد النحوية! إنهم لا يتساهلون، هنا، أبداً، بل إن أي تغيير في القواعد النحوية، يؤدي إلى عدم الفهم، أو هذا ما أظنه! ربما كنت على خطأ! لعل هذا ما تريد أن توحيه لي عائلة (بونور) لتحفّزني على إتقان الفرنسية!

يعيش كل من الزوجين في نظامه اليومي! المرأة غارقة في عملها حتى أذنيها! والرجل غارق في تجواله وثقافته! أما أنا، ما زلت، مهما شغلت

نفسي بالعمل والقراءة، أشعر باندفاع نحو الآخر، خاصة حين تغادرني العائلة إلى منزلها الريفي! فيحاصرني خوفي الأزلي من الوحدة! أحيانا أفلسف هذا الاندفاع فأخاطب نفسي: أنت ترغبين في التواصل مع آخر مختلف، كي تكتشفي مجاهيله الثقافية والإنسانية! إنك ترغبين في التعرّف أكثر على أعماقه!

نكتشف في الغربة أنفسنا! نتعرّف إلى طبيعتنا! ما هي عيوبنا التي نخبئها؟ وما هي مزايانا، التي علينا الاستفادة منها!

أدركت في الغربة مدى ظمأي للحديث مع الآخر، ولو بضع كلمات! إنها حاجة إنسانية، قد لا نحسها في الوطن! لعل هذا الظمأ أحد أعراض غربتي!

استوقفني أحد السياح، اليوم، أثناء سيري في صحبة صديقي(السين) وسألني عن كنيسة نوتردام، فدللته عليها! أحسست بالثقة بالنفس، ها أنذي أصبحت خبيرة بالسياحة الباريسية!

لا أدري لِمَ فرحت، حين اكتشفت أن السائح إسباني؟! هل هو الحنين إلى أيام مجد غابرة؟ هل هو الإحساس بقرابة، تربطني به؟ هل...الخ! لهذا بذلت جهدي في إرشاده، فاستخدمت اللغة الفرنسية مصحوبة بلغة الإشارة، التي أنجدني بها صديقي (السين) حيث تكاد تتكئ كنيسة (نوتردام) على كتفه! عاتبت نفسي: أليس من العيب أنك أهملت دخولها إلى الآن؟ ماذا تنتظرين؟ آمل أن يرافقني أحد، لأنني ما زلت أهاب الوحدة، وأرنو إلى صحبة، تزيد المكان جمالاً! لهذا كلما رأيت مشهداً جميلاً، أسمع قلبي ينبض أمنيته: لو كان الأحبة إلى جانبي لازددتُ متعة!

صحيح أنني أستمتع في السير بصحبة صديقي الصامت الوقور! لكنني أشتاق إلى صحبة، تطلق لساني بالعربية! يبدو أن الحنين اللغوي، بدأ ينغص عليّ صداقتي، لكن جمال السين وهمسه الرقيق أفلح في بثّ تصالح فريد من نوعه في أعماقي! لهذا مشيت اليوم

ساعتين بقربه، ولم أمل، لولا التعب لتابعت اكتشاف فضائه، وما يخبّئه من كنوز!

كم تبدو باريس مدينة باذخة! هذا ما ردّدته، حين لمحت بناءً فخماً، فقلت: ربما كان أحد المتاحف، تقدّمت منه بعيني الضعيفتين، فإذا هو بناء محكمة، صُمّم في هيئة قصر منيف!

رغم كل هذا الغنى على ضفاف السين، هناك مشرّدون، يلوذون به، لكنهم يختلفون عن أولئك، الذين يملؤون شوارعنا! فقد وجدت شاباً نظيفاً أنيقاً جالساً بصمت، يحمل لافته "أنا جائع" كما يلوذون بشوارع باريس وأسواقها، شاهدت امرأة تشحذ على باب سوبر ماركت، وهي ترتدي حذاء يشكل حلماً للكثيرات في سورية!

لكن المدهش ما شاهدته في المترو، شاب يرتدي بنطالاً ممزقاً، كاد قلبي ينفطر عليه، لولا أنني لاحظت أنه يضع عدة خواتم في يده، وحين تحدثت مع عائلة (بونور) عنه، قالوا إنها الموضة "الجنون فنون"!

* * *

2007/11/18

ما زالت فكرة تمديد إقامتي في باريس (شهرين) تحاصر عقلي، ويهفو إليها قلبي،، لكن لن أتخذ قراراً بمعزل عمن يعاني الحزن والقهر في دمشق!

أرسلت (صفاء) رسالة، تفيض بأحزانها، أوصلت لي إحساسها بالقهر، وأن الحياة، لا تريد إنصافها! فهي كلما حاولت التصالح معها، تفاجئها بصفعاتها، لكنها تحمد الله على كل حال، فهي راضية بحكمه، رغم كل شيء!

ملأتني المرارة والغصص، أحسست أنني أسهم في أحزانها، فقد تركتها بأنانية، تواجه فجيعة الفقد وحدها! إنها تحمل همّ أختنا (ناهدة) التي هي سيدة البيت، لكنها لا تستطيع أن تكون سيدة نفسها، كانت أكثرنا التصاقاً بأمنا المريضة، باتت تعاني الوحدة، خاصة حين تذهب (صفاء) إلى العمل في (التدريس) قلت: معها حق، إنها تفتقد أماً وصديقة، ملأت حياتها معنى، وزيّنتها بالحكايا!

إنني أرفض أن أكون أنانية، ولو لشهرين، منحتني الجامعة أربعة أشهر، صحيح أنها لا تكفي، لكنها أفضل من لاشيء! اللغة بإمكاني أن أتابع تطويرها في بلدي! أما المراجع فيتوجب عليّ مضاعفة ساعات العمل، يمكنني الذهاب من الصباح حتى المساء، لاشيء يمنعني، وسأختار الأهم، الذي يتناسب بدقة مع بحثي!

أعترف بأنني أحببت هذا العالم الجميل والمنظم! لكنني لن أستسلم، ولو مؤقتاً، لإغرائه، وأنسى آخرين هم أحوج الناس إليّ!

لست مثالية، بل أنا واقعية، أفكر بمن هو أبقى، إقامتي هنا وقتية، مهما طالت، أما أهلي (أُختاي وشذى) فسأعيش معهم بقية أيامي! راحتهم هي راحتي! سمعت صوت أمي يقول: الله يرحمك يا أم سعاد(زوجة عمها) زرعت الحب بين أولادك، انظري يا ابنتي إليهم، يعيشون على قلب واحد! وهذا ما عجزت أمها عن فعله!

لن أضحي بدفء أخوة (صفاء وناهدة) وبنوة (شذى) لن أتنازل عما هو ثمين وغالٍ من أجل لحظات من المتعة السريعة في حضن الحبيبة باريس! كتبت إلى أختي "اتخذت قراري بعدم التمديد، في كامل وعيي! لن أكون مرتاحة في غربتي حتى في مدينة الأنوار، وفي بلدي من يحتاجني!"

طردت في هذه الرسالة فكرة التمديد نهائياً! أرحت نفسي بذلك! ثمة أولويات في الحياة، لا تقبل المساومة! دفء الأهل لا يعادله شيء في الدنيا!

واجهت نفسي الأمّارة بالبقاء! عليك أن تستفيدي من كل دقيقة متبقية لك في الغربة؛ لهذا ضبطتُ نفسي وعملي في البحث على إيقاع غرامي بالسين، أرافقه في الصباح، أثناء طريقي إلى المكتبة، وفي المساء أثناء عودتي!

* *

في طريق العودة توقفت لأشتري تمراً (رفيق مائدتي صباحاً) سألني البائع (الذي بدا لي أنه جزائري) هل أنت عربية؟ (لم يسأل عن ديني، أخبره حجابي) أجبته بنعم، فأعطاني جريدة القدس العربي (عدد ***5471***/ الخميس ***15/ 11/ 2007***) ولفت نظري إلى مقال عن كتابة آيات قرآنية على غطاء المرحاض في إيطاليا!

قلت في نفسي، وقد أغمّني الأمر، وملأني غيظاً: إلى أين يسير هذا العالم! ما هذا التعصب، الذي يشعل براكين خامدة، إذ إن تعصب (الأنا) يشعل تعصب الآخر! متى ينتهي هذا الرفض؟! ألا يكفينا هم الجوع والبؤس والاستبداد..؟ يكفي شرارة تعصب صغيرة، حتى تملأ حياتنا رعباً ودماً! ألا يريد هذا البلاء أن يرحل عنا! لترحل معه الكراهية!؟

يا إلهي ما هذا العصر المجنون؟ لِمَ تُغذّى فيه الأحقاد بكل الوسائل؟ من يؤجج نارها؟ ما الذي يكسبه من إثارة مشاعر المسلمين واستفزازهم بمثل هذه التصرفات، التي هي قنابل موقوتة؟ هل الغاية إلهاؤنا بحروب، تغذّيها دماؤنا؟ هل يحق لي أن أتهم في ذلك العرب أم الغرب؟ ولكن من يهمّه أن تكون بلادنا سوقاً لأسلحته!؟ هل يريد هؤلاء إشعال غريزة الثأر والانتقام، وما أسرع هيجانها بين المسلمين؟

الحمد لله أنني نشأت في بيئة منفتحة، رغم جهلها وفقرها، كانت أمي تردد: "كل واحد على دينو الله يعينو" أما جدي فكان يجمعنا،

ويقول: المسلم الله خلقه والمسيحي الله خلقه، واليهودي الله خلقه، والحمار الله خلقه!

* * *

2007/11/19

على مائدة الفطور حدّثت صديقيّ عن البائع، الذي أعطاني المقال، وهو مستفزّ من وجود أعظم آية في القرآن (آية الكرسي) على غطاء المرحاض!

– قالت المدام: هذا غباء، إذا لم نحترم مشاعر الآخرين، فمعنى ذلك أننا نعيش رعباً، يرمي بنا إلى الهاوية!

– قلت: كأن يداً خفية، تسعى لإثارة الأحقاد، فهم يعرفون أن مشاعر المسلمين سريعة الاشتعال! إنهم يتعمّدون جرحها، حين يهينون مقدساتهم؛ عندئذٍ يندفع رعاع المسلمين وما أكثرهم؛ ليخرجوا أسوأ ما لديهم!

– فعلوا الشيء نفسه، حين أهانوا مشاعر المسيحيين الكاثوليك، فوضعوا صورة العذراء على أغطية المرحاض أيضاً! قال (مسيو بونور) بنبرة هادئة:

– ثمة سياسة تعبث بالمشاعر الدينية؛ لأنها خير وقود للحرب! فأجبته منفعلة:

– هل بلغ الجنون ذروته أم هو الخبث والدهاء؟ إنهم يتعمدون استفزاز المشاعر الدينية، التي هي أشد تأثيراً في الوجدان من أي استفزاز آخر! أجاب بنبرة هادئة، تمنيت لو امتلكت مثلها:

– وهذا أمر طبيعي، يحس المرء حين تهان مشاعره الدينية، أنه أُهين في قدس أقداسه؟ قلت وأنا ما زلت منفعلة:

- ألا يدفع هذا بالشباب الجاهل، وما أكثرهم في الشرق، إلى الإرهاب؟ قالت المدام بنبرة قلقة مستفزّة:
- من الخطأ نشر هذه الصورة!
- ألا تلاحظا أن ثمة مسؤولية تتحملها وسائل الإعلام؟! كأنها تتاجر بالمشاعر، تؤججها، لترتزق من ورائها! يعرفون أن مثل هذه الأخبار، تلقى سوقاً رائجة بين الناس، انظرا كيف وصلتني الجريدة، وأنا أعيش بعيدة عن العرب! فقال المسيو:
- مثل هذا الخبر المشفوع بالصورة! سيدفع متعصبين جهلة إلى الانتقام من أي غربي! وهم يظنون أنهم ينصرون الإسلام، وينتقمون له من أعدائه! فأجابت المدام بصوت يوتّره الانفعال، فيزيد في حرارته:
- كأنهم يريدون أن يتحوّل المسلم البسيط إلى إرهابي!
- هناك من يعمل على أن يعيش العالم في دوامة الكراهية والانتقام والعنف!

* *

اجتمعنا على قهوة الظهيرة ثلاثتنا (أنا والمدام والعاملة نائلة) وضعت المدام كيس الشوكولا أمامنا، وحين لم تجد سوى قطعة واحدة، جاءت بعود طويل، وقسّمته (على عددنا) ثلاثة أقسام غير متساوية، وقالت من يسحب العود القصير، تكون من نصيبه، إنها ***(Tirer à la court paille)*** سحبت نائلة فكانت من نصيبها، فوجئت بأنها لم تأخذ القطعة، بل حوّلت السحب نحوي، فكان من نصيبي العود القصير، فتركتها لها بكل أريحية، مع أن نفسي الدنية كانت تشتهي قطعة الشوكولا، لكني لم أطاوعها، قرّعتها قائلة: هي أولى منك بها! انظري كم تتعب في أعمال البيت!

تأملت المدام وهي تلعب معنا هذه القرعة! عادت طفلة في حركاتها النزقة، قصّت العود بحركة رشيقة، وأخفته وراء ظهرها، وعيناها

تلتمعان بمرح، ثم قدّمته لنائلة (العاملة لديها) أولاً، لتتيح لها فرصة الفوز بالشوكولا! لم تساوِها بنفسها، بل منحتها الأفضلية! هزّتني هذه المشاعر وهذا الإيثار!

* *

في المساء كتبت إلى صفاء، أعرفها ببعض تجاربي ومشاهداتي: "أتاحت لي الإقامة، هنا، التعرّف إلى شابة فرنسية (كاترين) حدّثتك عنها، سابقاً، ظننتها صحفية، فإذا بها راقصة!

تبادلنا، بعد العشاء، أطراف الحديث بصراحة عن مهنتها، فاكتشفت أنها تحاول أن تبتكر فيها؛ لهذا تدمج اليوغا والحركات الصوفية والإيمائية مع الرقص الشرقي، وحين حدثتها عن الصورة التقليدية التي تعشش في أذهاننا عن الراقصة، قالت إنه فن أمارسه لأنني أحبه، لكنني قلت: ألا يختلط الرقص الشرقي بالإغراء، قالت: هذا أمر رائع! سألتها بسذاجتي التي تعرفينها يا صفاء: يعجبك أن تمارسي الإغراء! قالت: مادام اختلاط الفن بالإغراء، يسعد الجمهور، فلِمَ لا؟ فغرت فمي، وكبّلت الدهشة لساني! لأن ممارسة المرأة الإغراء بعيداً عن غرفة النوم، يصيبني بالصدمة!

نسيت أن أخبرك بما لفت نظري بالأمس، في طريق عودتي من المكتبة، شاهدت زنجياً يجرّ كلباً، هذه أول مرة أرى فيها هذا المشهد! قلت له بيني وبين نفسي: اذهب واعتنِ بطفل جائع في إفريقيا! الكلب يجد، هنا، من يرعاه ويدلّله، حتى لو لم يجد، فالطبيعة تتكفل برعايته، وتقدّم له طعامه وشرابه!

أحسّ، يا صفاء، أن حجابي يشكل جواز مرور إلى بعض الناس! كالبائع الجزائري بالأمس، والتقيت اليوم في الحديقة بامرأة بادرتني بـ(السلام عليكم) مصحوبة بابتسامة، أنستني غربتي! تذكرت ذلك العربي، الذي تطوّع إلى إرشادي إلى عنوان صديقتي الأديبة (روعة

حين لاحظ وقوفي الأبله أمام خريطة في محطة المترو! فقد اضطررت للنزول في موقف سابق، بسبب الإصلاحات !

أ تدرين وصلني اليوم كشف حسابي البنكي، لاحظت أنهم حسموا (34) يورو عمولة فتح الحساب، لم يغظني ذلك، فهذه أجرة خدمتهم، لكن ما أغاظني أن يأخذوا ظلماً وعدواناً (7 يورو) شهرياً من أجل نادي (كلوب) للجاز! تخيلت نفسي أدفع، وغيري يرقص، ويستمتع! عليّ أن أقنع نفسي أنني أسهم في إسعاد الآخرين! تذكرت كرمهم معي، فقد أرسلوا إليّ هدية قيمة! عليّ أن أعدّها تعويضاً عن عدم رقصي في النادي! إنه نظامهم الاستهلاكي، عليّ أن أتعايش معه! لا خيار لدي! فترة الإسهام في الرقص سرعان ما تمضي!

* * *

2007/11/20

أصابني الهلع، حين أخبرني (مسيو بونور) أنهم سيستقبلون غداً امرأة إسرائيلية، تحمل الجنسية الفرنسية، دون وعي نطقت، كمن أُصيب بصدمة: غير معقول!

راجعت نفسي فوراً، تذكرت أنني ضيفة في بيته، أدفع أجرة غرفة واحدة لا غرفتين! قلت بصوت، بذلت جهداً؛ كي يبدو طبيعياً: هذا بيتكم! تستضيفون فيه من تشاؤون! ثم أردفت، كمن يريد الدفاع عن نفسه إثر خطر داهمه! المهم ألا تكون صهيونية!

ردّ مستفزّاً: لا نستقبل أناساً متعصبين في بيتنا! إنها امرأة مثقفة، تكتب السيناريو، ستأتي لحضور مهرجان للسينما، مدة أسبوع، وترحل!

أجبته، وأنا أحاول ضبط انفعالي: هي كغيرها من البشر! على كل حال إنها المرة الأولى، التي سألتقي بها أحد الإسرائيليين! أسرعت في الدخول إلى غرفتي، وقد حاصرني الهم، جلست على طرف السرير، يلعثم روحي القلق والارتباك، نظرت إلى لوحة (زوروا فلسطين) دمعت عيناي، وغصّ قلبي بالهم! لا أحب كلمة (إسرائيل)أستخدم (الكيان الصهيوني) هأنذي أجد نفسي مضطرة لنطقها، فقد أصبحت واقعاً وانتماء لامرأة من لحم ودم، اضطرم داخلي قهراً! تبعثرت مشاعري، تشتت عقلي! زلزل كياني صداع لم أعهده...

بدأت أهدّئ نفسي: شئت أم أبيت ستجاورينها، وتستخدمين وإياها منافع البيت نفسها! أنت من اخترت الحياة ضمن أسرة فرنسية، عليك أن تتأقلمي مع ضيوفها، أو تتركي هذا البيت! لا تنسي أنك طارئة على حياتهم! لا يحق لك الاعتراض!

انظري إلى الجانب الإيجابي في الأمر: إنك ستعيشين تجربة فريدة، ربما لم يعشها أحد من أبناء وطنك! هل تخافين أن يدري أحد بذلك؟ وأن توصمي بالخيانة العظمى!؟هل اللقاء بها، يضرّ بأمن بلدك؟! هل سيكون سبباً في ضياع ما بقي من فلسطين؟

لا تحمّلي نفسك فوق طاقتها! صحيح أنك حملت همّ القضية منذ تفتّح وعيك، ربما أكثر من أبنائها، خصّصت لها رسالة الماجستير (عن غسان كنفاني) والدكتوراه (عن النقد الفلسطيني في الشتات) كفاك غلياناً! تأملي المشكلة بدم بارد، ولو قليلا! إنك لن تخوني فلسطين بهذا اللقاء! الذي فُرض عليك! إنه لقاء إنساني تحت سقف بيت، لا تملكين فيه سوى غرفة واحدة! انظري إلى طبيعة هذا المكان! إنه ليس عاماً أو رسمياً لك حرية الحضور وعدمه! صرخ مارد في داخلي مغتاظاً:

- لا أريد أن أرى أحداً من الأعداء!

- من قال لك إنها منهم؟ أ لم يؤكّد لك (مسيو بونور) أنها ليست صهيونية!؟ إذاً ليست عدوة! أ لم يصفها بالمثقفة!؟ ألا تعرفين أن الثقافة حصن، تحمي البشرية من التفكير بالعدوان وبالظلم! إنها تنمّي في أعماق الإنسان، أياً كان انتماؤه، مشاعر العدل والانفتاح! عندئذ هدّأت نفسي قليلاً! خاصة بعد أن قلت: إن الطيور على أشكالها تقع، أليست عائلة (بونور) منفتحة على العرب وقضاياهم؟ لابد أن تكون صديقتهم مثلهم!

* *

لم أجرؤ على الإفصاح عن همي الطارئ لأختي (صفاء) حدّثتها في رسالتي إليها عن تجارب أخرى متنوّعة: "تدهشني رغبتهم في المعرفة، فقد تعرّفت على أخت المدام (مدرسة لغة فرنسية)سمعتها بالأمس تسأل عن أسماء المآذن الثلاث في الجامع الأموي، تخيلي ابنة دمشق لا تعرف سوى اسم واحدة منها (العروس) خجلت من نفسي ومن جهلي، حمدت الله أن (مسيو بونور) العاشق للجامع الأموي، أجابها، فأنقذني من الحرج!

ارتكبت اليوم إثماً عظيماً، فقد كسرت غطاء إبريق القهوة، مع أنني شديدة الحرص على عدم الأذى، لكنه يبدو أنه يجري في دمي، كما تقول أمي! خبّأت آثار جريمتي، وقلت أعترف بها بعد الغذاء (وضعت يديَّ بجانب قلبي، واعترفت بصوت ينبض بالتأثر بما اقترفت، كما يعترف المسيحيون أمام الكاهن) حاولت بهذه الحركة أن أخفي اضطرابي بسبب رعونتي وعدم انتباهي! فأخذت المدام الموضوع بصدر رحب، وقالت أين هو؟ فقلت لقد خبّأت الجثة، وحين شاهدت الغطاء

ثلاثة أجزاء، قالت: بسيطة، وجدتها تتناول مادة لاصقة، وتقوم بجبر خاطري وكسوره! كم أخجلني لطفها، وعدم انزعاجها! صفاء أرجوك اشتري صينية قهوة مصدّفة، وحمّالة أقلام مصدّفة أيضاً، وإذا في مجال (كشكة وقهوة) أرسليها مع ابن عمي (نور) لأن (فلورا) لن تأتي في عطلة عيد الميلاد! تريد إنهاء كتابها عن دمشق!

* * *

الأربعاء 2007/11/21

في الصباح حدث أمر أزعجني، ربما مردّه إلى سوء التفاهم اللغوي، أو تغيير في العادات اليومية، فقد سألت (مسيو بونور) وقد استيقظ مبكراً! هل تريد أن تفطر الآن؟ قال سآخذ القهوة وقليل من الخبز! قلت في نفسي: سيسكّت جوعه (كما تقول أمي) ريثما يحِن وقت الإفطار! هذا ما فهمته! وهذا ما كان يفعله أحياناً!

خرجت بعد ساعة من العمل؛ لأقوم بمهمة استطلاع عن موعد الفطور؛ لأكتشف أنهما تناولانه، دون أن يناديني (مسيو بونور) كالعادة لإعداد فطوري! لكن ما أزعجني أكثر أنهما، لم يحسبا حسابي في القهوة! كم آلمني ذلك! مع أنني، بالأمس، تركت لهما حصتهما من الزهورات، كمرتها بكمرة خاصة (أعطتنيها المدام) ليجداها ساخنة حين يعودان من درس اليابانية!

حاولت أن أهدّئ توتري: لعله سوء تفاهم لغوي! عزّيت نفسي: إنها عادتهم، لن يستطيعوا التخلي عنها "من حضر القسمة، فليقتسم" وبما أنني كنت غائبة، لا يحق لي المطالبة بحصتي من القهوة! خاصة

أن إعدادها يتطلب وقتاً، يضيعه (مسيو بونور) في الطحن والتصفية والغلي... إنها ليست كقهوتنا جاهزة!

أعترف بأنني لم أستطع ضبط غيظي، فقلت دون وعي: كل هذا بسبب الضيفة الإسرائيلية (إستير) بدأت المشاكل، قبل أن أراها، انتبهت إلى تهوري وطيشي، فأردفت، وقد رسمت ابتسامة على وجهي: طبعاً أنا أمزح!

أنا متأكدة أن الضيفة لا ذنب لها، إذ لم أرها بعد، لكنها أثارت بلبلة في داخلي! مما جعلني بالأمس عديمة التركيز (كسرت غطاء إناء القهوة) واليوم فاتني موعد الفطور، مع أنني حريصة عليه، حرصي على درس ثمين، أتعلم فيه اللغة بكل يسر وحيوية، فهو الوقت الوحيد، الذي تتفرغ فيه العائلة للحوار! كما أنه يتيح لي أن أعيش جو الأسرة، بما فيه من مرح وألفة! أنا ممن يكرهون تناول الطعام وحدهم، مثلما أكره فرض نفسي على الآخرين، أخاف، أحياناً، أن أكون مصدر إزعاج لهما! لكنهما صريحان، أعتقد أنهما لن يخجلا في إعلان رغبتهما في العزلة، على أي حال سأحدثهما عن علاقتنا، وأصارحهما بما يراودني من أفكار!

لاحظت، دون أن أشعر، بأن (إستير) شكّلت شرخاً نفسياً بيننا! فقد استشارتني (المدام) حين أرادت استقبال الطالبة التركية (رنيم) لكنها لم تستشرني من أجل ضيفتها الجديدة، أوكلت المهمة إلى (مسيو بونور) أخبرني بلهجة جازمة (غداً سنستقبل ضيفة) ربما كانت صديقتها! حتى لو استشارتني، لا يحق لي الرفض! أنا مستأجرة لغرفة واحدة فقط!

خاطبت نفسي بحنو: عليك أن تواجهي نفسك يا بنتي، بكل عيوبها، ولا تتكلي على وهم (إستير) وتغرقي نفسك بالتوتر دون أي داعٍ، أبعدي نفسك عن أوهام، تشتتك، وتقضم تفكيرك العقلاني! لا تستسلمي لما ورثته عن أجدادك من براكين انفعالية! لا تقبلي بدور الضحية

البلهاء، إنه غير لائق بك! لست حنظلة المكتوف اليدين! هيا أنقذي نفسك من أفكار مسبّقة، حرّريها من خوف لا مبرر له، كأنك تريدين أن تجعلي (إستير) غولة، وأنت لم تلتقِ بها بعد!

بدا اللقاء الأول عادياً، وقفت أمامي امرأة كهلة، أقرب إلى البدانة! مدّت يدها فصافحتها، وأنا أحسّ بغصّة في قلبي! سألتني: إن كنت أتحدث الإنكليزية، قلت: لا! سألتها: إن كانت تعرف العربية! قالت: قليلاً!

قلت (بالفرنسية) بما أننا على أرض محايدة، فلنستخدم لغتها!

قالت: لم أفهم! قلت في نفسي: لعل السبب فرنسيتي المضطربة! فأعدت كلامي بلغة، حاولت أن أجعلها هادئة، لا تحمل أبعاداً سياسية، لعل كلمة محايدة، لم تعجبها! لهذا بذلت جهداً في رسم ابتسامة على وجهي، وقلت: بما أننا ضيوف عائلة (بونور) فلنستخدم لغتها! كأنني خيّبت ظن حنظلة، فزورني! هل تريدني ألّا أتحدث معها؟ اعذرني لا أستطيع! اقنع الآن بيديك المكبّلتين!

* *

خفّفت زيارتي لصديقتي (جين) توتري! كم هي لطيفة هذه الفتاة، حدّثتها عن أوهامي! فضحكت! ينطلق لساني معها، فأستطيع التعبير عن أفكاري ومشاعري بكل يسر! لا أدري السبب؟ هل هو روح الشباب؟ هل هي الصداقة، التي تدفعني للتعبير دون خجل من أخطائي اللغوية!؟

أطلعتني على بعض العطور الباريسية (تكتب اسم العطر على كرتونة صغيرة، وتضع رائحته) قلت لها: أنت من هواة جمع الروائح العطرة، مثلما صديقتك (سونيا) من هواة جمع أنواع الجبنة!

أجابتني بفخر: أنت لم تعرفي شيئاً عن أنواع الجبنة، لدينا (ثلاث مئة وخمس وستون نوعاً) على عدد أيام السنة!

سألتها سؤالاً بتّ أسمعه، يتردد هذه الأيام: أين ستقضين عطلة عيد الميلاد! قالت: سأقضيه عند عمي!

قرأت استغرابي على ملامحي، فأضافت: لا تعجبني طريقة والديّ في التفكير! سألتها مستفهمة: لكن الناحية العاطفية، أ ليس لها دور؟ قالت: هي مهمة، لكن الأهم أن أجد فرحي، وأن أعيش قناعاتي في مكان، يريحني!

هاجمتني رغبة خبيثة، جعلتني أريد أن أزحلقها، لتكشف أعماقها؛ لهذا قلت: امضي عطلتك حيث قلبك، ألا يوجد أحد؟! طبعاً أريد بحشريتي الشرقية أن أتعرّف على أسرارها! لاحظت تردّدها في الإجابة، سارعت إلى القول: أنت حرة في الإجابة أو عدمها! فغيّرت الموضوع!

قلت في نفسي: إنها لا تريد أن تعرض مشاعرها، وتتحدث بخصوصيتها إلى أي كان، إنها لم تتعرّف عليك إلا منذ أيام، وتريدينها أن تفتح لك أبواب قلبها! في بلدك قد تجدين من تفعل ذلك منذ اللقاء الأول بك، تنثر أمامك همومها العاطفية والاجتماعية دون أي تردد!

* *

سألتني (إستير) هل تعشيت؟ قلت: لا، ليس من عادتي العشاء، لكنني آكل السلطة مع عائلة (بونور) والفاكهة، حين أردت أن آكل موزة، ضيّفتها واحدة! قالت لي: أكلت! ثم أردفت: أحببت التمر! قلت لها، وأنا أخبّئ امتعاضي، إنه يدعى (دقلة نور) يأتي من تونس أو من الجزائر!

قلت في نفسي مستغربة: لم تتعرّف عليّ بعد! لكنها تعرّفت على فاكهتي، وأكلت منها دون استئذان! هذا أمر، لم يحصل من قبل عند عائلة (بونور)

* * *

الخميس 2007/11/22

تحدثنا على مائدة الفطور عن الإضراب! الذي يسبب معاناة للمواطنين، ويبدو أنه لن ينتهي سريعاً! أخبرتني المدام، كيف حلّت مشكلة المواصلات بالأمس، فقد عادت من عملها على درّاجة هوائية! تستأجرها (من مكان مخصص لها في الشارع) وتضعها، قرب بيتها! أما (مسيو بونور) فيستخدم (المتو رجل) إذ يحب المشي، لم أسمعه، يتحدث عن ركوب دراجة هوائية أو نارية (التي لم ألحظ وجودها في باريس)! أما أنا فبتّ أمشي مطمئنة في الشارع، بعد أن لاحظت، كيف تحمي الشرطة المتظاهرين! هؤلاء الذين لا يتوجهون إلى أشخاص، إذ لم أسمعهم، يرددون اسم رئيس الجمهورية في الشارع (ساركوزي) إنهم يخاطبون بمطالبهم نظاماً أو نقابة!

حدّثت المدام، وقد أرّقني، أن صديقتي (جين) ستمضي العطلة بعيداً عن والديها! فقالت: الأولاد، هنا، يتمتعون باستقلاليتهم!

أجبتها: عندنا، غالباً، ما تذوب شخصية الأولاد في الآباء، هنا، تستقل نهائياً! كلا الأمرين خطأ، نحن بحاجة إلى عاطفة الكبار، مثل حكمتهم أيضاً! أعتقد أن ترك الوالدين، حين يكبرون؛ ليعيشوا في سجن وحشتهم، أمر مفزع وغير إنساني! مهما كانت المبررات! لهذا يسمي الدين الإسلامي هذا الفعل إثماً كبيراً ويجعل (عقوق الوالدين) من الكبائر مثل الشرك بالله! وقد حثّ القرآن على برِهما بلغة تفيض رحمة!

* *

كم ساءني أن أرى المدام، تقذف في سلة المهملات مؤنة (رنيم) التي تتألف من قهوة ومعكرونة...الخ لم أقل شيئاً، لكنني أحسست أن

الاستهلاك يسري في دمهم، فهم لا يفكرون بالتبرع به للآخرين (العاملة المنزلية، البواب...) ربما يجدونها تافهة، لا تستحق التقديم!

كثيراً ما أحس أنني غريبة، طارئة على المكان بأفكاري وعاداتي! لا يحق لي أن أتدخل في تصرفات العائلة! وحتى لو حاولت التدخل فأنا لن أستفيد شيئاً، لن أستطيع تغيير عادات استهلاكية، نشؤوا عليها!

سرت، في طريق عودي من معهد العالم العربي، إلى جانب صديقي السين، أسبغ عليّ جماله أمناً، كأن له يداً سحرية، تهدهدني، لتطرد قلقي، كم بدا قلبه كبيراً، ينبض حنواً! فيغسل أدران نفسي! ويطهرّها من رجس الأوهام! انسابت نبضاته في شراييني؛ فبثّت، في تلك اللحظة، الطمأنينة في قلبي والبهجة في روحي!

كم أنا مدينة للسين في غربتي! يقف إلى جانبي؛ لأتجاوز لحظات ضعفي! ينقّيني جماله من ضباب مظلم، يخنقني! لا أحد غيره، يجرؤ على تحطيم قيود توتر، يهيمن عليّ، وينتزع سكينتي!

انتقلت كالمعتاد إلى (حديقة النباتات) تغلغلت في طريق أخضر، ملأ قلبي نداوة وسحراً! كم تظمأ روحي لهذه الخضرة في بلدي! هجمت عليّ ذاكرة متعبة بشوارع مغبرة وأشجار شاحبة، كأنها مرآة لوجوه مثلها!أعترف بأن هذه المقارنة كثيراً ما تغتال إحساسي بالجمال والتمتع به!

أشدّ نفسي إلى الواقع، فيدهشني فرح الأطفال، وهم يلعبون في الحديقة! إذ يتركهم أهلهم أحراراً، لا يستعبدهم الخوف! كنت، أحياناً، أتظاهر بتأمل الزهور والأشجار؛ لأتلصّص على الأهل، وهم يحاورون أطفالهم، رغم أنهم ما زالوا يجرّونهم في عربة صغيرة! حمدت ربي أنني لم أنجب أولاداً، يعانون القهر والتلوث في كل شيء!

* * *

الجمعة 2007/11/23

لم أستطع التخلص من التوتر والقلق، الذي يسببه الحضور الثقيل لـ(إستير)! بالأمس لاقتني أمام باب السينما بالقبلات، على غير عادة الفرنسيين، بدت مبالغتها في الحفاوة بي في غير محلها، حتى نحن (الشرقيين) لانفعل ذلك، خاصة أنني لم ألتقِها سوى مرة واحدة!

في الطريق إلى السينما، سألت (مسيو بونور) عن وطنها الأصلي، فقال: بولونيا! حدّثت نفسي، ولم أحدّثه(لا أدري لِمَ؟) أتت من مكان بعيد عن فلسطين، ومع ذلك تراها وطناً، تنسب نفسها إليه! في حين أبناؤها، الذين طُردوا منها، لا يحق لهم العودة! توترت أعصابي في تلك اللحظة! عذرتُ نفسي؛ لأنني لم أرتح إليها، كما ارتحت للتركية، التي أسمعتني أغنية فيروز "زهرة المدائن، يا قدس"!

حاولت أن أبذل جهدي؛ لأرسم ملامح اللطف على وجهي، حين أراها! قلت لنفسي وأنا أرى جسدها المترهل: إنها إنسانة مثلي، تتعب وتتألم، وينالها الزمن بتجاعيده وخيباته وأمراضه!

لاحظت أنها تحاول التقرّب مني، أسرّت إليّ بنصيحة (أن أسجل دورة للغة الفرنسي) فبيّنت لها أن لا وقت لدي (علي أن أعود إلى مراجع كثيرة عربية وفرنسية من أجل البحث)

اقترحت عليّ العائلة أن أذهب لحضور فيلم في أسبوع الأفلام الشرق أوسطية، ترددت للحظات، إذ لا أريد سماع العربية، كي أتفرّغ للفرنسية، لكن حين قيل لي: ستتابعين الترجمة بالفرنسي، قلت في نفسي: أذهب وأتعرّف على السينما لديهم، كما تعرّفت على المسرح، كان الفيلم بعنوان "الملتزمون" يتحدث (في جزئه الأول) عن تجربة قاسية يعيشها العمال الفلسطينيون، الذين يقيمون بما يشبه الكهف، حوالي خمسمئة عامل، في أسوأ ظرف إنساني، إنهم يصارعون البؤس؛ كي يستمروا بالحياة، لكن المؤلم أن الصراع على حساب

إنسانيتهم، أغرقني قهر مظلم، دفعني للتساؤل: إلى متى تستمر هذه المعاناة؟! إلى متى نرتدي ملابس حنظلة، ونعيش مثله مكتوفي الأيدي؟

لم يتحدث المخرج صراحة عن العدوان الإسرائيلي، الذي هو سبب هذه الآلام، لكنه أشار بطريقة غير مباشرة إلى إحدى ثماره القاتلة!

لا أدري لمَ بكيت كثيراً أثناء متابعة هذا الفيلم، ترى بسبب الغربة؟ أم بسبب إحساسي بالعجز أمام مشكلة إنسانية، عجز العالم عن إيجاد حلّ لها؟ قلت في نفسي: ها هو ذا حنظلة يلاحقني، ويحملني مسؤولية البحث عما يخفف آلامه، ويوقف عجزه!

فوجئت حين تصفحت (البروشور) أن المنظمين لم يشيروا إلى هذا الجزء من الفيلم، الذي يتحدث عن معاناة الفلسطينيين (لا أدري السبب: هل هو سياسي؟ لا يريدون تشويه صورة إسرائيل مثلاً؟ لا يريدون التركيز على قتامة الوضع الفلسطيني؟ ...) فقد ركّزوا الضوء على الجزء الثاني من الفيلم، الذي يتحدث عن محاولة أطفال (جنين) إنشاء مجلس برلماني خاص بهم؛ ليطرحوا، عبره، مشاكلهم، وإيجاد الحلول المناسبة، ساعدتهم في ذلك اليونيسيف ومنظمات إنسانية أخرى!

يلفت الفيلم النظر إلى أن الطفل الفلسطيني لا أحد يهتم به لا الأهل ولا المجتمع ولا الدولة، لهذا حمل هؤلاء الأطفال مسؤولية أنفسهم!

انتبهت إلى أنه رغم نبل الموضوع، تجنّب الفيلم التطرق إلى إسرائيل، إلا سريعاً، فالطفل البطل، يستشهد أبوه في أحداث الانتفاضة الأولى (توضّح الترجمة الفرنسية في البروشور بأن والده **قُتل** على يد مدنيين، لا يعرف المشاهد الغربي أنهم إسرائيليون، مع أن الطفل العربي استخدم في الفيلم، حين تحدث عن والده فعل **استشهد**!)

استطاع هذا الفيلم الفلسطيني أن يزيد علاقتي بـ(إستير) توتراً، عايشت آلام الفلسطينيين، وفقرهم، بسبب الاحتلال الصهيوني!

أحسست بازدياد الهوة بيني وبينها، مع أنني أدرك أن لا دور لها في السياسة والحروب، لكن المشكلة أن ثمة مشاعر، تتحكم بنا دون إرادتنا! كيف نستطيع تنقية أنفسنا من آلام عشناها صغاراً، وكبرت معنا! حتى باتت جزءاً من روحنا ومن مخيلتنا!؟ كيف يمكن للمرء الخلاص من تاريخ، كتبته الدماء؟ ألا تشوّه حروبه حياتنا! أ لا تدمّر علاقاتنا الإنسانية! فتمنع انفتاح الإنسان على أخيه الإنسان!؟ألا تفسح المجال للمخاوف؛ لتمسك بخناقنا، فتحتل عقولنا الأفكار المسبّقة!؟ ألا نجد أنفسنا مستباحين أمام مشاعر سلبية، تستسهل تشويه الآخر؟ ألا نشوّه ذواتنا، عندئذ، دون أن ندري؟

❊ ❊ ❊

السبت 2007/11/24

جلست (إستير) اليوم صباحاً على المائدة، فسألتها: هل تأكلين ما سأعدّه من اختراع (مسبحة مع القمح الكامل، أي فتة الحمص (تسقية حداثية) فأجابت: بكل سرور! طبّقت مثل أمي! ما يكفي ثلاثة يكفي أربعة!

كنت مضطربة قبل سؤالها، تتنازعني رغبتان: الأولى: ألّا أقدّم الطعام، أنا في بيئة حرة، تتفهم ذلك! والثانية: أن أقدّمه، فهي ضيفة، والضيف يُكرم! هذه هي عادة العرب!

لا أدري لِمَ أحسست بنظرات حنظلة، تسوطني! كأنه يقول لي: هل نسيت عذابات الفلسطينيين؟ لكن هل (إستير) مسؤولة عنها؟! انظر إليها تعيش في فرنسا! ترفض الإقامة في أرض مغتصبة! حاولت بتلك الفكرة أن أُخمد قلقي! وعدم إحساسي بالأمان في حضورها!

ملأني شعور بالفخر! فقد تغلّبت على مشاعري السلبية! وقدّمت لها الطعام، مثلها مثل أية ضيفة، لدى عائلة (بونور) إذ إن ضيوفهم ضيوفي!

* *

كم كان والدا (فلورا) سعيدين! حين اصطحباني عصراً إلى أمسية ثقافية، سيتم فيها إلقاء شعر ابنتهما بصوت إحدى صديقاتها! وبهذه المناسبة دعانا (مسيو بونور) لشرب الشاي في مقهى، ثم طلب لنا الزهورات، فوجئت برفضه تقاسم الفاتورة، إنه يحتفي بابنته بطريقته الخاصة!

كانت الأمسية في مكتبة تبيع الكتب، ربما أقل مساحة من مكتبة النوري بدمشق، رافقها معرض للرسم، لعل بساطة المكان جعل الجلسة حميمة، تعرّفت فيها على الأديبة المسرحية (نينا) التي تعشق العربية، عرضت عليّ فكرة التبادل اللغوي، لم أمانع لشدة لطفها، قلت في نفسي: بما أنني أختار ما يناسبني من وقت، فإن ذلك لن يؤثر على عملي في البحث!

إلى جانب الندوة الشعرية، كان هناك محاضرة عن الحضارة (سورية) جعلتني أشعر بالفخر: إنني ابنة حضارة عريقة، تثير الإعجاب! عايشت صورة جديدة عن بلدي، لا أدري إن كانت موجودة لدى معظم الفرنسيين! إنهم يحبّونه بعيداً عن المعنى الغرائبي المدهش، الذي يمت بصلة إلى عالم ألف ليلة وليلة، أحسست أن ثمة انفتاحاً إنسانياً، يسعى إلى فهم الآخر والتفاعل معه، بعد أن أدهشته حضارته!

كم يحبون الشرق! يبدو المثقف الفرنسي يعيش انفتاحاً رائعاً على الحضارة، التي تُعلي شأن الإنسان، وترفض قهر الأقوياء للضعفاء

واستباحتهم! تساءلت بيني وبين نفسي: ألا يشبه هذا المثقف نهر السين، الذي يتسع قلبه للجميع؟

كان إيقاع الشعر، في طريق عودتي، يرنّ في قلبي! فقد عشت مع (فلورا) معاناة الفلسطيني في (مخيم اليرموك) كما عشتها بالأمس في أحداث الفيلم، آه من حنظلة، إنه يصرّ على ملاحقتي أينما ذهبت؟

❊ ❊ ❊

الأحد 2007/11/25

رحلت عائلة (بونور) إلى بيتها الريفي، سأبقى وحدي اليوم مع (إستير) دعوت الله في غرفتي أثناء صلاتي، أن يساعدني؛ كي أعلو على الصغائر! وأحلّق بعيداً عن التوتر! إنها كغيرها من البشر، اضطرابي مبالغ فيه! ولا معنى له!

لاحظت نفسي، التي تكره الوحدة، خاصة أثناء تناول الطعام! أنها اتخذت قراراً بعدم الاحتكاك بها؛ لهذا قلت: أتناول الفطور مبكراً، وهي نائمة! ولكن ما إن فتحت بابي، حتى فُتح بابها، انتفضت مذعورة، وأنا أسمع تحية الصباح ***(bonjour)*** رددت عليها، وقلت في نفسي: لعلها اكتشفت مخططي الخبيث، ألغيت مشروع الفطور، شربت كأس ماء، تذكرت أمي، وهي تعطينا طاسة الرعبة؛ لنشرب منها، ونتخلص من خوفنا!

عدت إلى القراءة، لكن الجوع نهشني بنابه! بعد ساعة، قررت الإفطار، ما إن دخلت المطبخ، حتى تسللت ورائي! سألتها وأنا أحضَر القمح: هل تأكلين؟ أجابت بكل سرور، قاسمتها فطوري، هذا ما تعلمته في بيتنا! عيب ألّا نطعم من يرى طعامنا! قدّمت لها صحناً من القمح المزين بالزبيب والتمر واللوز! وأخذت صحني إلى غرفتي، وحين

انتهيت، بدأت بجلي صحني، سألتني: هل تفطرين معي؟ مع أنها شاهدتني وأنا أدخل غرفتي حاملة فطوري، ولم تقترح عليّ ذلك!

لا أدري لِمَ سطا على مخيلتي مشهد من رواية غسان كنفاني "ماتبقى لكم" لم يستطع فيه الفلسطيني (حامد)الحوار مع الجندي الصهيوني في الصحراء؛ لأنهما، لا يملكان لغة مشتركة فعلياً ومجازياً! لكن (إستير) في باريس، وليست صهيونية، ولا تحمل سلاحاً، قلت: رغم ذلك لم أستطع الحوار معها! ثمة حاجز نفسي، يمنعني من التواصل! لا أستطيع أن أتهم لغتي الفرنسية! فأنا أحاور عائلة (بونور) وتفهم عليّ، إذ لا أعدم طريقة لإيصالي أفكاري ومشاعري، حتى إنني أهيئ الموضوع، أحياناً، مع بعض الجمل والمفردات اللازمة له! قبل جلوسي على مائدة الحوار، عفواً مائدة الطعام!

لعل أحد أسباب نفوري تجاهلها بالأمس لسؤالي عن انطباعها بعد رؤية الفيلم، الذي يتحدث عن معاناة الفلسطينيين! مع أنها سألتني، فأبلغتها مشاعري الحزينة لما يحصل لهم تحت قهر الاحتلال الصهيوني! قلت لها: انظري إلى فظاعة بؤس الفلسطيني، إنه يسهم بناء جدار عنصري، يمزّق أرضه وحياته، بل نجده يبني مستوطنات عدوّه!

قلت أعزّي نفسي: ما فائدة حوار أجريه معها، وقد سكنت أرضاً، لم تولد فيها، لا هي ولا أجدادها! إنها امرأة غربية في كل شيء!؟

لم أستطع هضم حضورها المدجج بالهم والتوتر! خاصة بعد أن لاحظت افتقادها حس المشاركة في الأمور المادية، من يفتقد ذلك الحس، هل يستطيع المشاركة في الأمور الإنسانية!؟

لم أرتح لتصرفاتها، قارنتها بـ(رنيم) التركية، التي هي في عمر ابنتها، كيف كانت، أثناء إقامتها، تشتري مؤنتها! ولم أجدها تمدّ يدها إلى شيء، لم تُدعَ إليه!

ليس من طبيعتي أن أحب شخصاً أنانياً! فقد احتفظت بسماعة الهاتف (اللاسلكي) في غرفتها، سمعت رنينه، بحثت عنه، ولم أجده! استنتجت أنه في غرفتها! سألتها عن ذلك، فنفت! مع أن صوت رنينه،

يؤكد ذلك! بعد قليل، جاءتني رسالة من أم صديقتي (داليدا) على جوالي، تسألني لِمَ لم أرد؟، كم أزعجني أن أحرم من التواصل عبر الهاتف، وأنا بأمس الحاجة إليه في غربتي!

* * *

2007/11/26

لم أستطع إلا أن أدعو ربي، للمرة الثانية، أن ينجّيني من التوتر، وأن ينقّي قلبي من الصغائر! فلا تستعبدني مشاعر سلبية، كم أنا بحاجة للعيش بعيداً عن أسر أفكار مسبّقة، وأوهام منغّصة! تبث سمومها في روحي! فتعكّر مزاجي، وتسوّد إقامتي في باريس!

أعاني من عقلي النقدي، الذي، دون وعي مني، يقارن بين (مدام بونور) حيث روعة العطاء والحساسية، وبين (إستير) التي لا تفكر إلا بالأخذ!

مشكلتي أنني لا أستطيع أن أعيش متحررة من الماضي، إذ ما زال حياً في وجداني، لم أفلح في طرده؛ لأرتاح منه! ولكن يا بنتي لِمَ تنبشين نكباتنا من قبرها! أ لسنا مسؤولين عنها؟ كفّي عن رؤية الآخر بصفته متآمراً! نحن من يتآمر على أنفسنا، حين لا نتحمل مسؤوليتنا، ونلقها على كاهل غيرنا!

ولكنني أتساءل: هل يمكن لهذه النكبات أن تمضي دون أن تترك ضحايا؟ انظري إلى النكبة الفلسطينية، أبناؤها ما زالوا يعانون عقابيلها إلى اليوم!

أعترف بأنني لم أستطع التعامل مع (إستير) بمعزل عن معاناتي التاريخية! وربما جاءت تصرفاتها؛ لتضاعف نفوري منها! ومع ذلك، خبّأت مشاعري في قلبي! وتصرّفت كالأمس، كما علّمتني أمي، قدّمت لها اليوم الطعام (القمح بالزيت والزعتر)

نادتني، بعد ذلك، لأرى من نافذة المطبخ سماء جميلة، وقد توشّحت بشال زهري اللون؛ يشرق بهجة في القلب، حلّقت روحي في سماء سحرية، عندئذ غمرتني السكينة، وعدت إلى غرفتي أكثر هدوءاً! بعد قليل استنجدت بي، لأصلح لها سحاب قبعة معطفها! بذلت جهدي، ولم أفلح! قبل أن تغادر البيت، أرسلت لي قبلة هوائية!

عاد شيطاني؛ ليخرب ما بنيته صباحاً، فوسوس لي: إنها تتظاهر بالطيبة!

قلت لنفسي: كفّي عن الظنون والأوهام! أنت في وحدتك تبالغين فيها! إنها كغيرها من البشر! لكن نفسي المضطرمة أجابتني: لكن فيها شيء غير مريح! من يتصرف بأنانية، تهرب الطيبة منه! لاحظت أنها معتادة على حياة الأخذ، دون التفكير بالعطاء! ولكن انظري يا ابنتي حولك أكثر الناس يفكرون مثلها! لهذا قلت: مادامت هذه صفاتها! لا تهمني صداقتها!

❊ ❊ ❊

2007/11/27

بدأت اليوم ألاحظ أن (إستير) تبذل جهداً؛ لتكون لطيفة مع الجميع، لكنني لم أتخلص من وسواس، يهمس في قلبي: إنها تفتعل ذلك، لاحظت أنها تترك أوساخها (كأس الشاي المليء بالتفل) لينظّفه لها (مسيو بونور) وهو الرجل السبعيني!

يبدو أن ينابيع اللطف داخلية، لا علاقة لها بحركات تحببية! أعتقد أن الرقة ابنة رهافة الحس والشعور بالآخرين، وهي رفيقة الإحساس بالمسؤولية تجاه راحتهم!

لاحظت أنها لا تحس بالآخر، تفرض عليه خدمتها في أتفه الأمور، حتى لو لم يكن مقتنعاً، يذعن لها؛ ليتخلص من إلحاحها، مثلما يتخلص من إلحاح طفل مدلل!

لسوء الحظ، قبل سفرها، لم يكن في البيت أحد غيري! طلبت مني النزول معها إلى باب العمارة؛ كي أنتظر معها التكسي، التي تقلّها إلى المطار، وإذا تأخرت أتصل من جوالي بالسائق!

لم أكن راغبة بالنزول، قلت لها: لن أستطيع النزول بالبيجامة، علي أن أرتدي ملابس مناسبة! لكنها لم تقتنع وألحت: فقلت لها: هناك (أنترفون) أسفل العمارة، تستطيعين الاتصال بي! عندئذ أتصل بالسائق! وإذا كان ثمة ضرورة أنزل! قلت في نفسي: يبدو أن جوالها لا يعمل، أو أنها لا تريد أن تخسر بضع سنتات!

كان عليّ أن أُسكت إلحاحها المتسلط، فنزلت معها إلى أسفل العمارة، وأنا غير مقتنعة! لأشاركها انتظار فرج التكسي، عندئذٍ أنهي مهمتي بسلام! بمثل هذا التصرّف ودّعتني، فحرّضت في داخلي مشاعر سلبية، خاصة حين جعلت خدمتها إلزاماً وليس خياراً!

كان فراقها عيداً! ليس بسبب جنسيتها فقط! بل لأني افتقدت لديها روح الطيبة، التي تزرع الود بين البشر أياً كانوا! أحسست أن هذا كله بعيد عن طبيعة (إستير) يكفي أنها لم تسهم بالمصروف، طيلة إقامتها، بصراحة أنانيتها أبعدتها عن قلبي! بعد أن حاولت التخلّص من ميراث سوء التفاهم التاريخي!

لكن هل فعلت هذا حقاً! أعترف بأنني فشلت! عليّ، هنا، ألا أُلقي بهذه المسؤولية على غيري! إذ كان بإمكاني الإصرار على قرع باب الحوار! كان عليّ أن أتجرأ وأقذف بأوهامي من النافذة، حين غادرتنا (يوم الأحد) عائلة (بونور)! لكنني استسلمت لحصار أفكار مسبّقة! آثرت العزلة عنها! فأنعشت سوء التفاهم بيننا، رغم أننا في بيت واحد، ولن يكون بيننا لقاء آخر، وهكذا أضعت فرصة تاريخية للحوار، أتاحها لي الزمن مرة واحدة فقط!

لست مسؤولة وحدي عن هذا الفشل! المهم، هنا، أنني بلقاء الآخر، اكتشف ذاتي، وحاسبتها على التقصير! واستسلامها لوهم، يلوذ به المقهور والضعيف عادة! ولكن هل يكفي طرف واحد أن يحاسب ذاته؟! ترى هل يقوى إنسان يقتات الأنانية على تلك المحاسبة؟!

لاحظت أن الانفتاح والحوار يحتاجان إلى طرفين، يقتنعان بأهميته، ويحترمان آراء بعضهما بعضاً، فينظر كل واحد منهما للآخر بندية! وبذلك يمتلكان سعة أفق إنساني، يحس فيه كل طرف بمعاناة الآخر، ويتعاطف مع حقه في حياة كريمة!

كم نحتاج إلى الحوار؛ لنفهم ذاتنا والآخر! لنطلق أنفسنا من إسار أفكار مسبّقة، تتعبنا، وتشدّ أعصابنا، فتمعن في تشوّيه علاقتنا مع أنفسنا ومع غيرنا!

***

2007/11/28

حدثني اليوم (مسيو بونور) عن (إستير) فبيّن لي أنها تعيش في مدينة (تولوز) وقد تركت الأرض المحتلة منذ *(1967)* بل سمعها، في أحد الأيام، تقول: يجب أن نقذف إسرائيل إلى صحراء نيفادا!!

هدأ قلقي، إنني لم أعش مع إنسانة، ترضى باغتصاب أرض الآخرين! لكن لِمَ كانت تتهرب من الحوار؟ سؤال ما زال يؤرّقني، ويحفر غيظاً في داخلي! خاصة بعد أن صمتت، ولم تجبني عن سؤالي بعد مشاهدة الفيلم!(ما رأيك بمعاناة الفلسطينيين إثر الاحتلال؟) ربما استفزّها سؤالي: من المسؤول؟ صمتها، دفعني لرسم صورة شيطانية لها في مخيلتي!

إن عدم احترامها لسؤالي، أو بالأحرى تجاهلها! أصاب كبريائي في الصميم! ما أشقّ الإهمال على النفس، حين يصدر عمّن نحب! فما بالكم حين يصدر عمّن لم تصفُ نفوسنا تجاهه!

كنت أضغط على نفسي؛ كي أجيب عن أسئلتها، فأتى صمتها عن أسئلتي؛ ليهدّم جسور التفاهم بيننا! كم يؤجّج التجاهل نار التوتر والغيظ في قلوبنا؟

أنبّت نفسي لتسرعي في الحكم عليها، واستسلامي لسوء الظن! فرددّت الآية الكريمة "إن بعض الظن إثم".

بسبب صمتها هيمن عليّ القلق والتوتر، كنت أسجن نفسي في غرفتي؛ كي لا ألتقيها! ثم أكتشف حين رحلت، أني وضعتها في إطار مسبق الصنع في مخيلتي، لم أزحزحها منه، إلا بعد فوات فرصة الحوار!

كم نسمح لخيالنا المحاصر بالحروب والهزائم في تشويه الآخر، خاصة حين نفتقد أي تواصل معه! لذلك لمت نفسي، قدر ما لمت صمت (إستير)! تمنيت لو أن عائلة (بونور) أسهبت في الحديث عنها! لم أسمع منها سوى جملة عامة (إنها غير صهيونية) لكن لا تنسي أنها تحترم خصوصية الإنسان! وحضرة جنابك لم تسألي عن تفاصيل حياتها! أنتِ المسؤولة عن سوء التفاهم هذا!

كم تستنزف الأوهام أعمارنا! وتستهلك أعصابنا! فتتمادى في تنغيص حياتنا! حتى إنها تفقدنا الثقة بأنفسنا وبغيرنا! كم أشفقت على نفسي! طيلة أسبوع، وأنا أحارب مشاعر سلبية؛ كي أدفنها في داخلي! لأن (إستير) تسكن أرضاً، ليست من حقها؛ لأفاجأ بأنها تركتها نهائياً! لكن المشكلة أنهم عرّفوها لي بجنسيتها الإسرائيلية، لم يعرّفوها بالجنسية الجديدة (الفرنسية) أو الأصلية (بولندية)

تساءلت: ألسنا ضحايا خيالات، ينسجها تاريخ، أثقلته الحروب بظلمتها! وأورثتنا القهر والتوتر والكراهية! أ لم يدفعنا ذلك إلى سجن ذواتنا في جدران الخوف من الآخر؟ ألم نضعه في إطار صورة نمطية،

تعذّبنا، وتدمّر علاقتنا الإنسانية به!؟ كم نفسد حياتنا بأيدينا! حين نستسلم لأوهامنا، ونركن إلى العيش في ظلالها!

* *

كتبت إلى أختي صفاء

شعرت اليوم بطعم الحرية وأنا أودع ضيفة ثقيلة الظل، رغم ما أبدته من لطف! أحسسته مصطنعاً، ردّدت: القلوب دروب! كما تقول أمي!

تخيلي يا صفاء عندنا يتقاعد الإنسان ليموت لا ليعيش، هنا التقاعد بداية لحياة، كما يشتهيها: تساءلت وأنا أرى (مسيو بونور) يذهب؛ ليتابع صباحاً محاضرات في الجامعة للمتقاعدين، ومساء دروس اليابانية: بمَ يختلفون عنا؟ هل يملكون العقل، ونحن نملك العاطفة، كما يقال عادة؟ هل حياة الوفرة هي السبب؟ هل الجمال الذي ينعش الروح هو السبب؟ هل...

هنا الجمال ملك للجميع مجاناً! لا أدري لماذا تذكرت صديقي (أبو الوليد: الناقد يوسف اليوسف) وقلت في نفسي: كيف يستطيع ممارسة رياضة المشي في ذلك المخيم الفلسطيني المحشور بالبشر والسيارات والصخب؟ هنا الحدائق قريبة من البيوت، بالإضافة إلى ضفاف السين، فالإنسان، هنا، يسير دون أن يصطدم بإنسان آخر، أو يسمع صراخاً، حتى أطفالهم لم أسمع بكاءهم في الشارع، كأنهم يعيشون فرح الحياة فقط!

* * *

2007/11/29

يدهشني كلما تنزهت في الطبيعية (في الحدائق العامة) عناية الإنسان بها، كم يمتّعني جمال الأشجار والطيور والزهر، وقد امتزج ببراءة الأطفال، إنهم يضفون عليها حيوية وبهجة! فتنطلق روحي معانقة بهجة، لا تنسى!

أفزعني اليوم وقوع طفل في الحديقة، لكنني لاحظت أمه، تصرفت بهدوء، لم تركض لاعنة صاخبة، كالأم العربية، لم تهتمّ بأن تقيل عثرته، وتُعديه بتوترها وخوفها! بل تركته يعتمد على نفسه في الوقوف ثانية! تصرفت، وكأن شيئا لم يكن!

كم أفرحني مشهد الأطفال، وهم يلعبون مع الحمام! أحسست أن كليهما يطير، الأول يطير بضحكته والآخر بجناحه! غمر الحبور روحي! فطارت إلى طفولة، حُرمت منها! هأنذي أمسك بلحظات فرح، ضاعت مني! فقد حمّلني أبي مسؤولية إخوتي الصغار، وأنا في التاسعة من عمري، فكان شرطه لذهابي إلى العيد (سوق الحميدية، الأراجيح...) مع صديقتي: أن أصطحب إخوتي الصغار معي! فنغّص حس المسؤولية طفولتي!

لاحظت، هنا، أن الأم، تُخرج طفلها، رغم هطول المطر، إلى الحديقة! إنهم لكثرة أيامهم الممطرة، يتعاملون معها بشكل طبيعي! أما نحن فنعيش بهطوله حالة طوارئ، حيث يستنفر الجميع بين جدران البيت خائفين البلل والوحل...الخ

يبدو لي المشي في باريس، تحت المطر، متعة لا نعرفها! هنا نأمن شر الوحل والبرك الصغيرة، حيث تتجمع فيها مياه الأمطار!

بفضل هذا المطر اغتسلت روحي، وتجددت، لكن صراخاً، ملأ الشارع (بسبب المظاهرة)أقلق متعتي! أسرعت الخطى باتجاه صديقي السين، ألتمس الهدوء من نبض قلبه الواسع البهي! وهمسه الحنون!

حدّثتني مساء اليوم المدام عن بعض عاداتهم، التي بدأت بالانقراض! فبيّنت لي أن المرأة ليست ملزمة بمصافحة الرجل! فهي إن

مدّت يدها صافحها وإلا فلا! وبيّنت لي، كيف كانوا يقدّمون الصغير إلى الكبير! اليوم لا يهتمون بذلك! كما حدّثتني، للمرة الأولى، عن إزعاج زميلها في العمل، إذ يتعمّد تقديمها للآخرين بطريقة غير لائقة، فيستخدم اسم إشارة *(ça)* الذي يستخدم للدلالة على الأشياء لا للبشر، قائلاً: (هذه مديرة القسم!)وتابعت: فأصحّح له لغته! فقلت: كما تصححين لي! فابتسمت! قلت بيني وبين نفسي: لديهم العقلية الذكورية، التي نعاني منها في الشرق! إنه يرفض لا شعورياً أن تكون رئيسته في العمل امرأة!

كنت أتحين فرصة لأحدّثها عن (إستير) وما فعلته من أمور! أزعجتني، لكنني ما إن بدأت، حتى قالت: اتركينا منها! إنها لا تحب الثرثرة! مع أنني كنت مشتعلة غيظاً! تضطرم في داخلي رغبة في الشكوى والنقد! كأنني، هنا، أريد أن أمارس ما اعتدته في دمشق، إذ أحدّث أختي (صفاء) بكل ما يؤرقني! كي أطرد ضيقي!

أحسست بأنها وضعت حاجزاً، يمنعني الحديث! لعلها أرادت أن تخبرني بطريقة مهذبة: أنه لا يحق لي تناول صديقتها! كأنني حين أنتقد ضيفتها (إستير)ألومها على استقبالها! لاحظت نفسي كيف أنني كنت مندفعة في الحديث على غير عادتي، إذ لم أحدّثها عن (رنيم، ولا كاترين) قلت: أ لم يكفك الكتابة! اضبطي نفسك، اصمتي، لا تزعجيها! إنه بيتها، وهي حرة، تستقبل به من تشاء!

❊ ❊ ❊

2007 /11/30

ثمة لحظات أفقد فيها حريتي، خاصة حين أكون في الحمام، وأسمع صوت (مسيو بونور) خارج الأوقات المحددة (أوقات الطعام) يناديني:

(مجيدة) فأحس أن ثمة إثماً قد ارتكبته! أسرع في الخروج، وتتلّبسني حالة من القلق، والرغبة في اكتشاف مجهول ما! فأدعو الله في سري ألا يكون ذنباً ما! فأكتشف أنه يريد أن يسألني عن جريدة الأمس، فأجيبه: أعطيتها للمدام!

أتساءل: لِمَ هذه الشدة والقلق؟ هل السبب في أنني لا أستطيع الخروج، كما في بيتي، دون حجاب (قبعة قطنية، أضعها بسرعة على رأسي)؟

لا أدري لِمَ لم أستطع اعتياد ندائه (مجيدة) مع أنه مرّ شهران تقريباً على إقامتي! لعل السبب أيضاً في أن نداءه الأول كان قد اقترن بخبر سيء، إذ طلب مني الحديث على الهاتف؛ لتخبرني أختي (صفاء) أن أمي دخلت المشفى!

إنني حساسة أكثر من اللازم، وهذا مصدر تعبي، أجيد تكبير أوهامي المقلقة! هل السبب يكمن في مخيلتي؟ ألا يعني ذلك أنني أستسلم إلى ما يفلح في بث الاضطراب في أعماقي، ويسلّمني تارة لعبث القلق، وتارة لكهف الخوف؟

كتبت إلى صفاء "في طريق عودتي مساء من المكتبة شاهدت رجلاً فُكّ شريط حذائه، وهو يحمل رغيفه عصا خبزه (الباكة) أ تعرفين ماذا فعل؟ مثل أي بدوي والله، وضع رغيفه على الأرض، وبدأ بربط حذائه! فتساءلت هل أنا في باريس أم في ..؟

كلما جاءت نائلة (العاملة المنزلية) حمدت ربي أنني أتممت تعليمي، إذ ربما كان ينتظرني المصير نفسه! أشعر بالخجل منها، حين تنظف الحمام، طبعاً حين تعرض عليّ تنظيف غرفتي، أقول لها: إنها نظيفة، أقوم بتنظيفها بنفسي بسهولة، بما أنني لا أوسخها! ليتك ترين معاملة المدام الراقية لها! تقوم بإعداد القهوة لها، وتمزح معها!

وتنادي (نائلة) المدام بـ(جان دارك) هكذا كأنها صديقتها! في حين ما زلت، أنا، أناديها بـ(مدام)!

* * *

السبت 2007/12/1

حين عدت مساء من السوق، كانت عائلة (بونور) قد رحلت لقضاء عطلتها الأسبوعية ***weekend***، اضطربت لسماع قرع خطوات! هدّأت نفسي! إنها خطوات الجيران! لكنها بدت لي أكثر قرباً! مما أسمعه عادة! بدأ خيالي يشتعل، ليرسل لي رسائل رعب! ثمة أحد يختبئ في المنزل! مُلئت رعباً! باتت أوهامي تسرح وتمرح! إنها تهويمات الخوف من المجهول! ما زالت تعشش في داخلي! حتى إنني سمحت للوهم بالتمادي في أعماقي، فنبتت له أقدام تنتقل في مخيلتي، بل تتجرأ على أن تدوس قلبي، فتتناثر نبضاته فزعاً!

لم أستطع الإفلات من خوفي! كم أنا ضعيفة! حين أبقى في صحبة الوحدة! يهاجمني صوت الصمت، فيشدّ وثاقي؛ ليرحل بي مشلولة عبر ظلمات كهف موحل! تأملت غرابة النفس البشرية: تعشق لغة الصمت في حضور الآخرين! لكنها سرعان ما تخافها في غيابهم! تصبح جحيماً لا يطاق! غريب الإنسان، إنه يعيش تناقضات لا نهاية لها، يشتاق الهدوء في حضور صخب البشر، ويرتعب منه، حين يغيب أنسهم!

أعترف بأنني توهمت التأقلم مع الوحدة! أحسست وصوت خطى، يقرع وجداني! أنني بين أنياب غول، يلتهم سكينتي، ويلقي بي في ظلمة الخوف! لتضطرم نيران التوتر في أعماقي! كم تشتدّ حاجتي إلى الناس يومي العطلة، لكنني ألاحظ، هنا، الكل مشغول بمتعه، لم أجد أحداً، هنا، يسألني: كيف ستمضين هذين اليومين؟! كما أنني لم أعتد فرض

نفسي على الآخرين، أو أستجدي اهتمام إنسانة تعرّفت عليها بالأمس، مع أنها من بلدي؛ لأنها لو كانت تستطيع مرافقتي في نزهة، لن تكلّفها أيّ عبء مادي، لاقترحت عليّ!

الجمال حولي، لكن الوحدة، أحياناً، تنغصه، سمعت صوت أمي يهمس لي: "الجنة بلا ناس ما بتنداس"

يبدو أن العلاقة الحميمة، لن نستطيع بناءها في غربة سريعة، إنها بحاجة إلى الرعاية كشجرة، تمدّ عروقها في التراب شيئاً فشيئاً مع مرور الأيام، أحس، أحياناً، أنني، أعيش مقتلعة، تقذفني الرياح بين السماء والأرض! فلا أستطيع التحليق، ولا التشبث في الأرض!

بذلت جهداً خلال هذين الشهرين لأمدّ جذوراً لي، هنا، لكنني لم أفلح! يبدو أن التغلغل في التربة، يحتاج إلى تاريخ طويل من المشاركة الشعورية، وتقاسم لحظات الألم ولحظات الفرح!

معظم الناس، الذين تعرّفت عليهم، هنا، كان لقائي بهم سريعاً!

كتبت إلى صفاء "عليّ اليوم أن أواجه الوحدة، سأستعمل كل الأسلحة ضدها! قرأت مقالاً في (اللموند) خرجت إلى الشارع، تجولت في الحديقة قرب بيتي، ثم مشيت إلى جانب صديقي (السين) بعد ذلك ذهبت للتسوق من السوبر ماركت، اشتريت حاجيات، يمكن تأجيلها، أجرب وصفة التسوق لطرد الوحشة، مع أنني كنت أرفضها، وأرى فيها خدعة استهلاكية! لكن حين وجدت نفسي عاجزة عن فعل أي شيء، يتيح لي التواصل مع الآخرين، كبست على أنفي بصلة (كما تقول أمي) ولجأت إلى تلك الوصفة!

كنت، في طريق العودة إلى بيتي أفكر كيف يعيش الناس هنا، من أجل ذواتهم، خاصة أيام العطل، يشرّعون أبواب قلوبهم للمتعة؛ كي يستطيعوا متابعة عمل مخلص خلال بقية أيام الأسبوع!

لا يحق لي أن أعتب على أحد، هنا! فالأنانية قانون عام، لا أحد يفكر بغريبة، تخنقها الوحشة، أفلحت في مواجهة ذاتي! أقنعتها بأنني

مسؤولة عن إنقاذ روحي من مخالب الغربة! هيا ابحثي عما ينير لك ظلمة، تحاصرك!

كم أنا مدينة للكتابة، التي تمنحني الأنس، إنها رفيقتي، التي تنقذني من صمت موحش! إنها الصدر الحنون، الذي يهبني ملاذاً آمناً، بها ألملم شعث روحي، بفضلها أتأمل قوتي وضعفي في عالمي الجديد هذا! فتتوازن بصيرتي، عندئذ أرى ما يمتّعني لا ما يقهرني!

كتبتُ إلى (صفاء) "نظرتُ اليوم إلى فرح الناس بالعطلة وضحكاتهم، قلت: إنهم يعرفون كيف يستمتعون بالحياة ليسوا مثلنا، نبحث عن الهم؛ لنحتفي به، ونرتشفه قطرةً إثر قطرة! إذا كان بعض الناس من هواة جمع التحف، فنحن من هواة جمع الأحزان!إنها كنزنا، الذي نخبئه، ونرعاه، كي يكبر مع الأيام!

أحاول أن أتعلم، هنا، ليست اللغة فقط، وإنما كيف يستمتعون بالحياة! كيف يأكلون، ويمشون ساعات طويلة، ليعودوا، ويفعلوا، ما يشتهون! إنهم يقدسون أيام العطل، ويجعلونها عيدهم الأسبوعي! الذي يستحقونه فعلاً!

كل شيء مهيأ، هنا، لراحة الإنسان أيام العطل! لكن أوقات العمل لا تهاون فيها! ليتك رأيت وجوههم، بالأمس، وهم عائدون من العمل، أحزنني تعبهم قدر ما يحزنني كسلنا! قلقت على أحدهم، وقد نام في المترو من شدة الإرهاق، قلت بيني وبين نفسي، ربما فاتته المحطة!

* * *

الأحد 2007/12/2

استيقظت على أشواك الوحدة! كم هي مؤلمة! لكنني لن أستسلم لها! أنا في أجمل مدن العالم! عليّ أن أتعرّف على معالمها أكثر وأكثر!

لكن كيف أستمتع وحدي! هذا ما لم أعتده في بلدي! هل ثمة خيار آخر أمامي؟ إما العيش في كهف الوحدة المرعب! وإما مرافقة الجمال الباريسي! هل أنا مجنونة لأسلّم قيادي للوحدة؟

دخلت كنيسة نوتردام، التي أراها يومياً تقريباً، وأنا بصحبة صديقي السين! بدت لي مختلفة عن تلك الكنائس، التي زرتها سابقاً، ليس في فخامتها فحسب، بل في أنوارها أيضاً! لكن كثرة التجسيد، والتماثيل، التي تستقبلك من بابها إلى محرابها، أغلقت أبواب قلبي! فلم أشعر بروحي تنطلق عبر أمدائها!

كان زوار الكنيسة، (يتناولون)! قررت أن أخوض هذه التجربة، هنا، بعد أن خضتها في مراهقتي برفقة صديقتي (ماري) في كنيسة قرب مدرستي في باب توما! لكن حين اقتربت وجدتهم قد انتهوا!

هطل المطر، إثر خروجي من الكنيسة، مدراراً، لأول مرة تخلى عن أناقته ورزانته! وبدا عنيفاً صاخباً! اضطررت لفتح مظلتي الجديدة، وحين أردت إغلاقها، عاندتني، فضغطت عليها بقوة، فجرح حديدها إبهامي، حتى ملأ الدم كفي! تمنيت لو أجد ماء لأغسل يدي! لم يأبه صديقي لجرحي، رغم أنه كان يتدفق سخياً! أحسست بقسوة الغربة! قلت: كل هذا الماء، ولا أجد قطرة أستخدمها! تذكرت أن الماء (سبيل) مبذول في الطرقات في بلدي!

لم أبالِ لجرحي، إذ توقف النزف بعد قليل! تابعت برنامج جولتي! لأتوقف عند (البانثيون) مقبرة العظماء في فرنسا! كم بدا مهيباً في تصميمه، يحتار الزائر إلامَ ينظر(القبب، اللوحات الجدارية، التي تغطي أرجاءه وأسقفه...) ما لفت نظري الساعة الأرضية الفخمة، كأنها تريد تذكير الزائر، بأن العظمة في هذه الحياة، لن تكون من نصيبه، إلا إذا ضبط خطواته وأعماله على إيقاع الدقائق والثواني!

حين هبطت إلى القبو حيث قبور المشاهير، بدا لي (البانثيون) أشبه بموسوعة حية، لم أشعر أنني في مقبرة، تغمّ النفس، وإنما في متحف غير عادي، يتيح لي جولة، أتعرّف فيها على عظماء فرنسا!

لم يستوقفني سوى قبر (ماري كوري) تأملت سيرة كفاحها، فقدت رفيق حياتها (بيير كوري) استمرت بعده في البحث العلمي ثمان وعشرين سنة، فأخلصت له، وجعلته رفيق حياتها، لم تستسلم للوحدة أو للضعف! كم نحتاج أمثالها اليوم!

تساءلت ما السبب الذي جعلني أتسمّر أمام قبرها؟ هل هي النزعة النسوية، التي تختبئ في أعماقي؟ هل هو الهروب من بعض العظماء التاريخيين، الذين احتلوا الشرق؟ كأنني أحسست في تلك اللحظة أن العظمة لن تكون إلا بعلم، يفيد البشرية، لا في احتلال أرض الآخرين واستغلالها، وتمزيق أوطان الضعفاء!

* * *

الثلاثاء 2007/12/4

تلقيت بالأمس دعوة على العشاء عند (د. كامل) مع أنني لاحظت لهجته الرسمية وعدم ترحيبه بي حين التقيته في إحدى الندوات، التي أقامها (الإينالكو) رددت السبب، وقتذاك ،إلى أنني لم أُصغِ إلى نصيحته بنزع حجابي! هذا ما أحسسته، وربما أكون مخطئة، إذ للغريب تهيؤاته وأوهامه! كثيراً ما تدفعه إلى المبالغة عزلته وحاجته إلى اهتمام الآخرين! الذين يبدون له منشغلين بهمومهم الخاصة، فلا يحتفون به، أو يسألون عنه! عندئذ يستسلم لتلك الأوهام، التي تعيث فساداً في أعماقه! فيتخبّط في مستنقع غيظه، يملؤه غضب، لا داعي له سوى إحساس بنقص الدفء العائلي، فيبدو إهمالهم له أشبه بطلقة رصاص، لا تميت، لكنها تورث توتراً وقهراً! والغريب لا يهتمّ إن كان إطلاقها عن قصد أم غير قصد!

أحسست أن مشاعر الغربة مسؤولة عن تسرعي في الحكم، إذ أضع تصرفات الآخرين تحت مجهر حساسيتي، ورغبتي في التواصل الإنساني، فأجعل السيء من لا يتواصل، والطيّب من يتواصل! وبذلك ألغي ظروف الإنسان، وقهر حياته اللاهثة!

تزعجني رغبتي في إقامة علاقات حميمة، تعوّض بعدي عن أهلي، ولو قليلاً، أبحث دائما عما يبدد وحشة عزلتي، كما يلبي حاجة في داخلي للاطلاع، وفتح أبواب مجتمع مبهم! أريد أن أتواصل مع البشر، لعلي أزيل حواجز، شيّدتها أفكار مسبّقة وأوهام، ما زالت تعشّش في مخيلتي!

كفاك دفاعاً عن النفس وفلسفة! اعترفي بأنك متسرعة في الحكم على الآخرين! وهذه إحدى سقطاتك!

**

تحدثت اليوم، على مائدة الحوار، عن رفض الرئيس (ساركوزي) الاعتذار عن الاحتلال الفرنسي للجزائر! قالت المدام: إنه يرسل رسائل متناقضة بين العالم الخارجي والداخلي! فهو يغيّر كلامه حسب الظروف والمصالح!

قلت: يذكرني تلوّنه بحكامنا العرب! على كل حال العالم الغربي كله، يحترم القوي! لذلك يعتذر لليهود الأقوياء، ولا يعتذر للعرب الضعفاء!

سألتني عن زيارتي للبانثيون، عبّرت لها عن إعجابي، فبيّنت لي أن أحداً من العظماء، لم يدفن فيه مباشرة، وإنما نقلت رفاته إليه! سألتها هل أُخذت كلمة (الرفاة ***cendres***) من رماد الحريق، كما قد يتبادر إلى الذهن؟

- قالت لي: لا، أُخذت مما يتبقى من جثة الإنسان! ثم أردفت هناك مقولة في الثقافة المسيحية: "من جاء من نفحة غبار، يعود إلى تلك النفحة"

- ثمة في القرآن الكريم آية تقول: "الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين"(السجدة/ *17*)

قالت لي بلغتها العلمية، مبتعدة عن لغة الدين:

_وهكذا يتحول الجسد المادي إلى مادة بسيطة، وينتهي الأمر!

- قلت: لكن ثمة شيئاً غير مادي، يرتفع إلى السماء!
- قالت مثل ماذا؟
- قلت: الحب (لم أقل الروح، لأنني أعتقد أنها لا تؤمن بوجود روح!)
- قالت: هذا حديث فلسفي، لا يتناسب وأوقات الصباح!

* * *

الأربعاء 2007/12/5

قدّمت اليوم علبة حلويات شرقية (احتفظت بها؛ لأدلّل نفسي) بمناسبة قدوم ابنتهم (جولي) كم فرحت المدام بهديتي! أما (مسيو بونور) فقد قال لي: لقد أحسن أهلك تربيتك! كم شعرت بالفخر والاعتزاز! تذكّرت مثل أمي: "طعميته فاح أكلته راح" كنت أودّ فتح حوار معه! لكنه أسرع على عادته؛ ليلحق برنامجه اليومي، الذي لا يقبل التأخير! فتابعت بيني وبين نفسي: وأنتما أحسنتما تربية (فلورا وجولي) ها هي ذي (جولي) تترك حياة الرفاهية، هنا، لتعيش في الضفة الغربية في فلسطين مع زوجها الفلسطيني! تكافح من أجل إنجاز بحثها،

وتعاني في الانتقال عند حواجز الإسرائيليين (بين نابلس وعمان)! فهي تعدّ بحثا للدكتوراه عن صناعة الصابون في (نابلس) أما (فلورا) فهي عاشقة لدمشق، تسكن بيتاً شاعري الموقع، يعانق قمة قاسيون! أعتقد أنه أحد مصادر إلهامها، فهي تكتب قصائد عن مدينتي وهموم ناسها، نسج قلبها النبيل وشائج مع أحزان الفلسطينيين في مخيم اليرموك، ثم اللاجئين العراقيين في جرمانا والسيدة زينب!

* *

التقيت اليوم بكاظم جهاد (في مكتبة العالم العربي) وهو شاعر ومترجم عراقي، يدرّس في معهد اللغات الشرقية في باريس، تحدّثنا قليلاً، نصحني ألا أمضي وقتاً طويلاً في المكتبة، وأن أمتّع نفسي بجمال باريس! لم أحدّثه عن وقت المنحة القليل(أربعة أشهر)لإعداد البحث! فالمكان لا يسمح لي بالاستفاضة، كنت أود أن أخبره أنني اكتفيت برفقة السين صباحاً ومساءً!

كتبت اليوم رسالة إلى صفاء:

كم أثارت أشواقي مكالمتك الهاتفية التي تلقيتها يوم الأحد، خفق قلبي سروراً حين أعلمتني بنتائج (شذى)الرائعة في المذاكرة، نسيت غربتي وقلقي، كدت أقول لها (تؤبر ألبي) لكنني تراجعت من أجل أن أوفر على صفاء كلفة دقيقة أخرى!

* * *

الخميس 2007/12/6

اشتدّ غيظي من نفسي، اليوم، عاتبتها على عدم تطّورها اللغوي! مما جعلني أعيش تجربة صعبة! أعترف بأنني اخترتها بملء إرادتي! لهذا عليّ أن أدفع ثمنها! وأرضى بمتاعبها! هاهي ذي العائلة بوجود ابنتها (جولي) تتحدّث على طبيعتها، أو بالأحرى على سرعتها، ليست ملزمة بتغيير طريقتها في الحديث لسواد عينيّ!

أحسست، أحياناً، أنني أعيش بينهم كالصماء البكماء، أسمع حروفاً سريعة، لا أستطيع اللحاق بها وتجميعها في جمل، أستطيع التفاعل معها! اختلّ توازني، يبدو لي أن الإنسان كائن لغوي، حياته لا معنى لها، دون القدرة على التعبير والتواصل مع الآخرين! ما أصعب أن نسمع حروفاً، لا تصلنا معانيها، فنحس بحاجز الصمم، رغم قرع الحروف لآذاننا، كأنها تصفع عقولنا؛ لتحيلنا بلهاء! فنعيش صمت الموت، الذي يغلق حواسنا، ويمنعها عن العمل!

كثيراً ما يفقدنا عدم التواصل مع الآخر خاصة في الغربة الإحساس بذواتنا، كأن التواصل اللغوي، يمنحني فرصة الإعلان عن أنني على قيد الحياة! كأن مشاركة الآخر لغته يعني مشاركته حياته!

حين تاه مني التواصل أحسست بضياع كينونتي! تحولّت إلى تمثال! المشكلة أن ثمة رغبة تلاحقني في تأكيد ذاتي؛ وحين لا أستطيع أحس بفراغ هائل، تتخبط في ظلمته روحي!

انتبهت المدام إلى حالتي المزرية، إذ ما زال وجهي، يفلح في حمل رسائل أعماقي! فسألتني بلطفها المعهود: ماذا سمعت اليوم في الراديو (أتابع قناة فرنسا الثقافية صباحاً، تزوّدني، كثّر الله خيرها، بمواضيع للحوار مع الأسرة)أجبتها: سمعت مقارنة بين صحيفتي (لوفيغارو واللوموند)

أحس بوضعي اللغوي المزري، كلما زار الأسرة ضيف، تزداد وتيرة الحديث سرعة! وهذا أمر طبيعي، لكن ما هو غير طبيعي حساسيتي

المفرطة بالغيظ؛ لأنني لم أتقدّم باللغة الفرنسية، فأشتعل إحباطاً! خاصة أنني لا أملك مقياساً دقيقاً، لأعرف كم تطورت! مقياسي الوحيد هو تفاعلي مع العائلة، وقدرتي على الحوار، كنت قد لاحظت تطوراً، لكن بمجيء جولي، تأكّدت أنهم يراعون وضعي اللغوي الحرج! كل ما يؤرّقني أنني لم أحقق تطوّراً لغوياً! فيمسك الغيظ بخناقي!

سألت (جولي) التي تتقن العربية بيني وبينها، عما فهمته من حوارهم، الذي كان يدور حول معاناة الفلسطينيين تحت الاحتلال، وكيف اضطروا إلى العمل في جدار الفصل العنصري، والمستوطنات، فأكدت صحة ما فهمت! عندئذ اكتست ملامح وجهي حزناً! فما كان من (جولي) إلا أن دافعت عن الفلسطينيين قائلة: إنهم يريدون تربية أطفالهم الكثيرين! فأجبتها: ما هذه المأساة، التي لم نعهد لها شبيهاً في التاريخ! يساعد المظلوم ظالمه في بناء قبره؛ فيزداد قهراً، في حين يزداد المحتل شراسة!

قالت: إن ذلك ليس خياراً، إنها الحياة الصعبة، التي يعيشونها، في حين أخوتهم العرب يرمون أموالهم عند أقدام الراقصات وفوق موائد القمار...الخ

لفتت (جولي) نظري أن عليّ استخدام صيغة التخاطب (ضمير المفرد) وأترك الصيغة الرسمية (ضمير الجماعة) وأنادي والديها باسمهما (جان دارك، فرنسوا)

ارتبكت فقد اعتدت صيغة جماعة المخاطبين، لكنها أكّدت أن الألفة تقتضي استخدام صيغة المفرد! وهذا ما ألاحظه في اللغة العربية أيضاً، لكن كيف أخاطب رجلاً تجاوز السبعين باسمه هكذا حاف؟ قد يكون الأمر أسهل في مخاطبة المرأة! في سورية حللنا المشكلة ننادي (أم فلان، أبو فلان) قلت: لِم لا أناقش هذه المشكلة على مائدة الطعام!؟

كتبت إلى أختي صفاء:

اليوم قررت رفع الكلفة بيني وبينهما (باستخدام ***tu*** بدل ***vous***) المشكلة التي سأعانيها، هي أن عليّ أن أناديهما بأسمائهما...! سألجأ إلى كلمة من فضلك، لألفت نظره، وربما استخدمت لفظة أخي على الطريقة العربية!

* *

حين اقترحت على (مسيو بونور) أن أناديه باسمه، ولكن مسبوقا بكلمة (أخي) رفض بعنف فاجأني؛ وضّح لي أنها كلمة غريبة عن فكره! تقترن بالوظيفة الكهنوتية، التي لا يؤمن بها! أحسست، في تلك اللحظة، أن اللغة تجمع الثقافة والتاريخ معاً! وليست هي الإحساس، التي يعترينا، ونحن نخاطب الآخرين بها! يبدو أننا ننسى، في كثير من الأحيان، أن للغة موروثها الدلالي، الذي يحكم استعمالها!

لا أدري لِمَ أحسست بالخيبة! تحتل مشاعر الأخوة مكانة في نفسي، وأنا حين اقترحتها، كنت أحسّ نبضها في قلبي! هاجمتني الوحشة! توقدّت شوقاً إلى بلدي! لمت نفسي؛ لأنني فكّرت قبل أيام في تمديد الإقامة! لهثت وراء مبررات آمنت بها! لأنها تلبي رغبة، تختبئ في داخلي! تُرى هل نحن فعلاً أحرار، حين نتخذ قراراً ما؟ أ لسنا عبيداً لرغباتنا وظروفنا؟ أ ليست حاجتنا النفسية أو المادية، هي التي تدفعنا لاتخاذه!؟

أرّقتني، اليوم، أحاسيس الغربة! سمعت المدام، وأنا في المطبخ، تستعجلني في إعداد الطعام، مُلئت توتراً! مع أن استعجالها جاء في غاية الرقي! (سألتني: هل تحتاجين إلى مساعدة؟) فهمت من سؤالها أنها تستعجلني!

نعيش في بلادي على مهل! لا يؤرقنا الوقت! ربما لأننا لا نحترمه! أو لأن الإنسان، هنا، يريد أن يسرع في إنجاز عمله؛ ليحصّل أكبر قدر من

المتع! نحن مثله نريد ذلك، لكن الفرق بيننا وبينهم، أن كثيراً منا، يريد ذلك دون عمل، أو يعمل ببطء لتحقيقه!

سمعت على المائدة (مسيو بونور) يقول سنتعشى دجاج من أجل (جولي) فأردفت المدام (لا) تدخلتُ لأقول جملة مأثورة كثيراً ما ردّدتها: نحن نعيش في مجتمع حر، كل إنسان يأكل ما يريد!

يؤلمني أن يغيّروا عاداتهم من أجلي! أحس، عندئذٍ، أنني عبء يثقل حياتهم، وهما في سن التقاعد والراحة! وهذا ما أرفضه! سأتحدث معهما في هذا الأمر!

حين خلوت إلى نفسي هاجمني شوق غريب إلى بيتي في دمشق! حين لا يشكل وجودي أي ضغط نفسي! صحيح أن المدام تأكل السمك بسبب الحمية! لكن زوجها لا يتبع أي نظام! لذلك أحس أنهم يدللوني أكثر من اللازم، حين لا يأكلون على راحتهم!

* *

قررت اليوم الاعتماد على نفسي في التعامل مع الآلة لسحب بطاقات المترو! حين حاولت إخراج البطاقة البنكية، لم أستطع! كما لم أجد بطاقات المترو! لم أعرف إن كانت سحبت نقوداً أم لا! حاولت الاستعانة بفتاة، تسحب من آلة مجاورة، لم تنتبه، كان ورائي شخص، هبّ لنجدتي! لم يفهم ما أريد! فقد سألته، وقد تلبّسني الاضطراب الشديد! لم أعرف ما عليّ فعله! هل أعيد الكرة؟ فأخسر نقوداً مرة أخرى؟ أ ليس من الغباء التعامل مع آلة، لم أعتدها! دون الاستعانة بأحد! على الأقل أول مرة؟ لعنت الآلة الصماء، التي لم تفهم ما أريد! ولم تقدّر غربتي، ولم تتعاطف مع جهلي! لعنت الاعتماد على الذات! عليّ أن أتعلم، ولكن ليس بهذه الطريقة الغبية! التي تجعلني أخسر مالاً!

بدا اضطرابي على البطاقة البنكية أشدّ، زاد توتري، حين تخيلت أن الآلة، تتمسك بها، لا تريد أن تتركها! شددتها بقوة! لا أدري بعد هذه المعاملة القاسية، إن بقيت صالحة للاستعمال، أم لا! كم يزيدنا الخوف غباءً ورعونة! مما يقتل فعاليتنا؛ إننا بذلك نسمح للعجز (الذهني والجسدي) بأن يستولي علينا! ويجمّد الدم والفكر في نفوسنا! فنزداد بلاهة!

ركضت إلى جوار صديقي السين! أبثّه همي، لعله يخفّف اضطرابي! فعلاً أعاد حنوّه لي هدوئي! واستطاع همسه أن يعيد لي توازني! كم يمنعنا الاستسلام للخوف من التمتع بالحياة! عاهدت نفسي على الهدوء والتعقّل! إنها آلة صماء، غدرت بي! لكنني مسؤولة، أنا التي استأمنتها! ولم أتسلّح بالمعرفة! خاصة أنني وثقت بنفسي أكثر من اللازم! ولم أستفهم! ها هو ذا صديقي يعيد لي سكينتي! ما أروعه من صديق عند الضيق!

* * *

الجمعة 2007/12/7

أجريت اليوم حواراً حميماً مع صديقيّ، بيّنت لهما ما أزعجني في الأمس بصراحة! فقد أحسست أنهما يختلفان على نوعية اللحم (دجاج أو سمك) فقد فهمت أن (مسيو بونور) سيشتري دجاج ***(poulet)*** على العشاء، وأن زوجته اعترضت، وطلبت أن يشتري سمكاً؛ لأنني لا آكل سواه!

- قلت: أ ليس أمراً مزعجاً أن أكون بشكل يومي بينكما؟ أخاف أن أكون مصدر إزعاج لكما!
- قالت المدام: البيت واسع، وكل منا يعيش مستقلاً!

- لاحظت بالأمس أن (مسيو بونور) يرغب في الدجاج! وأنت أسرعت تقولين: سمك!

- ثمة سوء تفاهم، أو سوء نطق! فهو قال (تبولة) ظننتها (بوليه: ***poulet***) تعرفين كم يحب التبولة، التي تعدّينها! هذا كل ما في الأمر!

- أتمنى أن تقولي لي، وأنا أعرفك صريحة، إن كان يزعجك أمر ما! أفعله دون أن أنتبه!

- يزعجني ألا تستفيدي من إقامتك في باريس!

كم أثّرت فيّ جملتها! كم حفّزتني على العمل! عليّ أن أجعل إقامتي أكثر فائدة! ما أنبل قلبها! سأعمل من أجل أن أسعدها! لأن هذا ما يسعدني أيضاً!

❊ ❊ ❊

2007/12/8

كتبت إلى أختي صفاء

"مشيت اليوم تحت المطر مثل المجنونة، إذ انتزعت رقته رياح عاصفة، أحاول أن أتعلم من الفرنسيين كيف يتعاملون مع زخاته بشكل طبيعي! يمشون، يتسوقون، ينزّهون أطفالهم! بل يجلسون في الحديقة وهم يحملون مظلتهم!"

بالأمس لبيت دعوة أخت المدام (إديث) مدرسة متقاعدة، تسكن وحدها شقة رائعة، تكاد تكون متحفاً! حدثتنا عن معاناتها في التدريس، عن تسيب الأجيال، وعدم اهتمام الأهالي بأولادهم، خاصة في الضواحي (الأكثر فقراً) تذكرت معاناتك يا صفاء، والله اشتهيت، هنا، التقاعد، عندما قارنت بينها وبين أختها الأصغر (مدام بونور) التي تبدو أكبر منها، إنها، مثلك، تتعامل مع شؤون الحياة بتؤدة! على نقيض

أختها، كانت تتحدث متأنية، فتبدو حركتها متناغمة مع هدوئها! سألتها ماذا تفعلين بعد التقاعد؟ أجابت: أسافر إلى إيطاليا، مرتين في الشهر؛ لأعطي دروساً باللغة الفرنسية!

أدهشتني لباقتها في التعامل، قدمت لأختها هدية (ألبوم صور عن الفن الإيطالي) ثم قدمت لي هدية (علاقة أوراق مرسوم عليها برج إيفل ورواية "حفيدة السيد لين" لفيليب كلوديل) لا تتخيلي حجم الفرح الذي أدخلته على قلبي هديتها البسيطة، التي اختُيرت بعناية، من أجل أن أتقدم بالفرنسية، وقد تعمّدت أن يصحبني رمز فرنسا إلى بلدي!

ما أسعدني، ياصفاء، أنني لاحظت أنهم غارقون إلى أذانهم في حب سورية، تخيلي أن المدام وأختها تضعان على الشاشة صوراً من تدمر وأفاميا!

لاحظت، أنهم، هنا، شغوفون في أعمالهم شيباً وشباناً، ليحققوا ذواتهم! إنهم يمتّعونها بالسفر، وبالثقافة، وبالاقتراب من الطبيعة...الخ، رغم كل المشاكل التي تصادف المدام في عملها، أجدها تحبه، وتحترم مواعيده، وهي، كما فهمت، غير ملزمة بدوام معين!

لكن جيل الشباب الفرنسي، بدا لي، أحياناً، نقيض ذلك، يلهث، يريد كل شيء دفعة واحدة، هل هي طبيعة الشباب في كل مكان؟ يريد تحقيق ذاته والتهام متع الحياة! وجدته يرتبط بمواعيد كثيرة، من أجل العمل، لهذا كنت في رفقته مشدودة الأعصاب لاهثة الخطوات!

كم كان يزعجني منظرهم، وهم يأكلون في الشارع مسرعين! كما كانوا يدخنون بعصبية! الحمد لله أن القانون، هنا، يطبق على الجميع، لهذا يحترمه الشباب والفتيات، فيخرجون، في وقت محدد، من أجل التدخين إلى الشارع، لا فرق بين متعاقد مع الدولة أم عامل في مهنة خاصة!

صفاء اليوم أدهشني منظر الناس في الحديقة العامة صباحاً، وجدتهم يمارسون الركض ليس الشباب فقط، وإنما الشيوخ أيضاً، والله خفت على أحد الشيوخ وهو يلهث راكضاً أن يلفظ أنفاسه! إنهم يدلّلون أنفسهم في كل شيء، يحافظون على صحة أجسادهم، وهم يرتشفون كؤوس المعرفة، ويتأملون الجمال!

* * *

الأحد 2007/12/9

مرّ شهران على إقامتي لدى عائلة السعادة، ها قد انتصفت مدة المنحة، ولم أحس بذلك، كل يوم تعلّمني الغربة شيئاً جديداً، ولكن هل أضع عليها بصمتي؟

قررت، بما أن اليوم عطلة، تغيير إيقاع حياتي! فبدل أن تكون جولتي مسائية، أجعلها صباحية! كي أتأمل كنيسة نوتردام من الداخل بشكل أفضل!

ما زالت كثرة التماثيل تصدمني! صحيح أنها توحي بالعظمة، لكنها بعد أن تنتزع من القلب الخشوع! أحسست أن التجريد أقرب إلى روحي! وأن التجسيد يبعدني عن الله! واجهت نفسي قائلة: هذا هو إحساسك أنت! ليس بالضرورة أن يكون صحيحاً، ففي مجال المشاعر، ليس ثمة رأي جامع وحكم قاطع! إذ كثيراً ما تتأثر أذواقنا بثقافتنا، التي رُبينا عليها!

حين رأيت التماثيل الصغيرة، التي تجسّد ولادة السيد المسيح، وهي ترتدي أفخر الثياب، تساءلت: أين المسيح الذي أعرفه، ورسمت له صورة في مخيلتي! وهو يرتدي أبسط الثياب! يحيط به مريدوه الفقراء!

أدهشتني كمية الجواهر المعروضة! في بيته، هل يرضى المسيح بذلك؟ هل يرضى أن يعيش ملايين الجوعى بحاجة إلى هذا المال المخزّن باسمه؟ لو كانت هذه الكنوز بين يديه هل يحتفظ بها؟ هل سيهتم بعرضها من وراء زجاج!؟

لقد جمّد محبو المسيح هذا المال بدافع التقوى! أ لم يعرفوا أنهم ابتعدوا بذلك عن الدين، الذي هو عطاء وخير، وإحساس بالآخرين! ولكن أ لم يفعل المسلمون الشيء نفسه في مساجدهم؟ أ لم يزينونها بالذهب والفضة ... التي تبهر النظر، وتسلب الخشوع من القلب في كثير من الأحيان!

* * *

الاثنين 2007/12/10

حين سألت صديقتي الجديدة (نينا) التي عرضت عليّ فكرة التبادل اللغوي: أين نلتقي؟ قالت: في المقهى! رفضت، فأنا لا أحب العمل في مكان عام، مليء بالضجيج، يفتقد الحميمية! إذ أحسّ بأنني مقيّدة الحركة والكلام! لا أدري ربما كان السبب أيضاً، روح المحافظة، التي نشأت عليها! أو لعلها رغبة خبيثة في التوفير! اقترحت عليها أن يكون اللقاء في بيتي (بعد أن استأذنت العائلة) وافقت (نينا) بشرط أن نتبادل الزيارة!

كان دورها، اليوم، وفي طريق عودتي، أخطأت في المترو، أو بالأحرى في المحطة المناسبة لطريقي! أغشى عينيّ الهلع، بدأ قلبي يخبط في صدري قلقاً، فتدفق الرعب في عروقي، حتى كاد يفجّرها! كانت لحظات قاسية، التفت حولي، كي أستنجد بالسؤال، فلم أجد أحداً! الكل

يلهث، كي يلحق المترو، لا وقت لديه للإصغاء أو حتى النظر أبعد من خطوته، إنه لن يراني، حتى لو اقتربت؛ لأسأله! توقفت أبحث عن أحد، يمشي بهدوء فلم أجد، فاتصلت بصديقتي، التي أكّدت لي وجود المحطة، حيث أقف، كل ما في الأمر أن عليّ أن أسأل! تجرّأت وسألت أحد المسرعين، فأشار من هنا! صعدت المترو، لم أحسّ أنه المطلوب، نزلت، ثم صعدت ثانية! واقتحمت صمت الآخرين: بسؤالي: هل يقف هذا المترو في محطة...؟ فقال شاب: لا! فنزلت مسرعة، قبل أن يتحرك المترو لكن الشاب الطيب، أشار لي بنزول الدرج! بعد ذلك وجدت في طريقي فتاة، سألتها، فأخذت تدلّني بكل شهامة! ولم أصل إلى المترو المناسب، إلا وقد نشف دمي رعباً وقلقاً! حتى إنني خفّت أن يتوقف قلبي لشدة الضغط، لعنت في تلك اللحظة ضعف البصر، الذي يمنعني من تأمل الخريطة المزروعة في كل محطة!

لاحظت أن خوفي يشتعل، مع اشتداد الظلمة، ربما بتأثير صديقتي الأدبية (روعة) التي حذّرتني من كثرة اللصوص في المحطات! كما أن فكرة خسارة وقت كثير في الضياع العبثي، بسبب خطأ أرتكبه، تصيبني بالهلع، إذ تضيّع عليّ جلسة العشاء مع العائلة، التي تمتلك ساعة دقيقة، لا تعرف التأخير ولا التقديم!

ما إن جلست في مقعدي، حتى تنفّست بعمق، وحمدت ربي على السلامة من الضياع! وأنا أتابع المحطات سمعت صوتاً مؤنّباً: لِمَ كل هذه المعاناة؟ ابقي في بيتك مرتاحة؟ كل ذلك من أجل إتقان اللغة؟ أنت لن تعودي إلى بلدك؛ لتدرسّيها! لكن كلما أتقنتُها ازددتُ تفاعلاً مع من أحب! وبفضل هذا التعلّم، تنتظرني مغامرة أخرى في مترو آخر! كفاكِ هذياناً! أنت الآن تتفلسفين! بعد أن جلستِ في مقعدك آمنة مرتاحة!

* * *

الثلاثاء 2007/12/11

تأكّدت اليوم (عن طريق مسيو بونور) أن المدام أصيبت بالسرطان، أظن أنها أخبرتني بذلك منذ بداية إقامتي، لكن لم أثق باستيعابي للغة، أو ربما بسبب الطريقة البسيطة، التي حدّثتني بها!

ذهبتْ اليوم لإجراء فحوصات دورية، قلقت عليها، دعوت ربي أن يحميها من كل شر! تذكرت صديقتي (دنيا) التي أُصيبت بالسرطان، أخفت نبأ إصابتها، وكأنها سر من أسرار الدولة! أو كمن يخفي عاراً لحق به! اتصلت بي أمها باكية، بعد إجراء عملية استئصال ثديها! طلبت مني أن أزورها، فالطبيب نصحها بضرورة أن يكون إلى جانبها من ترتاح إليه! أسرعت بالذهاب إليها، قرعت بابها حاملة بيدي كتاباً أقدّمه لها، لم تفتح، قرعته عدة مرات، ولا من مجيب! تركت الكتاب عند الجيران! وأنا أحس بالحزن والضيق، لتردي حالتها النفسية! آلمني عجزي عن الوقوف إلى جانبها! وكي أستطيع مساعدتها، استنجدت بصديقتي (كاتبة القصة القصيرة اعتدال رافع) التي واجهت مرض السرطان بشجاعة مدهشة، وقد حدّثتني عنه بتلقائية، فكانت خير من ينصحني، سمعتها على الهاتف: قولي لصديقتك بأن السرطان بات منتشراً مثل الرشح، وأن إرادتها في الشفاء، هي دواؤها الوحيد!

* *

سألني (مسيو بونور) وهو يرمي بقايا الخمر في حوض المجلى:

- هل هذا حرام؟
- ارمِ ما شئت، فهذا هو الحلال نفسه!

أسعدني على مائدة الغداء أن أجده يأكل الخبز الأسمر مثل زوجته، فقلت بحشريتي المعهودة: برافو هذا أمر جيد، على الأقل لن

ترمي الكثير من الخبز في سلة المهملات! فردت المدام على حشريتي: كل يفعل ما يريد!

سألت نفسي: هل أزعجها؟! ترى هل أمارس نوعاً منن الإرهاب الفكري، حين أتدخل بطريقة عيشهما؟ علي أن أقنع بالاختلاف، وألزم الصمت؛ لأن أحدنا لن يغيّر عادات الآخر؟

المشكلة، التي تؤرقني، هي أنني لم أعتد رمي نعمة الله (الخبز) في القمامة! لا أستطيع إلا التعليق! وأحشر نفسي بما لا يعنيني! فأبدو مزعجة لهما! ترى هل يحسّان أيضاً باهتمامي بصحتهما!؟ كل ما أريده هو أن يهتما بها، وقد لاحظت أن المدام تنتبه أكثر من زوجها، يبدو أنها فعلت ذلك بعد تجربة المرض!

* * *

الأربعاء 2007/12/12

نجحت اليوم بسهولة في الوصول إلى عنوان (د. كامل) غيّر اللقاء به، في بيته، انطباعي عنه! لم يعد، في نظري، ذلك الرجل المتغّرب حتى العظم! لمست حرصه على تقديم الطعام المغربي التقليدي (الكسكسي) الذي صنعه بنفسه، يبدو من الصعب على الإنسان نسيان هوّيته الثقافية كلياً، إنها تهجم عبر نوافذ عدة، يظن أنه أغلقها! ها هي ذي تتسلل إلى طعامه وبعض أثاثه، كما تسللت عبر أبحاثه!

استأذنني، مثل (مسيو بونور) حين أراد أن يشرب النبيذ، وحين تحدثنا عن رمضان، صرّح لي بأنه لم يصم يوماً واحداً في حياته! لكنه يعتقد أن ذلك سهلاً!

تُعلّم زوجته الفرنسية العربية في المدارس، حدّثتني عن حبها للأدب العربي، قلت مازحة: هذا ما دفعكِ إلى الزواج بعربي!

تأملته، وهو يشارك زوجته في أعمال البيت، فقد اعترف لي بأنه طبخ الطعام! شاهدته يهيئ المائدة، يعتني بالطفلين...الخ، قلت بيني وبين نفسي: لو كانت زوجته عربية، ترى هل كان سيقوم بتلك الأعمال؟

بدا لي في غاية التهذيب والكرم، خاصة حين حرص على مرافقتي إلى الشارع؛ ليدلّني على الطريق، مع أنني قلت له: إنني أعرفه!

غيّرت تلك الزيارة الانطباع الأولي، الذي كوّنته عنه، هل هي كيمياء الخبز والملح، التي حدّثتني أمي عنها، فانغرس مفعولها السحري في أعماقي، فقد لاحظت أنها خير مغذٍ للعلاقات الإنسانية، إذ بإمكانها أن تخفّف التوتر، وترسي أرضية للحوار، فنحترم الاختلاف في الرأي!

* *

كتبت إلى صفاء "كانت المكالمة قصيرة مع صديقتي (دنيا) لم تشفِ غليلي! كنت أريد أن أحدثها عن إصابة (مدام بونور) بالسرطان في ثدييها، وشفائها منه! ليتك تسمعين ضحكتها، تملأ البيت، ليتك ترين طيبتها، تنعش القلب، كأنها تسع الإنسانية بأكملها، لم أسمعها يوماً تثرثر كالنساء، تزعجها الفوضى، منظمة في حياتها وفي بيتها! فهي تعود من العمل مساءً، تدخل المطبخ بملابس الخروج، وحين أقول لها هل أساعدك؟ تقول لي أنت اشتغلت الظهر! إنها خفيفة الظل قدر ما هي خفيفة الوزن؟ تملأ التجاعيد وجهها! فتبدو أكبر من عمرها بعشر سنوات، لكن سرعان ما ننسى حين نرى حيويتها، تمشي بسرعة كالشباب، غنيتُ لها مرة بفرنسيتي العرجاء، وأنا ألحقها في الشارع: واثق الخطوة يمشي ملكاً! تداري صحتها، لهذا تستمتع بالأكل الذي

أصنعه، وتحتفي بالزهورات أيما احتفال! تمارس اليوغا، وتريد أن تتابع دروساً فيها بعد التقاعد! تبدو قارئة ذواقة وحساسة، لهذا اقترحت عليها، اليوم صباحاً، أن تكتب في مجال الأدب أو النقد!

* * *

الخميس 2007/12/13

سمعت اليوم، لأول مرة، أصواتاً غاضبة، زلزلت هدوء البيت، بعد ذلك دخلت (جولي) غرفتها (قرب غرفتي) وصفقت باب شقتنا بعنف! أثار رعبي، وقد تعمّدت أن تلاحظه! فرفعت صوتي "بسم الله الرحمن الرحيم" مستنجدة برحمة الله، على عادتنا في الشام، حين نحس بالخوف.

فاعتذرت قائلة: آسفة! ثم سمعت صوت والدها، وهو يحدّثها، بعد ذلك طرقت بابي، ودخلت، وهي تعتذر عن تصرفها، أكبرت فيها الإحساس والذوق! مهما يكن أنا في بيتها! انتهزتها فرصة؛ لأدافع عن أمها (إذ لاحظت أن الخلاف بينهما) حدّثتها عن أمي، كيف تراني طفلة، رغم أنني في الخمسين، بعيون الشيطان، ورغم أنني أرعاها كطفلتي، لكنها تغضب حين أتأخر مع صديقاتي، فهي تريد أن تلزمني بقوانين زمنها ومحظوراته!

لاحظت صباحاً عودة الألفة إلى الأسرة، لم أسأل عن السبب، فهذه حشرية، لا يتقبلها الفرنسيون! بعد ذهاب والديها تحدثت مع (جولي) عن مشكلة صراع الأجيال، بيّنت لها أن الآباء لهم وجهة نظر تناقض الأبناء، علينا أن نصغي لها؛ لأنها تنبع من الحب والحس السليم والخبرة الحياتية! أصغت إلي بانتباه، وهزت رأسها بأدب!

سألتها: هل تحبين (الفتوش) قالت: نعم! قلت لها: أنت مدعوة اليوم ظهراً، قالت: لن أكون على الغداء! قلت: نؤجله للغد من أجل (عيونك)!

كنت قد سمعت من المدام اعتذارها عن الغداء أيضاً! فقلت لها سأؤجل طبخة السبانخ إلى الغد من أجلك! لأنني أريدك أن تذوقي الطريقة الشامية في طبخها! لم يكن لدي وسيلة، أرسل بها رسائل حبي واهتمامي سوى الطبخ، وهي لن تكلّفني شيئاً، وقد أثبتت تجربتي المتواضعة، أن ذلك أفضل رسائل الحب!

قلت في نفسي: الأم وابنتها لن تكونا على الغداء، يبدو أنهما ستجتمعان على غداء عمل، تحلّان فيه مشكلتهما. آه من حشريتي، التي توسوس لي بأفكار وقصص عن الآخرين، تُرى هل هي تلازم أبناء الشرق أكثر من أبناء الغرب؟ هل هي التربية؟ أم الفراغ، الذي نعيشه، فنحاول ملأه بالثرثرة والحشرية؟ هل هي عادة تخص النساء؟ أم هي تشمل الإنسان أياً كان؟

اعترفت لي المدام فيما بعد أن سبب المشكلة أنها تحاول إقناع ابنتها بإجراء فحص دوري، وابنتها ترفض! فهي تخاف من عامل الوراثة في مرض السرطان، لا قدّر الله!

عند العشاء، الذي كان قواقع (سانت جاك/ القديس جاك) قلت لهم: بما أنني متديّنة فسأغير الاسم إلى (قواقع جاك) أنتم علمانيون تلتهمون (القديس) أما أنا فأستحرم هذا الفعل!

* * *

الجمعة 2007/12/14

لاحظت اليوم أن المدام أكثر اهتماماً بي، حين سمعت أن لدي محاضرة مساءً، قالت: سننتظرك على العشاء، كم أسعدتني لفتتها!

قلت لها: لا أعرف متى أعود! لا تنتظروني، خذوا راحتكم! خاصةً أنني أعرف كم يقدّسون دقة الموعد مع الطعام!

تركت كلمتها في نفسي مفعول السحر، ملأني شعور بالسعادة، لعل ما فعلته اليوم ظهراً أثّر فيها، مع أنه أمر عادي في بيتنا (تركت لابنتها السبانخ والفتوش، حين لم تأتِ للغداء)علينا ألا ننسى حصة الغائبين! إنه أحد وجوه التعبير عن الود! أن نخصّ من نحب، كما نخصّ أنفسنا! مساكين أولئك الذين لا يعرفون هذا في حياتهم اليومية! إنهم يضيّعون أجمل ما في الوجود: العطاء دون مقابل!

يخطئ من يظن أن الفوز بحب الآخرين أمر سهل، إنه نبتة، تحتاج لمن يرويها دائماً عطاءً واهتماماً؛ كي تزهر!

* *

كانت المحاضرة، التي ألقيتها، عن هموم النقد العربي (في معهد اللسان لتعليم اللغة العربية في ضواحي باريس) استمرت حوالي الساعة، تبعها حوار، استغرق ساعة أخرى!

حاولت أن أرتجلها، كي لا أشيع الملل لدى الحضور، مما أضفى جواً من الحيوية، والمشاركة، وهذا ما أكّده صديقي (د.عادل) فهو المنسق الذي يدعو المحاضرين، لا أدري إن كان يجاملني على عادة الكثير من العرب!

أسعدني حضور الشباب، آمل أن أكون قد أثّرت فيهم، فوجئت بعد نهاية المحاضرة أن معظمهم يدرس اختصاصات علمية! كم أحسست بالامتنان للحضور، الذين تكبّدوا مشاق المجيء في هذا البرد اللئيم! كم أفرحني اهتمام الشباب باللغة العربية، إلى جانب إتقانهم الفرنسية!

أحسست بأنني أتحدث بين أهلي، لأن الحضور كان من جنسيات عربية مختلفة، كانت تجربة مفيدة لي، لأنني تحدثت لأول مرة عن

رؤيتي النقدية، دون أن أكون مؤرقة بالوقت، أو بالرقابة، كعادتي حين أكون في مؤتمرٍ أو ندوة! كم فرحت أسرة (بونور) بنجاحي، حين عدت، وحدّثتهم بتفاصيل مفرحة!

* * *

2007/11/15

كتبت اليوم إلى أختي ناهدة

"حزنت كثيراً حين سمعت صوتك على الهاتف، أحسست أنك تحملين هموم الدنيا كلها على كتفيك، الله يرضى عليك، لا تقهري نفسك، ولا تشغلي بال غربتي، يكفي ما أعانيه من قلق عليكم! هل تزورين أخاك (مجد) اخرجي من البيت كل يوم لزيارة الأهل، والجيران، ولشراء الحاجيات... مارسي الرياضة كل يوم، أو امشي، لا أريدك أن تستسلمي للأحزان، حاولي أن تبحثي عما يريحك في هذه الحياة التي سنرحل عنها عاجلاً أم آجلاً، هذه الدنيا، تحكم علينا بوداع الأحبة شئنا أم أبينا!

شجعي صفاء وشذى على تغيير الجو! لا بد أن نروّح عن أنفسنا بزيارة أو نزهة، وإلا مرضنا. كل ما أتمناه أن أسمع صوتك وقد ابتعد الحزن عنه، سأحدثكم أول يوم العيد! لكن متى الوقفة؟"

إلى الغالية شذى

" كم أنا مشتاقة وعندي لوعة، لاشك أنك الآن أنضج من قبل، أحسست بذلك حين حدثتك على الهاتف، بدا لي صوتك ينبض بالثقة بالنفس، أحسست أنك ازددت وعياً في غيابي، ربما كانت التجربة الصعبة، التي مررنا بها، كبّرتنا جميعاً!

اطردي الحزن، شقّي طريق، كما تقول جدتك، أنت وصفاء وناهدة! يمكنني الاعتماد عليك! أنت الآن فعلاً في سن النضج، كم أنا فخورة بك، وبشخصيتك المتميزة، لن أخاف عليك من أجل الدراسة! أدعو الله تعالى أن يوفقك؛ لتحققي كل أحلامك!

وضعتُ، بالأمس، قبعتك الجميلة، فتلقيت بفضلها أول كلمة غزل ***(quel beau chapeau!)*** من رجل عجوز، أعتقد أنه تجاوز السبعين، تذكرت صديقتي (نوار) التي تقول هذه هي التسعيرة المناسبة لنا، أرتدي قبعتك هذه الأيام التي اشتد فيها البرد، أقول وأنا أضعها على رأسي: كم هي حنونة هذه الشذى الشحرورة الأمورة!"

إلى الغالية صفاء

"اليوم ستذهبين مع الصديقات، أمانة اذكرنني وأنتن تأكلن اللحمة، التي لم أذقها منذ شهرين، لأن سندويشة الشاورما التي دعاني إليها (أنيس) في مطعم تركي، كانت تعاني فقراً باللحمة! (طبعا آكل السمك، أحياناً، لا تقلقي، كما أنني أكلت الدجاج، حين دعاني الدكتور (كامل) إلى الكسكسي!

فرحت لأن (فلورا) غيّرت رأيها، وستأتي إلى باريس، أرسلي معها قهوة، لأنني أريد أن أعطي (جولي) أختها ما لدي، فقد أحبت القهوة الشامية، وهي ستسافر إلى نابلس في اليوم الذي تأتي فيه (فلورا)!

متى سيسافر (نور) إلى باريس، أرسلي معه، كمية من الورد البلدي، لأنني لاحظت أن الأديبة (روعة) تحب الروائح العطرية، فربما أدخلت الفرح على قلبها برائحة الشام!

اشكري (غنى) على رسائلها، التي تقوّيني في غربتي، واشكري أختها (سميرة) فقد مرّروا لي الوزن الزائد في المطار بفضلها!

لا تنسي الرسالة الورقية التي تحدثينني فيها بالتفصيل عن أمك، ماذا قالت؟ هل عبّرت عن انزعاجها، بعد أن غادرتها؟ أخاف أن أكون أنا سبب مرضها، لأنها لم تكن راضية عن سفري!

لا تنسي أن تفضفضي في تلك الرسالة، فأنا أعرفك، تكتمين الدمعة بابتسامة رضية، كي تزرعي المرح في قلوبنا! أنت تجيدين الضغط على روحك الطيبة! لتتأقلم مع القهر، حتى بات رفيقاً لك، لكن عزيمتك سرعان ما تسعفك، فترمي بحزنك وراء ظهرك، لتسعدي من حولك!

أمانة انتبهي لقلبك النبيل!

وإلى اللقاء غداً."

* * *

2007/12/16

كم تنعشني رفقة الشباب، هنا، إنهم يصيبونني بعدوى حيويتهم! فأحسّ أن الحياة جميلة، وأن علينا أن نعيشها باندفاع ومتعة، لعلي لم أعرف مثل هذه الأحاسيس في شبابي! عشت ملجومة من داخلي دائماً! تضطرم في داخلي أحاسيس وأفكار وأوهام، تدفعني تارة إلى تحليل مظاهر الحياة، وتجارب الآخرين! وتارة إلى الحلم، لعل ذلك أعاقني عن خوض بحر حقيقتها! أعترف بأنني عشت أردّد قول مارسيل بروست "أن نحلم الحياة أجمل من أن نعيشها!"

وحين أحاول الهرب من الحلم، أجد نفسي أحسب كل شيء بعقلي! أذكر أنني أخبرت إحدى صديقاتي بأنني ألجأ إلى العقل في علاقتي مع الرجل، فقالت: المرأة التي تفعل ذلك! لن تعيش الحياة أبداً!

لست الوحيدة في انتهاج هذه الطريقة، هناك الكثيرات من جيلي، ومن جيل آخر، مثل ابنة جيراننا في دمشق (نجوى) التي تقارب (جولي) في العمر، وهي قريبة إلى نفسي، أحس، أحياناً، أنها امتداد لي! لكنها

تعيش صراعاً مع الحياة، لا تريدها إلا وفق هواها! إنها تشترط ما لا يتوفّر في بلادنا!

كتبت إلى صفاء "وجدت (جولي) مندفعة للحياة والمرح على نقيض(نجوى) التي لا تبتسم إلا في المناسبات القومية! هل ما زالت (شايلة) هموم الدنيا على ظهرها؟ خاصة بعد وفاة أمها، قولي لها أن تعيش شبابها قدر الإمكان! أن تخفّف أحزانها ومسؤولياتها! أن تبحث عن الفرح! فأنا خائفة عليها! ألا ترين أنها تشبهنا كثيراً، تريد أن تفصّل البشر على مقاسها المثالي! تعشق حمل المسؤولية، وتريد تغيير الكون وإصلاح ما هشّمه التخلف والزمن!"

لاحظت أن الشباب، هنا، يعيش، في رعاية ظروف إنسانية، إنه، على الأقل، يجد عملاً مناسباً له، أو هكذا يخيّل لي! خاصة حين يكون مخلصاً، إنهم جادون، يحققون ذواتهم بالحب والعمل، فهم مندفعون نحو الحياة أكثر من اندفاعهم نحو مسؤولياتها! وهذا نقيض ما رُبّينا عليه، فقد حمّلنا الأهل أوزار فقرهم، أو نحن حملناها مختارين، إذ لم يكن أمامنا طريق آخر! أشفق على شبابنا، كأن معظمهم لا يعرف طعم الفرح! هل أنا متشائمة؟ ترى هل أنطلق من ذاتي؟ ولكنني أرى الحزن في وجوه كثير من شباب بلادي (نجوى) ليست استثناء!

ثمة أمر ما زال، يتعبني، مقارنة الحياة والأسعار، أعاهد نفسي على عدم المقارنة بين الغلاء بين فرنسا وبين بلدي! يؤرّقني الصرف، هنا، أحس بمسؤوليتي عن أموال المنحة، خاصة بعد وفاة أمي، أفكر أن أقدّم ما تبقى لوجه الخير! أقول في نفسي: هذا المال أمانة، عليّ أن أحسن إدارته! ليستفيد منه غيري! فأسعده به! عندئذ أسعد نفسي!

* * *

2007/12/17

فكرت كثيراً في هدية أقدّمها إلى (جولي) حسمت أمري، وقلت: بما أنها تعيش في فلسطين المحتلة سأقدّم لها كتابي "جماليات الشخصية الفلسطينية لدى غسان كنفاني" فكتبت لها إهداء "بفضلك وبفضل أسرتك أحسست أن القيم العليا لن تموت" قدّمت لها أيضاً صابونة صغيرة (كانت معي من دمشق) بما أن بحثها حول الصابون النابلسي! قالت لي: حقا تأثّرت!

* *

تجرأت اليوم وحضرت محاضرة بالفرنسي في (الإينالكو) بصراحة لم أفهم كل شيء، وحين سألني أستاذي المشرف عن المحاضرة، قلت له: لم أفهم سوى نصفها تقريباً! فقال لي مشجعاً: هذا جيد! قلت: لكنني لست راضية عن نفسي! قال: أنت خلال شهرين حققت تقدماً! قلت بيني وبين نفسي: هذا التقدّم لا يسمح لي، أحياناً، بمتابعة الحديث، الذي أسمعه على المائدة، ولا يجعلني أفهم كل ما أسمعه في المحاضرة! لكنني شجعت نفسي: يكفي أنك تستطيعين التواصل مع الآخرين! وإن تلجلج لسانك، وارتبك تعبيره!

* * *

الأربعاء 2007/12/18

فكرت، اليوم، بما أنني لا أساعد في أجرة العاملة (نائلة) وبما أن العيد الكبير قد اقترب، عليّ أن أقدّم لها هدية! استشرت المدام (هل

أقدّم لها شيئاً أم مالاً؟)، قلت صراحة: أنا أفضل تقديم المال: لا أعرف ماذا تحب، ولكن هل يسيء ذلك إلى مشاعرها في رأيك؟ قالت: لا! قلت: أضعه في بطاقة معايدة، وأكتب لها بضع كلمات بهذه المناسبة! فأعجبتها الفكرة!

كم أحسست بالفرح حين قدّمت هذه الهدية لنائلة، أحسست أنها قريبتي، فهي الوحيدة، التي أسمعتني بالعربية: "كل عام وأنت بخير" كم يتضاعف إحساسنا بالغربة، حين نحرم سماع لغتنا، مثلما نحرم لقاء الأحبة والأصدقاء، الذين يجعلون للعيد طعما ورائحة!

الكل، هنا، مشغول بنفسه، سواء أكان عربياً أم فرنسياً، الكل يحسب ما يكلفه التواصل إما مادة (كلفة وسائل المواصلات) أو زمناً (لا وقت لديه) لكن ثمة فئة تخجل من الاتصال الهاتفي، إذ لا تريد إزعاج العائلة التي أقيم عندها، هذا إذا أحسنت الظن ببعض الناس!

أنّبت نفسي: لِمَ تبحثين عن الألم؟ ألم تفرحي الآن، حين أدخلت البسمة على قلب (نائلة) المسكينة! التي تعمل في يوم عيدها!

حين أبحث عما يسعدني، لا أجد سوى العطاء، إنه وجه آخر للتعبير عن الحب! الذي حُرمت منه! ولم أعرف سوى آلامه!

أيقظ اجتماع العيد بالوحدة مرارة في داخلي، فصارت تفحّ سموم قهرها، حتى اجتاحني الضعف، فبدأ الإحباط، يتجرّأ على محاصرتي! بدأت أسئلة مظلمة، تنهال عليّ: لماذا يا ربي لم أقابل سوى رجال، يهتكون حرمة الحب! ويجيدون الاتجّار به؟! لماذا التقيت بأولئك، الذين يحوّلون أنبل المشاعر إلى حسابات مادية!؟ هل العيب فيّ، حين حلمت في أن يكون الحب وجهاً للصدق؟ حظي العاثر منعني من لقاء أولئك الذين ترتسم قلوبهم على صفحة وجهم وأعمالهم! فالتقيت بأولئك

الذين بعدت الشقة بين مظهرهم ومخبرهم! ما أكثر الذين يجيدون وضع الأقنعة في بلادي!

بدأنا نشوّه الحب، ونحن ندّعي أننا أمة روحية! في حين لاحظت، هنا، كيف يعيشون الحب، الذي يقاوم الزمن والمرض!

* *

أحسست أن العائلة، رتّبت بسببي مجيء ابنتها بحيث لا تلتقيان، إذ لم يعد لديها سوى غرفة نوم واحدة! لم يفكروا باستخدام غرفة المكتب أو الصالون، كما نفعل نحن العرب، ونقول: "بيت الضيق بيسع ألف صديق"!

جاءت (فلورا)بالهدايا الشامية التي أوصيت عليها (من أجل أمها وأبيها) سأقدّمها لهما بمناسبة عيد الميلاد! اقترحت عليّ أن أرافقها إلى مطعم هندي؛ لأتعرف على صديقتيها (فرنسية وتونسية) لا أدري السبب في اختيار هذا المطعم، ربما جو الشرق، فقد عشت أجواء هندية بفضل الديكور، لكنني تذكرت حديث صديقتيّ (نوار وغنى) عن قذارة الهند! بالإضافة إلى مشكلتي مع اللحمة! وما أعرفه أن الطبخ الهندي حار جداً، لهذا قلت لهما: سآكل الجبن والخبز! حين حاولت المشاركة في الحساب، رفضن، وقلن: لم تأكلي شيئاً! قلت في نفسي: فعلن ما تفعل صديقاتي في بلدي!

* * *

2007/12/19

لفت نظري كيف ودّعتني صديقتي (نينا) التي أتبادل معها اللغة، وهي تهتف لصديقتها، تدعوها إلى العشاء! لم تنتظر حتى أخرج! إنه عصر السرعة، كل دقيقة لها قيمة! وبما أنني أتهيأ للخروج، خرس لساني مستغرباً، لكن ملامح وجهي أفصحت عن استغرابي!

في طريق عودتي وأثناء وقوفي في محطة المترو، وجدت نفسي أمام حنظلة، وقد قفز من حمّالة مفاتيحي، لم يكن وحيداً، بل كان برفقة صديقه الإفريقي! الذي كان يتكلّم بطريقة مسرحية، يتعتعها السكر، بدت حروفه، تترنح قبل أن تغادر شفتيه! لم أفهم ما يقول! أسرعت بالسير، قلبي يسبق قدميّ! في حين كان حنظلة العربي، يغني لوديع صافي (علومة اللومة، يا حلوة يا مهضومة) ويشير إلى فتاة في الجهة المقابلة! أحسستُ بقهره وغربته، حين سمعته، يشكر الفتاة على ابتسامتها! إنه الظمأ إلى التواصل، مسكين حنظلة لا يجد في فرنسا كلها، من يصغي إليه، سوى ركّاب المترو المسرعين، الذين يهتمون بصفير قدومه، أكثر من سماع غناء، يتعثر في ضوضاء المحطة! بدا لي يشحذ اهتمام مستمعين، أو حتى ابتسامتهم! لن يهتم أن تكون ساخرة، أو مشفوعة بنظرة مشفقة ! ما يهمه أن يجد إنساناً إلى جانبه! حتى لو كان وهماً، يحسّسه بالأمن! إنه يعيش بمخيلته السكرى أنس علاقات، باتت حلماً مستحيلاً! رافقني صوته الحزين إلى البيت، فقلت، وأنا أفتح الباب البيت: آه يا حنظلة! ما أبشع الغربة، حين تحاصرك الوحدة والفراغ! عندئذٍ تصبح الحياة أشبه بلعنة، ترمي بنا إلى الجحيم!

* *

تساءلت وأنا أتفقد زجاجة مكياجي الوحيد (زيت السمسم) التي أتيت بها من دمشق، ولم أجدها! أ يمكن لشيء صغير تافه، سافر معنا، أن نحمّله معاني الوطن؟

سألت المدام عن تلك الزجاجة، فأجابت: تخلّصت منها، فقد ظننتها لابنتي (جولي)! تجلّدت عند سماع هذا الخبر، ورسمت ابتسامة وأنا أقول: ولا يهمك! لكن أعماقي اشتعلت قهراً، إذ آلمني أن تنتهك أشيائي العزيزة، التي رافقتني من الشام! أحسست أنها تحمل معها صورة أحبابي ورائحتهم، كنت بفضلها أمد جذوري إلى بلدي! سمعت صوت أمي يهمس: "الغربة مضيعة الأصول!" صحيح أن هذه الزجاجة شيء تافه لا قيمة مادية له! لكنه عزيز عليّ، كلما وضعت نقطة منها على وجهي، شممت رائحة الوطن! تُرى هل تدري المدام بأنها دفنت كل ذلك في سلة المهملات!؟ في تلك اللحظة هاجمتني العواصف؛ لتقتلعني من أمني وإحساسي بالألفة مع الآخر! أحسست كأنني ورقة في مهب الريح!

لكن ألا أبالغ في هذه الأحاسيس؟

يبدو أن الأشياء الخاصة، تزداد قيمة في قلوبنا، حين نضفي عليها حاجاتنا، ونجعلها موئلاً لرموزنا، لهذا يثقل فقدانها كاهل غربتنا.

* *

ما زلت ألاحظ أن الشباب، هنا، مبتهجين! إنهم يلتهمون الحياة والطعام فرحين! تنعشني صحبتهم، تنطلق ضحكتهم من القلب! لتصافح السمع والسماء! لا أدري، إن كنا نعرف هذا النوع من الضحك؟ إننا نرسم على شفاهنا طيف ابتسامة، تتيه منا، في زحمة القلق والظلمة؟

أعيش، هنا، مشاعر متناقضة، أغبطهم (الله يهنّيهم، ويتم عليهم، كما نقول بالشام) أعزّي نفسي، وأنتفخ قائلة: أنا ابنة ميراث الأحزان! فإذا قفزت هاربة من هذا الميراث، لاحقني قانون العيب! كثيراً ما كان الكبار يزجرونني، حين تصخب ضحكتي!

المهم الآن، وقد بلغتُ الخمسين، عليّ أن أبحث عما يسعدني! فقد ذهب من العمر أكثر مما بقي (هذا ما كانت تردده أمي) هيا غيّري نفسك! قفي إلى جانبها، انبشي عما يفرحها، ثم فكري بأن تُفرحِي غيرك!

هيا ابتسمي يا ابنتي! ارضي بما حققته! من يستطيع الحصول على كل ما يرغب في هذه الحياة!؟ هيا ابذلي جهدك في العمل! أ ليس هذا ما يسعدك؟ أ ليس هذا ما يجعلك تتألقين عطاء وحباً؟ أ لا تلاحظين فرحك، ينعكس في وجوه أحبابك!

احمدي ربك أنك استيقظت قبل فوات الأوان! اشكريه على ما منحتك من نعم!

* *

اجتمع الثلاثي المرح (صديقاتي الفرنسيات اللواتي عشن معاً في سورية: فلورا، داليدا، ليلي) في باريس، تلقيت دعوة للقائهن في المطعم، فاعتذرت، لدي شغلي في البحث، وربما لأنهن سيتحدثن العربية، وأنا أريد تطوير فرنسيتي، كما أنني أكره الأكل في الأماكن العامة، التي لاحظت أنها باتت ضرورة حياتية للفرنسيين وربما لغيرهم!

أحب صحبة هذا الثلاثي، كان بإمكاني تأجيل الشغل، فأنا أعمل صباحاً حتى الظهيرة! لكنني أتردد في الذهاب إلى المطاعم! هل هو المزاج؟ أم العمر؟ أم الرغبة في الاقتصاد؟

* * *

الجمعة 2007/12/21

حدّثتني المدام، اليوم، عن أصدقائها الإسرائيليين، الذين يعيشون في أمريكا، بكل اعتزاز، إنهم يتقنون عدة لغات! أحسست بالغيرة تنهشني! لماذا أعاني من الضعف في لغة أجنبية واحدة؟ لكنهم لم يعيشوا الظروف الصعبة (الفقر، الجهل، ضعف البصر...) التي كافحتها! ولدوا وفي فمهم ملعقة من ذهب! لا تدافعي عن نفسك، الجميع يعاني في هذه الحياة! كفي عن النق! لا تعودي للاتكاء على منغصات، تعيدك إلى الوراء! ابذلي أقصى ما تستطيعين من جهد؛ لتستفيدي من إقامتك! انتهزي الفرصة وطوّري نفسك، تعلّمي من الناس والكتب!

في الغربة نكتشف أنفسنا! هي في الأحوال العادية ظمأى إلى اهتمام الآخرين! فكيف حين تخنقها عزلة الغربة؟ لهذا تلوب باحثة عما يملأ فراغ الأهل والأصدقاء! كم أسعدتني القصيدة، التي أرسلتها (إديث أخت المدام، التي تهتم بالفن التشكيلي) عن السين، أحسست أنني محظوظة بهذه الأسرة، التي تهتم بالثقافة والفن؛ فينعكس ذلك على مشاعرها، التي تزداد مع الأيام رهافة وإنسانية!

* *

بعد الظهر حدث أمر أرهق أعصابي، تأخرت صديقاتي الفرنسيات(فلورا، داليدا، ليلي) عن الموعد (نصف ساعة) كان عليّ الانتظار في الشارع، قرب محطة المترو، قلت في نفسي: أتجوّل على الرصيف، أخفّف توتري! وأُسلّي نفسي بالتفرّج على المحلات، عوضاً عن النظر إلى دقائق الساعة! فوجئت بأحد الدكاكين، وقد علّق لوحة كبيرة (مجزرة إسلامية) ازداد توتري، إلى هنا لحقتني المجازر الإسلامية! ألا يكفيني حنظلة وهمّه!؟كل هذا يحدث في قلب باريس! كم بدا لي الأمر كريهاً وفظيعاً!

أدركت الفرق بين مشرق الوطن العربي (حيث نقول عن محل بيع اللحوم: ملحمة) وبين مغربه (حيث يقولون مجزرة يا للهول!) كان عليّ أن أنتظر صديقاتي، اللواتي تأخرن، وأنا أتميّز غيظاً من عرب، يشوّهون لغتهم ودينهم معاً! ومن الشباب الفرنسي، الذي بات لا يحترم مواعيده! إنه لا يريد أن يتخلى عن أنانيته، إنه يستمتع بوقته في مطعم ما، ونسيني! لا. عليّ أن أكون منصفة، حين رفضت الذهاب معهن إلى المطعم! لم يتركنني، دعونني لنتمشى في (الشانزليزيه) لرؤية زينة عيد الميلاد ورأس السنة! ها قد تحوّلت متعة التنزّه إلى صفعة، أتلقاها أمام المجزرة الإسلامية! قلت في نفسي أول ما ألتقيهن، سأعاتبهن على ذوقهن في اختيار محطة (قرب المجزرة) مكاناً للمواعيد!

لاحظت، هنا، أن الشباب، غالباً، لا يحترم المواعيد! على نقيض الكبار، ترى هل أفسدتهم الإقامة في الشرق؟ عليّ ألا أعتب، فهذه المشكلة أعاني منها في بلدي لدى الشباب والكبار!

* * *

2007/12/23

كتبت إلى أختي صفاء "اتصلت اليوم بالأديبة (روعة) حدثتني عن حزن يبعثرها، ويقتل رغبتها في الخروج من المنزل، إذ فقدت شهية لقاء الناس! فقلت لها: كأنك تطبقين، هنا، في باريس (العِدة)! التي تعني أن تعيش المرأة لحظات صفاء مع نفسها! تتأمل فيها معاني الحياة والموت! مما يعيد الطمأنينة إلى روحها! لهذا شرّعها تعالى!

جاء ابنها من أمريكا؛ ليمضي معها عطلة عيد الميلاد؛ مما يجعلني أطمئن عليها! إنه خير من يخفّف عنها وحدتها!

ليتك، يا صفاء، ترين (مدام بونور) تحاور من أجل القضايا العامة، فتتحول إلى امرأة حماس وغضب على (ساركوزي وبوش) على نقيض زوجها الذي يبدو هادئاً، يتابع باهتمام أخبار (المذياع) صباحاً مثل أبي رحمه الله!

تخيلي لم تكتفِ أخت المدام بإرسال أغنية عن السين مكتوبة، بل جاءت المدام، وقالت لي: هل تسمحين باستعمال الكومبيوتر، وحين انتهت اكتشفت أن صوتاً يغني للسين! إنهم يغذّون عشقي له ولأبنائه الرائعين!

* *

زرت الشانزليزيه برفقة الثلاثي المرح، وقد أُضيف إليهن أم (داليدا) وأختها وأخيها، كان لقائي بأمها حميماً أوحت لي بالثقة والطمأنينة، تخيلي أتت إلى باريس، وقطعت مسافات طويلة (أبعد من المسافة بين دمشق وحلب) من أجل زيارة المعارض الفنية! وكي تعود بصحبة أولادها!

ما إن رأيت الأضواء المذهلة، التي تزين كل شجرة من غابة أشجار الشارع الطويل على الجانبين، حتى فغرت فمي! أذهلني هذا البذخ، الذي يفترش الأرض والسماء، تذكرتُ مثل أمي "مصاري المجانين على بلاط الحمميم" هنا يرمون أموالهم على بلاط الشارع لا الحمام!

لم أستطع السيطرة على لساني، الذي انفلت قائلاً لصديقاتي: يخرّب بيتكم كم أنتم أغنياء! ثم أردفت: كل هذا من خيرات بلادنا، استنزف أجدادكم دماءنا! ليحوّلوها إلى زينة!

أحسست أنني أمام أضواء ظالمة الجمال، تصفع الأحلام، وتهزأ بالخيال! دفعوا من أجلها الملايين، في حين، يتضوّر الناس جوعاً في آسيا وأفريقيا...الخ أين العدل؟ أين الإنسانية؟ أحسست بغربتي، وقد أظلمت في أضواء الشانزليزيه! في تلك اللحظة! اشتد حنيني إلى صديقي السين، يفتح ذراعيه لي، ويبث همسُه حولي الجمالَ والسكينة!

تلقيت اليوم هدية (نويل) من المدام، إبريق زجاجي أضع فيه الزهورات، فوقه غطاء (ستانلس) يغطيه من أوله إلى آخره وفي داخله مصفاية، لا تتخيلي كم فرحت بهذه الهدية المدروسة، التي تلبي ذوقي وحاجتي! في حين قدّمتُ لها الصينية ذات المنمنمات الشرقية، ولزوجها حمّالة أقلام مصدّفة!

ذهبت مع (فلورا) إلى السينما ثمن البطاقة (10 يورو ما يقارب 700 ليرة) كانت السينما على قناة في السين، هناك مركب؛ لينقلنا إليها، ويعيدنا حين نخرج، هنا الفن في كل شيء حتى في طريقة الوصول إلى صالة العرض!

المهم أن حنظلة ما زال مصرّاً على ملاحقتي أينما ذهبت، كان الفيلم عن فقر المهاجرين المغاربة في فرنسا! وكيف يقاوم هؤلاء من أجل عيش أفضل!

طبعا والدا (فلورا) حضرا الفيلم قبلها، ونصحاها بحضوره، فقد كان اليوم الحوار، يدور حوله على مائدة الطعام!

خذي هذه الفكرة التي تعلمتها من (فلورا) حين أرادت أن ترى صديقة قديمة، واعدتها أمام السينما، وبذلك تضرب عصفورين بحجر واحد، ترى الفيلم وترى صديقتها في وقتٍ واحدٍ، ليتك ترينها وهي تركض مسرعة، وتصعد درجات محطة المترو درجتين درجتين! الكل مستعجل هنا، لم أجد أحداً لا يلهث سوى الرائعة (داليدا)!

لفت نظري بالأمس في طريق العودة إلى البيت، كيف وضعت بلدية باريس أرجوحة جميلة للأطفال بمناسبة العيد (على أحد الأرصفة) تساءلت: هل توجد هذه الظاهرة في الأحياء الفقيرة يا ترى؟

صفاء ربما انقطعت أخباري، سأتحدّث معك عن طريق الجوال، إن لم استطع الكتابة! لا تقلقي فأنا في رعاية داليدا المجنونة! سلامي إلى الجميع."

* * *

2007/12/24

كم فرحت بدعوة صديقتي (داليدا) لزيارة أسرتها في الشمال (ساحل بروتاني) تسلّحت ببهاراتي الشرقية والزهورات والفول (النابت) والحلو الشرقي و...أشياء قد لا أجدها في فرنسا! كي يسهل عليّ غزو قلب أمها وإخوتها!

إنني لم أعتد على العيش عالة على أي إنسان! وفي الوقت نفسه، لا أريد أن أؤذي مشاعر صديقتي، التي لاحظت أنها تحب ممارسة عاداتنا في الكرم! لكن الوضع، هنا، يختلف، حتى في بلادي، أصبح وجود

الضيف مدة أسبوع عبئاً، لا يحتمله كثير من الناس! اتخذت قراري أن أُخفّف، وأن أسعد أم (داليدا) وأخويها(سالي: جاءت من إيرلندة تعمل في مطعم، تركت اختصاصها في علم النفس، فهي لا تحبه، أما ريمي فقد جاء من أمريكا، اختار أن يكون عاملاً في سينما، بعد أن فشل في إتمام دراسته)!

سهرت مع العائلة ليلة عيد الميلاد، وضعت الأم الهدايا (معها بطاقة معايدة مكتوب عليها اسم أولادها) بجانب شجرة عيد الميلاد، ودعت كل ولد من أولادها إلى تسلم هديته، ثم دعتني كأولادها؛ لأتسلّم هديتي، كم تأثرت لمعاملتها الراقية، قفزت فرحة كالأطفال! كانت سعادتي بطقس تقديم الهدية، قدر فرحي بها!

اجتمع على مائدة عيد الميلاد الشرق والغرب! أكلت الفول (النابت) إلى جانب القواقع، التي كانت مدهشة! استمتعت بتذوقها، بفضل أسلوب صديقتي (داليدا) في إقناعي قالت لي، بما أنها تعرف أنني مجنونة بحر: (أكل القواقع يجعلك تحسين بطعم البحر) لم أذق شيئاً آخر، رغم نصيحة جارتهم (التقيتها قبل الاحتفال، عاشت عدة سنوات في القدس مع زوجها الدبلوماسي)قالت لي: (إذا أكلتِ طعام الفرنسيين تعلمت لغتهم بسرعة) يبدو أنها لاحظت ارتباك لساني! لم أسمع النصيحة! لهذا بقيت فرنسيتي نص نص!

* * *

2007/12/27

أعيش حياة مدهشة، أشبه بحلم جميل! أزهرت روحي في صحبة (داليدا) وأمّها! فأذاب حنو الصداقة غربتي! ها هي ذي روحي ترفرف بحرية؛ لتذوق نكهة جديدة للحياة!

لم أشعر أنني ضيفة في ذلك الكوخ الحلم (الذي يتألف من طابق أرضي، فيه غرفة جلوس، ومطبخ موصول بها، يعلوه طابق، يحتوي على غرفتي نوم ومنافع)

أسعدني العيش في ظلال صديقتيّ، تحررت من قيود الزمان في الأكل والنوم! لكن جاري (الكلب) نغّص إقامتي! تفرّغ لملاحقتي، حيثما ذهبت، أدهشتني مكانته الرفيعة، التي يحتلها! مثلما أدهشني ولاءه لأصحابه ولضيوفهم، إذ من حقّه، أن يحتكّ بهم في أية لحظة، حتى أثناء الطعام، ها هو ذا يهزّ ذنبه ترحيباً بي! لم أكن أستحق مشاعره الودودة، إذ لم أستطع مبادلته إياها! ماذا أفعل لا أستطيع النفاق حتى مع الحيوان؟

كانت لحظة تعارفي بـ(جيل) مشبوبة بالقلق والخوف! ما إن هممت بركوب سيارة أم (داليدا) لمرافقة أسرتها إلى (بروتاني)حتى اكتشفت أن عليّ أن أجالس رفيقاً، لم أعتد عليه في حياتي! كان كلباً كبيراً أسود، يقبع خلفي، عكّر صفو رحلتي، منذ لحظتها الأولى، إذ بدأ يقوم بواجب الضيافة؛ فكان يحاول مرحباً، دسّ أنفه بيني وبين صديقتي، وأنا قليلة الذوق، لم أقدّر تكريمه! بل أحسست بالتوتر والخوف! وبدت علائم الاستياء على وجهي؛ لذلك قالت لي الأم: لقد أنهى قبل قليل وجبته من الأطفال، ولن يأكلك!

هذّبت نفسي، فأنا ضيفتهم، وضيفة كلبهم أيضاً! وبما أنه يقابلني للمرة الأولى، فقد أراد أن يبالغ في الترحيب بي، فأدنى رأسه، يشمشمني، ويهمهم، عندئذٍ مُلئت رعباً، ووجدتني أصرخ! هبّت لنجدتي (سالي) وبادلتني مكانها، فجلست بعيداً عن تحيات (جيل) ولمساته الحانية والمرحبة!

حين ذهبنا مساءً إلى النزهة، فوجئت أن من حق الكلب مرافقتنا! قالت لي صديقتي: لن يقترب منا! اطمأن قلبي! لكن (جيل) بدا حسّاساً

ومضيافاً أكثر من اللازم، خاصة أنه لاحظ اضطرابي! فأراد بشهامة إزالة الحواجز بيننا، حتى إنه غيّر عاداته احتراماً لي، فتقدّم مني، يريد تهدئتي على طريقته! وبذلك كذّب صديقتي، واقترب؛ ليلامسنا، هنا، أحسست بالقلق، لكني، لم أولِّ هاربة، لأنني إذا فعلت ذلك، سيلحق بي، هذا ما تعلّمته، حين كنت أدرّس في ريف درعا، وربما كانت هذه خبرتي الوحيدة في التعامل مع الكلاب!

قالت لي صديقتي ضاحكة: إنه يحتفي بك! رددت عليها مستفزّة: لعنة الله على هذا الترحيب!

لاحظت في (بروتاني) أن الجميع، يعيش في صحبة كلب، كم أنا محظوظة، إذ أسكن في (باريس) لدى عائلة، لا تربّي كلباً!

كانت المفاجأة الكبرى صباحاً، حين اقترب الكلب؛ ليشاركنا المائدة! عندئذ أعلنت تمردي! حملت بكل لطف وتهذيب كأس الشاي، وقلت سأشربه بعيداً! كأنني أقول لهم: (إما أنا على المائدة، وإما الكلب، هيا اختاروا!)ما هذا الدرك الأسفل، الذي وصلتُ إليه! فقد دارت الأيام بي، لأجد نفسي في كفة والكلب في كفة أخرى!

أبعدوه إلى كوخه، عندئذٍ تنفست الصعداء! وبدأ حوار المائدة مع أم صديقتي، الذي اعتدته لدى عائلة (بونور) فقالت، تدافع عن كلبها (الذي ربّته كل شبر بندر، كما تقول أمي)

– إنه لطيف، غير مؤذٍ، نظيف، أحمّمه كل أسبوع، يعيش معي منذ أكثر من عشر سنوات! لا أجد غيره، يؤنس وحدتي، منذ تركني الأولاد، ليعيشوا حياتهم، ويبحثوا عن مستقبلهم!

– أنا أتفهم أهميته! لكنني لا أستطيع أن أمحو فكرة أن الكلب قذر، مهما نظّفته، يأكل كل شيء، ويدسّ أنفه في الأوساخ، هل تستطيعين مراقبته، طيلة اليوم؟ ألا ترين أن ملامسته، تنقل لنا الكثير منها، دون أن نشعر!؟

- لكن انظري إلى حياتنا، ألا يعشش فيها الكثير من الأوساخ!
- لِمَ نزيدها؟ ثمة ميكروبات لا نحسّها! لكن مع الكلب نتأكّد من وجودها!

لاحظت أن كلاً منا، يتمترس حول ما يؤمن من معتقدات، تربّى عليها! لكنني تعاطفت معها! وعذرتها بيني وبين نفسي! حين حدّثتني عن وحدتها في الريف، وعن حاجتها إلى أنيس، يطرد وحشتها! لم تجده بين البشر، فجاء الكلب؛ ليعوّضه! عندئذ ازددت احتراماً لـ(جيل)! لكن يبدو أن المشاعر شيء والاحترام شيء آخر!

كم أحسست أم (داليدا) قريبة من روحي، أ لا يبني حوار حميمي، في جلسة واحدة، جسور صداقة، لا تستطيع عشرات السنين بناءها؟

حدّثتني عن كفاحها من أجل تحقيق حلمها في أن تعيش قرب البحر! أطلعتني على أعماق امرأة من شعر وحلم، تنسج أيامها بيد فنانة، فتنطلق حرة، لا يسندها سوى الجمال والطبيعة!

هذه أول مرة في حياتي، ألتقي امرأة تعيش حلماً، صنعته إرادتها! إذ بيديها جعلت بيتها أشبه بكوخ، جاءت بعامل، تعلّمت منه، وصارت تضع قطع الخشب (المستطيل والرفيع) على جدران بيتها كلها! من أجل أن توحي لنفسها، ولمن يزورها، بأنها تعيش في كوخ! ودائماً حين يأتي الأولاد، يكتشفون أنها أضافت بيديها ديكوراً جديداً!

أدهشني أن أعيش، بفضل ديكور كوخها، زمنين في وقت واحد؛ لهذا قلت لها: أنت تعيشين حياة فريدة، تمدين يدك اليسار إلى الماضي، فتضعي الحطب في مدفأة (بدائية)ثم تمدين يدك اليمين إلى الحاضر؛ لتتصلي بـ(النت)

أعتقد أن الحب أسرع طريق يوصلنا إلى الآخر! مما يسهل علينا بناء روح التفاهم بيننا وبينه! نأخذ منه ونعطي! فنستطيع عندئذٍ أن نرقى بأنفسنا وبعلاقاتنا الإنسانية!

أعجبتني طريقة حياتها! إنها تعيش على راحتها! تأكل بهدوء، كأنها تتذوق كل مكون من مكونات لقمتها على حدة! تتحدث بحنو، تحلّق بعيداً عن التوتر! تحب الانطلاق والمغامرة في الطبيعة، وممارسة التأمل فيها!

تبدو راضية بحياة، شكلتها أنامل الجمال، فهي تارة في صحبة موسيقى ولوحات تشكيلية، وتارة أخرى في صحبة كتاب! بدا بيتها مزرعة كتب، تنتشر في كل مكان، حتى إنني وجدت رفّاً لها في المرحاض، بل وجدت فوق (كرسي الحمام) كتاباً ونظارة! تذكّرت (ماركيز) الذي أنهى قراءة دونكيشوت، وهو جالس على ذلك الكرسي!

فوجئت بها مساءً، تطرق باب غرفتي، لتعطيني كيسيّ ماء ساخن! كي أقاوم برد الشمال، دفّأني فعلها هذا، هزّتني حساسيتها، مثلما غمرتني إنسانيتها! تذكرت قول صديقتي (داليدا): أنا مدينة لأمي في كل شيء (الحياة، حب المغامرة، والسفر...) بدت لي في عمر أولادها، تمزح معهم، تستمع إليهم وتحاورهم في أمور الحياة، كأنها صديقة لهم! تساءلت بيني وبين نفسي: هل تجد مثل هذه المرأة رجلاً يفهمها؟ هل من الغريب أن تعيش مطلقة؟

* * *

الخميس 2007/12/28

ما زلت أثير استهجان (أم صديقتي) بسبب نفوري من الكلب! وهي لم تيأس من سعيها لتأسيس تعايش سلمي بيني وبينه! تمدحه بأعذب الصفات:

– إنه هادئ، لا يؤذي، انظري كم هو لطيف!

– إنه قذر، بالأمس شاهدته، يدسّ فمه وأنفه في مؤخرة كلبة، صادفها على قارعة الطريق!

– ألا تلاحظين بأن السفر، يعرّض الإنسان إلى كثير من الأوساخ! سألتها:

– كيف؟

– سأعطيك مثلاً: دخلنا مرة على عائلة مصرية في الريف، شربنا الشاي، رغم أنها كانت في غاية الفقر والقذارة!

– لكن ثمة حداً أدنى للنظافة لدى الإنسان، بالنتيجة أنت شربت ماءً مغلياً مع الشاي!

– لكن الكأس لم تكن نظيفة!

– ألا يعقمها الماء المغلي!؟انظري إلى الحيوان، ألا يعيش على طبيعته! التي لا تهتم بالنظافة؟

– من واجب صاحبه أن ينظّفه! فرق بين حيوان يعيش في البرية، وبين حيوان يعيش في رعاية إنسان!

ظل الكلب بطل حواراتنا! التي كنا نتبادل فيها الود والعجز عن الإقناع! استطعنا أن نزيل أيّ توتر، يورثه اختلاف وجهات النظر! خاصة أن حب الطبيعة جمع قلوبنا في رحلة، سلمنا قيادها إلى امرأة شغوفة بالجمال حدّ الذوبان!

حين هبطنا من السيارة، أحسست أنني أعايش، أول مرة في حياتي، طبيعة بكراً قرب البحر! نزلنا إليه عبر درج صخري! ثم مشينا فوق رمال مزينة بقواقع وصدف من كل لون ونوع! بدا لي البحر في اللحظة الأولى كئيباً، أشبه بصحراء رمادية! افتقدت سحر الأزرق، وهو ينشر غلالته على بحر بلادي!

كان الرمل مبللاً بفعل المد، كم تمنى قلبي السير عليه حافي القدمين! كبّرت عقلي، وقلت أنت في شتاء قارص! ألا ترين حصار الجزمة الطويلة، وقيود أربطتها الكثيرة!؟ إنهم، هنا، يخصّصون لكل رحلة حذاء خاصاً بها؛ لهذا أعارتني (أم صديقتي) جزمة، تختصّ بخوض مغامرة السير على الصخور الكبيرة! لاحظت أنها سبقتني بمراحل! في حين وقفت مرتعبة أمام عظمة هذه الصخور، التي عليّ السير فوقها! شجعتني صديقتي (داليدا) وبدأت تعلّمني، كأنني طفلتها الجبانة: كل ما عليك فعله، هو أن تثبّتي قدمك على الصخرة، وتنتقلي إلى أخرى؛ لتثبّتيها ثانية، وهكذا...اشتعل خيالي الملعون، وبدأ الرعب ينسج أوهامه؛ فتقافزت أمامي صور مخيفة، أطاحتني أرضاً! كأن خيالي موكل بالمبالغة في كل شيء! فصرخت في وجهها: لا محالة سأقع! ماذا أفعل إذا كُسرتُ! ألا أفسد الرحلة على نفسي وعلى غيري!؟

ردّت عليّ صديقتي بمنطق هادئ، وقد أخذتني على قد عقلي، الذي طيّره الرعب! فقالت: لِمَ تخافين من مجموعة صخور!؟ حتى الوقوع في أسوأ الأحوال، لن يكون شديد الأذى، ستصابين بخدوش صغيرة لا أقل ولا أكثر!

قلت في نفسي: لا يبدو الأمر صعباً! هيا تحدّي خوفك! لا تستسلمي له، ألا تعرفين أن الإصغاء لنداء الخوف يدمّر روحك، ويلتهم ثقتك بنفسك، لا تسمحي له أن يعيث فساداً في رحلتك؟! إنه يسرق منك المتعة، ويترك لك الغصة!

أنقذني منطق صديقتي ويداها الطيبتان، فتجرأت وثبّت قدمي على الصخرة، وأنا أزرع الثقة في نفسي، وأطرد أفكاراً سلبية، بدأت تطل برأسها! هيا تشجعي! هل تريدين أن تعيشي أسوار الجمود، وتحرمين نفسك متعة الاكتشاف؟! ما الذي تستفيدينه، لو سمحت للخوف، بأن يجرّك إلى عالمه المظلم!؟ لا! أنا أتيت إلى هنا؛ لأتذوق طعم

المغامرة! هيا انهضي بروحك بعيداً عن أوهام محبطة! بدأت أنتقل خطوة خطوة! وأنا أركّز نظري على الأرض كطفل في أول مشيّه، لاحظت أن خوفي بدأ يتضاءل مع كل خطوة، تحررت، في لحظة، من قيوده، واضطررته؛ ليفسح مجالاً للثقة بالنفس! ... ما إن رفعت رأسي، حتى عانقني جمال آسر! كأنه يهنّئني على سلامة الوصول! ويكافئني؛ لأنني تحدّيت ما يحرمني من مغامرة تذوق الطبيعة البكر! أصبحت في تلك اللحظة كائناً واحداً، قُدّ من سماء وبحر وصخر!

قادتنا (أم صديقتي) في طريق جبلي رفيع! كلما ازداد صعوداً ازددت ذهولاً، سمّرني مشهد، ينبض روعة وسحراً! منحه نور الشمس بهاءً!

اختارت لجلوسنا بقعة في قمة معشبة! غمرني إحساس بالسكينة، خفق الفرح؛ لينعش روحي والكون كلّه! فقد أصبحتُ ذرة ذائبةً في حضن جمال مهيب، عندئذٍ انطلق لساني، عفواً، قلبي؛ ليقول: سبحان الله!

منحتني جلستنا هذه جناحين، حلّقتُ بهما بين زرقة السماء والأرض! تأملت عظمة كون، غزلته أشعة زرقاء، تلتمع بفضة سحرية، سكبتني قطرة فيها! فتساءل قلبي الخاشع: أيمكن أن يكون هذا الجمال عبثاً أو صدفة!؟

أحسست، هنا، أنني ملكة الكون! باتت كل الصغائر لا تعنيني! كل الحاجات الدنيوية تافهة في نظري! ما عدا كأس من الشاي أو القهوة! ولكن ما هذا التفكير الدنيوي؟ هيا ارتقي بنفسك، وأنت ترتشفين الجمال!

تخلّت روحي عن أثقالها! أشفقت لحال أولئك الذين لا يعايشون الطبيعة عن قرب، كم تقسو قلوبهم! خاصة حين يسلب حب المال روحهم! فلا يتذوّقون الحياة، ولا يحسّون نبضها!

تمنيت لو يملك كل البشر قدرة التأمل في حضرة الجمال! عندئذ يتطهّرون من كل ما يلوّثهم! فينقذون أرواحهم من البشاعة والشر! تساءلت: ترى هل يمكن للمرء أن يعتاد الجمال! هل يرفع الصياد رأسه، وهو صديق البحر؛ ليتأمّل ذوبان السماء والأرض في أزرق لا متناه!؟ كم نحن فقراء جمال، إنه بقربنا، لكننا لا ننتبه إليه، تشغلنا صغائر الحياة والواجبات عن الاستمتاع به! حتى في زحمة المدينة بإمكاننا أن نعايش الجمال، يكفي أن نرفع رأسنا إلى السماء؛ لنرى زرقتها المهيبة! ونتأمل ما صنعته ريشة الغيوم من لوحات ساحرة، تتغيّر أشكالها بين فينة وأخرى! فتحلّق أرواحنا، بأبسط وسيلة، في معرضٍ فني للجمال والدهشة! ولكن من يملك وقتاً؛ ليرفع رأسه؛ ويتأمل؟؟

انطلقت (أم صديقتي) تحدّثني عن تجربتها السنة الماضية في الحج إلى الطبيعة (بين فرنسا وإسبانيا) التي استمرت شهرين، قلت لها: ذكّرتني برواية (باولو كويلهو) "الحج إلى كومبوستيلا" قالت: إن عيش التجربة أجمل بكثير من الرواية! بيّنت لي أن حياتها، اغتنت أكثر بعد هذا الحج! ملأها الإحساس بالجمال حبوراً، فتمكنت من رؤية كل شيء حولها يعبق برائحة جديدة، حتى إنها تقبّلت برضا ما كان يزعجها (شخير الحجاج، الذين يشاركونها مكان الإقامة) قلت بيني وبين نفسي: كم نضيّع معاني الحج حين نحصره بطقوس مادية فقط!

بدت لي، وقد تجاوزت الخمسين، ترتشف حياتها لحظة بلحظة! صارحتني: لم يعد لدي وقت لأضيّعه! أجبتها: فعلاً لن نستطيع القبض على الزمن! انظري إلى خطواته السريعة، تسرق أعمارنا في غفلة منا! إنه يعدو دون توقف، غير مبالٍ بانتهاء رحلتنا الأرضية!

شرد ذهني قائلاً: كم نحن أغبياء، حين نستسلم لقبضة زمن مضى! فنسمح لذكريات مؤلمة بخنق حياتنا! ليتني أنجو، مثلها، من هموم

يومية، قد تسلبني كنوزاً، يخبئها الحاضر بين جوانحه! عليّ ألا أذعن لصفعات، تنغّص أياماً قليلة متبقية لي في هذه الدنيا! فأستمتع بلحظة أعيشها الآن، ولا أملك سواها!

نبضت هيبة الصمت في عروقي! فاستيقظت حواسي أمام جلال كوني! كم تنتعش قوانا الداخلية أمام الجمال! ألا تتنبّه ذائقتنا من غفوتها! فتزهو أعماقنا بالفرح؟ ألا تتحولّ أرواحنا، عندئذ، إلى عبق، يسبح في ملكوت الحب، ليعطّر بشذاه البشر جميعاً؟

هأنذي أعيش لحظة حقيقية، لبيت فيها نداء القلب! وجدت نفسي أصلّي دون كلمات، دون أن أحرك شفتي! هذا ما علّمتني إياه لغة الطبيعة! التي تتجه إلى الروح مباشرة؛ لتعشّش فيها أنبل المشاعر! تمنيت لو يستطيع تعلّم تلك اللغة كل إنسان! إنها تحتاج إلى مؤهل بسيط، هو إتقان لغة القلب ويقظته؛ مما يفسح المجال للتأمل، والانطلاق بعيداً عن أية حدود! فيسافر الذهن في صحبة المشاعر متحرراً من قيود الزمان والمكان والهم! فنزداد رهافة، تتيح لنا تذوق بهاء الحياة، عندئذٍ يغتني وجداننا، وينتعش إحساسنا بالسكينة! كنت أردّد دون شعور: سبحان الله! أدى قلبي، هنا، صلاة خاشعة! ملأتني قوة، تحفّزني على تقبّل متاعبي، والرضا بالقليل! لم أعد آبه بقبح، لن أستطيع تغييره!

بدت لي تجربة الحج إلى الطبيعة، تكاد توازي الحج إلى الأماكن المقدسة! خاصة أننا حين نتأمل جمال الكون بصدق إحساسنا، تنكشف أمامنا أعماق براءتنا! إننا، ههنا، نحس كأننا نمسك بزمام الزمن! فنرمي بهمومنا من نافذته، فتنفتح مغاليق نفوسنا أمام زائر، يبث فيها الحبور والرهافة معاً!

* *

حين عدت إلى البيت منهكة القوى! كان الخبز والجبن والشاي ألذّ طعام في الوجود! لأول مرة في حياتي آكل الجبنة الفرنسية بمثل هذه الشهية! لا أدري لِمَ لم يخطر ببال صديقتي (الزيت والزعتر) في تلك اللحظة، هل هي العودة إلى الجذور؟ لعلها تريد الاحتفاظ بالزعتر، الذي تعشقه، لنفسها! وأنا خجلت من طلب ذلك! إذ لا يحق لي أن آكل من هديتي، كأنني سمعت صوت أمي يقول: عيب "جحا جاب، وجحا أكل"!

* * *

2007/12/29

نسجت الطبيعة قرابة بيني وبين أم صديقتي، أدهشني اعتذارها بالأمس؛ لأنها لم تقدّم لي سوى الخبز والجبنة! فنطق قلبي: إنه ألذّ طعام ذُقته في حياتي! فقد كان في صحبة مشاعر مدهشة! فقد أشبع جمال الطبيعة والبشر روحي!

أصرّت اليوم أن نتغدى قبل خروجنا! بعد أن لاحظت إنهاكي بالأمس! ثم رحلت بنا إلى مدينة (سان مالو) لأشاهد سوراً قديماً، يشرف على البحر، كان الطقس مكفهّراً، قلت بيني وبين نفسي: لو كنت في بلدي لما خرجت من البيت للنزهة! لكن للفرنسيين طريقتهم في التمتع بالطقس في كافة أحواله!

وصلنا إلى سطح السور، بعد أن صعدنا سلماً حجرياً، فبدا لي المشهد آسراً، زخرفته غيوم، تتموج بينها أشعة برتقالية وصفراء ورمادية، نثرتها شمس المغيب! فنشرت غلالة سحر، تضم السماء إلى الأرض! ملأتني نشوة البحر، فطارت بي نحو إلى عالم مدهش، استطاع

أن يجدّدني بلمساته الأثيرية؛ ويطرد قلقي! إنها المشاعر نفسها، وأنا أعانق أزرق بلادي!

حين وجدنا أنفسنا أكثر قرباً من البحر! كل ما علينا هو تجاوز بضعة صخور حتى نلامسه، ملأنا هديره طرباً! لاحظت نفسي، كيف سرت غير مبالية، وقد غاصت قدميّ في رمل غمره البحر بحنانه! كنت مأخوذة بجمال بهي، أذهب عني الخوف والمرض والبرد، رغم أننا في عزّ الشتاء! فقد زوّدني البحر بقوة روحية! أستطيع بفضلها محاربة كل الأحزان والمتاعب والأمراض!

حين اقتربنا من بوابة السور، أحسست بشيء، يشدّني للبقاء! عجزت عن مفارقة هذا المشهد الفريد! الذي رسم بهاءه في روحي، فأحسستُ كأنني غيمة، تسبح بين غيومه، وفي لحظة أخرى موجة تطير على شطآنه! منحني لقاء البحر وتأمله لحظة استثنائية، قلما عشتها في حياتي، حتى قلت لصديقتي:

- أنا الآن في حالة صلاة! أشكر ربي على هذا الجمال! وينطلق لساني بسبحان الله! والحمد لله!
- فردّت: أنا أفكّر بالتمتع بالجمال فقط!

* * *

السبت 2007/12/30

تطير بي (داليدا) مثل أمها، إلى عالم مفعم بالدهشة، يجدّدني، يقذف بأحزاني بعيداً! بدأت خفقات قلبي، تعانق السكينة، بعد أن أنعش الجمال روحي!

مشيت وصديقتي في طبيعة، لم تتدخل يد الإنسان فيها، إلا لتجعل المشي أكثر سهولة ومتعة! حدّثتني عن اهتمام الدولة برياضة المشي في الطبيعة؛ فتختار من أجلها أجمل الطرق! كنا نمشي برفقة البحر (على يمينا) والخضرة (على يسارنا)،سرت مبهوتة بسحر، تتصافح فيه الخضرة بزرقة، لم تعشه روحي من قبل!

حين تأملت روعة هذا الطريق، لم أستطع إلا أن أقارن بين من يرعى الجمال، ومن يرعى القبح، حقدت على كل من يحرم الإنسان متعة بسيطة كمتعة المشي في حضن الطبيعة! إنها متعة بسيطة؛ لكنها عظيمة التأثير على أعماقه! إنها تمنحه البهجة، وتجدّد روحه معاً! آلمني اغتيال الوطن بسرقة خيراته، وتشويه جماله! إنهم لا يعرفون فداحة جرمهم! فهم حين يدمرون الطبيعة يدمّرون الإنسان معها؛ لهذا لن نستغرب ضياعه في ظلمة البشاعة والكراهية!

سألت صديقتي عن تونس، التي تدرس فيها، بعد أن تركت سورية، فقالت: إنهم يجمعون التخلف الإسلامي إلى مساوئ الغرب! وأعطتني مثالاً، كيف تُسمّى المرأة التونسية باسم زوجها! أزعجني قولها (التخلّف الإسلامي) فقلت: إنه تخلّف المسلمين من فضلك، الإسلام بريء من تصرفاتهم!

وحين سألتها: ماذا عن فرنسا؟ أجابت: إن الوضع يزداد سوءاً! بات هجوم الرأسمالية أكثر شراسة! ما يخيفنا اليوم، أن يصبح التعليم الجيد حكراً على الأغنياء، الذين يستطيعون دفع الرسوم!

* * *

2007/12/31

زرنا اليوم الشاطئ قرب الكوخ، تغيّر المشهد، بدا أكثر مهابة، مشيت فوق جسر، يمدّ لسانه إلى قلب البحر! الذي أسرع بعناقي! فصرت نسمة في مائه! عندئذ تساءلت: هل تحلّق روحي في سمائه أم تسبح في أعماقه؟

كلما اقتربت من الطبيعة، تسكنني الطمأنينة، ويغادرني الخوف، فتنفتح أمامي، رغم كل البؤس الذي عشته، آفاق حياة أشبه بحلم جميل! انطلق لساني دون أن أشعر أحمد الله وأشكره، فقد أتاح لي تذوق الحج إلى الطبيعة، بعد أن أتاح لي الحج إلى مكة، غمرتني المشاعر نفسها، هنا، في (بريتاني) فحلّقت روحي، مثلما حلّقت في (عرفات)

أحسست كم أنا مدينة لأم صديقتي، التي لم تعطني غرفة نومها فقط، بل منحتني مغامرة، لا تنسى، في اكتشاف الطبيعة! إنها كنز إنساني، أو بالأحرى قلب يمشي على الأرض؛ لينثر الجمال حوله، إنها تجيد صنعه في بيتها وفي علاقاتها الإنسانية! قلت في نفسي: إنها استطاعت أن تقدّم لي مكافأة، دون أن تدري، فقد أنستني صفعات الحياة ومسؤولياتها!

سمعتها تقول، وهي تجلس على صخرة كبيرة، قبالة البحر: هذه أريكتي المفضلة!

قلت لها: إنها أروع أريكة في الوجود!

كلما انطلقنا إلى نزهة، أهجس بهذا السؤال: ماذا فعلت لأم صديقتي؛ لتغمرني بهذا الاهتمام والدلال؟ لم أقم إلا بأقل من الواجب، حين زارتني في دمشق!

حدّثتني عن ولعها بالبحر، وهو هائج، إنه بذلك يعلن عن نفسه، يبرز عضلاته وحقيقته! قلت لها: انظري كم هو خيّر يمدّ يده إلى الشاطئ؛ ليعطينا خيراته! أ ليس غريباً أن يزداد كرماً لحظة غضبه؟ أحسست أنها أقرب إلى روحي من كثير من أولئك اللواتي، يشاركنني انتماءات كثيرة، يبدو أن الجمال، يقرّب البشر، فيحيك نسباً، تقوى أواصره مع الأيام! كم تشتدّ حاجتنا إليه اليوم، بعد أن أظلمت دنيانا كراهية وحقداً!

تقاسمنا أمام مشهد الجمال خبز التأمل، فتألقت في داخلنا روح كون واحد، لا يفرق بين جسد وعقل...وبين شرق وغرب! كانت خطواتنا تتهادى على إيقاع هدير بحر ندي، لا يعرف الرتابة والخشونة، فهو مشغول بنثر جماله على البشر جميعاً!

ما زالت ترن في أذني ضحكتها، وقد انطلقت صاخبة عذبة، حين وقعت على الرمل! تساءلت: هل وقعت فعلاً!؟ أم أوقعت نفسها؛ لتعيش لحظة طفولية؟ سرعان ما انتقل إلينا وهج فرحها! فقلت لها: هذه أول مرة في حياتي، أرى امرأة تقع ضاحكة، دون أن تشعر بالحرج، أو أن أمراً كارثياً قد وقع!

تأملت نفسي، اليوم، كيف تبدلت مشاعري بين أحضان الجمال، فقد تنزّهت بصحبة الكلب، ولم أبالِ، ربما لأنه يعيش في فضائه الطبيعي، فهو يثير نفوري، حين يعيش في فضاء مصطنع!

أعترف بأنني مدينة للطبيعة، التي غيّرت نظرتي إليه، وصالحتني معه!

* *

لاحظت، هنا، الاهتمام بعيد الميلاد أكثر من رأس السنة، وضّحت لي (أم صديقتي) بأن عيد الميلاد يخصص للأسرة، أما احتفال رأس السنة فهو للأصدقاء!

قدّمت لنا أكلة تقليدية، وافقت مزاجي النباتي! يوضع على المائدة مقلاة كبيرة (أشبه بصاج) تحتها موقد صغير، تتوزع حولها مقالٍ صغيرة لها أيد طويلة على عدد أفراد الأسرة! فيحمل كل فرد مقلاة؛ ليضع قطعة بطاطا مع الجبنة الصفراء على المقلاة الكبيرة، أعجبني طقس الأكل الجماعي، قدر إعجابي بالموقد، الذي يدفئ، ويطهو الطعام؛ مما يضفي بهجة عائلية!

هتفتُ إلى أختي صفاء، وقلت لها: "إنني أعيش حلماً جميلاً، بفضل صديقتي وأمها، عبّرت لي عن فرحها، قائلة: كل هذا بسبب دعائنا لك!"

ترى هل يحق لي التعبير عن فرحي أمام إنسانة محزونة، فأزيد قهرها! هل آذيت مشاعرها! لكن أختي (صفاء) اسم على مسمى، تفرح لفرحي، وتحزن لحزني! لهذا أحدّثها بكل شيء! كل ما آمله أن أستحق أخوتها!

هتفتْ لي (مدام بونور) تعايدني بالسنة الجديدة! كم أفرحني ذلك! قلت لها: ليتك معي أنت و(مسيو بونور) لتتمتعا بمناظر الطبيعة البهية! أفتقدكم، والله، مثل أهلي في سورية!

أدركت، هنا، أننا حين نسيء فهم البشر، نسيء فهم الفضاء، الذي يعيشون فيه أيضاً! فنعمّم مشهداً، عشّش في ذاكرتنا، كنا قد رأيناه في مكان ما، أو قرأنا أخباره، أو سمعنا عنها! ... رسمت مخيلتي صورة مرعبة للشتاء في فرنسا، ربما بسبب إحصاء، كنت قد قرأته يقول: إن أكثر المنتحرين، بسبب الاكتئاب في الغرب، ينتحرون في الشتاء! فسعيت جاهدة أن يكون سفري إليها في الصيف! وحين لم أفلح، جعلته في الخريف!

اكتشفت في بروتاني جمال الشتاء، كما اكتشفت في حدائق باريس روعة الخريف! وبذلك عشت، هنا، تنوّع الفصول، لا أكاد أعرفه في بلدي!

كم أحسست بأن (أم صديقتي) تشبهني! إنها ترغب في أن تشارك الآخرين بما تحب! ربما كان ذلك جزءاً من طبيعة بشرية عامة، إذ تجعلنا المشاركة بالجمال أكثر استمتاعاً به، وبالتالي أكثر إنسانية ورغبة في التواصل مع الآخر!

أحسست بأنها تختلف عني، إذ تتشبث باللحظة، تمتص رحيقها، دون أن تبالي بماض أو مستقبل! إننا لا نعيش، حين نقارن أنفسنا بهم! وإذا عشنا لحظة فرح ما، نقضي وقتنا الباقي في النكد! كأننا نُعِزّ الهم والمسؤولية! لهذا ليس غريباً أن يبتكر العرب فن البكاء على الأطلال!

* *

أسعدني اليوم اكتشاف أن ثمة لقاء بيننا وبينهم في المعتقدات الشعبية، فقد لاحظت أنها علّقت على باب منزلها (حدوة حصان)! وحين سألتها عنها، قالت: إنها تجلب السعادة! فقلت لها: نعلقها في بلادي؛ لتردّ الحسد والأذى، نلتقي في النتيجة، إننا جميعاً نبحث عما يبعد الشرّ عنا! إذ ثمة أمنية في أعماق كل إنسان، مهما كان انتماؤه، أن يعيش سعيداً؛ لذلك يلجأ إلى أشياء، يتخيلها، ويربطها بغيبيات، تجلب له السعادة، وتطرد الأذى!

* *

تأملت قدرة الإنسان على التأقلم، عانيت، في اليوم الأول لزيارتي، من قسوة برد الشمال، بالأمس حين سألتني صديقتي: هل أُشعل لك

المدفأة؟ قلت لها: شكراً دفّأني حبّكم! فقد عشت لديكم أياماً حارة، وأنا في عزّ الشتاء! فتبخرت هموم حياتي وأحزانها!

أغمضت عينيّ، وأنا أشكر ربي، فقد وجدت في سفري كل ما أحلم به من دفء العلاقات الإنسانية، وجمال الطبيعة، تُرى ماذا فعلت لأستحق كل هذا؟!

هل يكافئني الله على ما فعلت من خير قبل سفري؟ لم أفعل سوى ما أملاه عليّ ضميري، حين مزّقت صك أمانة، كتبه لي ابن عمي (حامد) يثبت استدانته مني مبلغ مئتي ألف ليرة، توفي فجأة، وترك أيتاما!

لست قديسة، أول ما سمعت خبر وفاته، تساءلت، وقد هبط قلبي: كيف سأحصّل ديني؟ عشت صراعاً في داخلي بين حب المال وحب الخير، قاومت ضعفي البشري من أجل ألا أقتطع حقي من لقمة أبنائه، الذين أصبحوا يتامى!

* * *

الأربعاء 2008/1/3

عدّت من (بروتاني) وقد أزهرت في داخلي أفراح، لم أعرفها من قبل! فقد عايشت كيف يلتمّ شمل الجمال مع دفء العلاقة الإنسانية! اتسعت آفاق روحي؛ لتشمل الكون بعيداً عن أوهام حدود مصطنعة! لم أعد أحس بأنني في بيئة غريبة! بل ثمة روح واحدة، يخفق فيها الجمال والإنسان معاً! ازدادت بفضل هذه التجربة غنى! بات ذوقي أكثر رهافة! ومشاعري أكثر اتساعاً! كم تمنيت لو كان برفقتي جميع الأحبة!

لقد لمست روحي، بفضل أم صديقتي، أبهى المعاني (الحب، الجمال، البساطة، الحرية...) التي ترقى بنا! كم أثّرت بي سكينتها، وجِلستها التأملية في حضرة البحر! التي أبعدتها عن عصر السرعة، والحسابات المادية!

عند وداعي لها، قلت: كنت أرى أن العلاقات الإنسانية أهم من الطبيعة، لكن بفضلك عايشت النبل الإنساني وجمال الطبيعة! فأحسست بروعة هذا اللقاء وضرورته!

لاحظت كيف أسرعت بترتيب البيت، قبل أن نغادر! قلت في نفسي: إنها بدأت تشتاق لاستقلاليتها! مع أنها لم تقيّد نفسها بأولادها! كانت تفطر وحدها، خاصة أنها كان تستيقظ باكراً! كنت أتعمّد أن أتناوله معها، أحيانا أفلح وأحياناً أخفق! طبعاً كنت أفضل صحبتها على صحبة صديقتي، لأنني أحاورها بالفرنسية! حدّثتني بحنو، كأنني صديقتها منذ سنين، عن إيثارها للحرية، وكيف يتحوّل الزوج غير المتفهّم إلى قيد، يسجن روح المرأة! سألتني:

- لِمَ لم تتزوجي؟
- لم أجد رجلاً مناسباً، أزهر معه، ويزهر معي!

أبدت ملامحها استغراباً! فتابعت:

- أنت في الغرب، ولم تجدي المناسب!

قبل خروجنا من المنزل، طبخت لها، بعد أن استأذنتها، أكلة شرقية (مجدرة) كأن مخيلتي عجزت عن فعل شيء أو تقديم شيء للذكرى، لم تجد سوى الطعام؛ لتوّثق به المشهد الأخير للقاء الشرق بالغرب! أعترف بأنني عجزت عن إيجاد رسالة أخرى لأعبر فيها عن حبي!

* *

تأقلمت مع ظروف صديقتي (داليدا) فهي طالبة دكتوراه، السفر إلى باريس بالنسبة إليها مكلف؛ لهذا تسافر بطريقة (أوتوستوب) قلت أجرّب، إنها فرصة للمغامرة مع هذه المجنونة، أدهشني أن الأم تضع ابنتها على قارعة الطريق؛ لتأخذها سيارة عابرة، قالت لي صديقتي: هكذا نفعل دائماً! لكن لا أركب مع أي كان! أختار عائلة أو امرأة!

وقفنا في الخلاء، نستجدي سيارة، كانت كعادتها، تتحدث ضاحكة، غير مبالية، في حين كنت أداري قلقي، لأول مرة في حياتي أنتظر سيارة محسنة تقلّني، أحسست بأنني عديمة الكرامة، ربما لأنني مكتفية مادياً، لا أحب أن أرهن نفسي للآخرين! نهرني صوت مؤنّب في داخلي: أنت أستاذة جامعية، وفي هذه السن تفعلين هذا؟ هل أنت فقيرة، لتفكري بهذه الطريقة؟ ... لكنني أحب أن أرافق صديقتي، إنها الأنس والمرح معاً، لِمَ لا أشاركها مغامرة، لم آلفها في بلدي!..

توقفت سيارة بعد حوالي عشرين دقيقة تقودها امرأة، وتحتاج من يؤنسها طيلة أربع ساعات من السفر؛ وبذلك نقدّم لها خدمة مقابل خدمة! هكذا برّرت لنفسي اللّوّامة!

أجلستني صديقتي في المقعد الأمامي، وحين عطشت، قدّمت للمرأة، التي أغاثتنا، زجاجة الماء، كما تقتضي التقاليد العربية، فشكرتني مستغربة، فهم لا يقدّمون الماء بل يشربونه مباشرة! كما لاحظت استغرابها، حين (تزرنقت) فلم تلمس شفتاي الزجاجة! فقالت: أول مرة أرى هذا!

تحدثنا عن صورة العرب المشوّهة في الغرب! خاصة في قضية النظافة(لم تكن مصيبة الإرهاب، قد استشرت بعد) سألتني مثالاً، يوضّح كلامي، يبدو أن الفرنسيين لا يؤمنون بالكلام النظري، فحدّثتها عن المرة الأولى، التي أصنع فيها سلطة في منزل العائلة الفرنسية، سألني (مسيو بونور) هل غسلت الخضار؟ قلت له: وعقّمتها أيضاً!

وحين هبطنا لم أستطع إلا أن أعطيها رقم تلفوني في دمشق واسمي، لعلي أردّ جميلها، حين تزورني! ضحكت صديقتي عليّ، وقالت: هذا أمر طبيعي، هنا، لا داعي لمثل هذه الحساسية!

كان استقبال عائلة (بونور) لي حافلاً! كم أسعدتني العودة إلى مكان، يحبني أهله!

* *

في الصباح ذهبت، إلى سوق الخضار وحدي، لم يستطع (مسيو بونور) مرافقتي، فقد كان متعباً، طلبت من البائع ثلاث تفاحات، ثم أردفتها بـ ***(à table)*** ففهم أنني أريد برتقالاً للمائدة أيضاً، وهذا ما اعتاد مسيو (بونور) شراءه لنفسه، كلما ذهب إلى السوق! أحسست بالفرح، فقد طلبت دون شعور ما يحبّه، قلت في نفسي: هل اللاوعي عندي شغّال: ليسعد الآخرين؟ أم زلة لسان؟ لكن حتى هذه الزلة، يربطها فرويد بعالم اللاشعور! أعتقد أن هذا العالم الباطني أكثر صدقاً من عقلنا؛ إنه مرآة يعكس مشاعرنا ورغباتنا بصدق!

* *

كتبت إلى أختي صفاء

كانت رحلتي إلى بريتاني موفقة، وجدت بحر الشمال نقيض ما قالته لي الأديبة (روعة): إنه ليس أزرق كبحر اللاذقية، إنه كئيب! فوجئت بجمال زرقته (خاصة في اليوم الأول لزيارتي له)، كما فوجئت بالمناظر الطبيعية المدهشة، إنها أشبه بحلم جميل!

عايشت، هنا، تجربة التوحّد مع الطبيعة، حتى اللون الرمادي لبيوت القرية، لم يبدُ لي كئيباً! بدا منسجماً مع الخضرة والزرقة وأمواج الغيوم البيضاء والرمادية...

كم أنا مدينة لأم (داليدا) في أشياء كثيرة، أهمها أنني تعلّمت منها التعامل البسيط مع الطبيعة! كأنها بيتها! أعارتني ملابس خاصة: كنزة سميكة، جزمة، تناسب تسلق الصخور، وسترة(كي لا يعيقني معطفك الطويل يا صفاء)

أحسست أنها تنتمي إلى جنس الطيور! تعيش طليقة، لا يؤرقها ماض ولا مستقبل! ما زالت جملتها، ترنّ في وجداني: (أنا أتنزّه في هذا العالم)انقليها، يا صفاء، لكل الصديقات؛ لأنهن بأمس الحاجة إليها! إنها متقاعدة، تلهث وراء الجمال والفن! تحب الموسيقى، تعزف على البيانو، وتعيش في رفقة الكتاب، وإذا سمعت بفيلم أسرعت لحضوره! تتنفس أوكسجين الفن في كل ثانية من حياتها! إنها تتذوقه، غالباً، في صحبة الطبيعة...

تعلمت من هذه المرأة الرائعة، كيف توازن بين حياتها خارج البيت وداخله! ربما لأنها تستخدم بوصلة الجمال ورهافة الحس! أدهشتني في ترتيب بيتها، تكوي بيديها أغطية السرير صباحاً، لتدوس قدماها صخور البحر مساءً!

رغم ذلك لاحظت احترامها لطقوس العيد (فمثلاً ليلة الميلاد حشت الديك الرومي باللحم) همست لي (داليدا) انظري إلى جنون الفرنسيين، يحشون اللحم باللحم! أكلت لأول مرة في حياتي الكستناء (يشترونها مقشرة) مطبوخة بالتفاح!

بيني وبينك أحسست أن المرأة الفرنسية حريصة على أناقة منزلها، حرصها على أناقة ملابسها! إنها كالمرأة كالشامية تماماً! لكنها تجيد تذوق الفن والوجبات السريعة!

كم أتأثر، حين أتذكر احتفال (أم داليدا) بي طيلة أسبوع، قلت لها بأنني للمرة الأولى في حياتي أثقل على الآخرين، وأنام سبع ليال، عرضت علي صديقتي أن نمدّد الإقامة ليلة أخرى، رفضت، فقد أعطتني أمها غرفتها، ونامت مع أولادها في غرفة أخرى!

لابد أن أعترف لك، يا صفاء، بأنني لم أتآلف مع (جيل ابن الكلب) إلا في الطبيعة، وحين شارفت رحلتي على نهايتها! لم أعد أخافه! لكنني لم أرتح لقذارته؛ لهذا حاولت غسيل جميع ملابسي حين عدت، التي ربما لامسها المدلل (جيل)

كما أعترف لك بأنني ما زلت أحس بالنفور من اللحم، اليوم على الغذاء أكل مسيو بونور قطعة لحم، لاشك أنه استغرب طعامي البسيط، فقد صنعت السلطة، وأكلت بطاطا مع البصل وزيت الزيتون، كم وجدتها لذيذة (اليوم دعت المدام ابنتها إلى المطعم، لهذا (دفّشتها) بسندويشة، حتى أحتفظ بالطعام الذي أخذ وقتاً مني، كي نأكله جميعاً، انظري إلى التكتيك الرائع) حاولت أن أرشو (فلورا) بوجبة، لكنني لم أفلح دائماً لديها مواعيد، وتأكل خارج البيت معظم الأحيان!

أدهشتني مدام (بونور) بلهفتها، بالأمس فتحت الكومبيوتر؛ كي أكتب لك، وجدت رسالة بالإنكليزية، فهمت منها أن هناك فيروساً، لجأت إليها، فأسعفتني في اللحظة نفسها، كم شعرت بالامتنان لها، وحين تعطّل، بالأمس، المصباح الكهربائي، لجأت، كعادتنا في مثل هذه الظروف، إلى (مسيو بونور) لكنه لم يعرف سبب المشكلة! في الصباح أخبر زوجته، فأغاثتني، وأتت بمصباح جديد، استغرق وقتاً في تركيبه، بدت لي، وهي تفكّ البراغي، أشبه بطبيبة، تجري عملية جراحية، وحين سألتها: هل أنت معتادة على ذلك؟ قالت: أحب هذه الأعمال، وهي جزء

من اختصاصي (الفيزياء) في حين زوجها يحب التاريخ، واليوم أخبرني بأنه سيحضر دروساً في الجامعة عن الهجرة والعمل في فرنسا!

انظري، أيتها العزيزة، إلى الجامعات، هنا، تخصّ المتقاعدين بمحاضرات، تطوّرهم، مثل عندنا تماماً!

ازدادت علاقتي بـ(فلورا) حميمية، سألتني، اليوم، هل ستكتبين عن تجربتك، هنا، كما أكتب عن دمشق؟ أجبتها إذا سمح العمر بذلك، فأنا أحس بأن الموت يلاحقني هنا، كما لاحقني في السعودية قبل السفر توفي (أبي) وبعد عودتي توفي (أخي) وما إن وطأت قدمي (باريس) حتى فقدت أمي! ثم بينت لها لماذا لم أعلم أهلها بوفاتها، قلت لها: يكفيهم همهم!

لاحظت أنها دعتني إلى السينما؛ كي لا ألتقي بأصدقاء أمها الإسرائيليين، يبدو أنها تريد أن تخفّف من توتري! صفاء أعرف أنك لا تقصرين! لكن احتفي بها أكثر وأكثر، حين تعود إلى دمشق!؟

انتبهي خبر عاجل! تعرضت بالأمس إلى حملة تبشيرية، وأنا أنتظر (داليدا) على الموعد، فقد أخطأت العنوان، واعدتها قرب محطة مترو، قريبة من معهد العالم العربي ومن مسجد باريس، لفت نظري، أثناء ذلك، لوحة مكتوب عليها بالعربية "ما هو قصد الله من العالم في الكتاب المقدس" تقدّمت وتحدثت مع الشاب، اكتشفت أنه من أحد بلدان المغرب العربي، وحين قلت له ذلك! قال: لا أنا فرنسي واسمي أولفيه، وبدأ يشرح لي ويقرأ من الإنجيل آيات بلغة عربية ركيكة، كنت أردّ عليه بآيات من القرآن الكريم، وحين أردت الانصراف، قال لي أريد أن أقدم لك هدية، اكتشفت أنها مجلة تبشيرية، رفضت قائلة إنني لا أجد الوقت للقراءة بالعربي، فحاول أن يقدم لي بالفرنسي، فقلت قدّمها لآخرين؛ لأنني بصراحة لن أقرأها، وهكذا يا عزيزتي نجوت من إحدى حملات الاستعمار التبشيرية، التي تريد النيل من هويتي!

كم هم أغبياء، يريدون التبشير بين العرب، على الأقل عليهم ألّا يستفزّوهم! فيختاروا من يتقن العربية، كي يجذبوهم، فاللغة مفتاح القلوب في رأيي!
سلامي للجميع"

* * *

الجمعة 2008/1/5

تلقيت اليوم دعوة لمشاركة عائلة (بونور) عطلة نهاية الأسبوع في بيتها الريفي! كنت أخطط لقضاء العطلة مع صديقتي (جين) نتجوّل في أحد المتاحف!

أسعدني أنني بتُّ جزءاً من العائلة، فهي تدعوني؛ لأشاركها وقتاً حميماً شديد الخصوصية، ترتاح فيه من صخب المدينة!

* *

بالأمس أثناء عودتي من المكتبة، رأيت في الحديقة امرأة شقراء، تصطحب طفلاً زنجياً، تلاعبه وتقبّله، قلت في نفسي، وقد دمّعت عيناي: أرى الآن معنى من معاني الحضارة! التي هي لغة إنسانية، تنأى عن العنصرية، التي نصم بها عالم الغرب! تذكرت حارتي، التي تنتمي إلى الطبقة الوسطى تقريباً، قلما أجد فيها طفلاً سورياً، يلعب مع آخر إفريقي (صومالي) بل سمعت بعض الأطفال، يتهمونهم بالقذارة! لا أدري من زرع في أذهانهم البريئة أن سواد البشرة قذارة؟ لكن أ ليس الأهل، هم المسؤولون عن غرس مثل هذه الأفكار؟

أ ليس الأطفال ضحايا آباء، يدّعون الإسلام، ويربّون أطفالهم بعيداً عن روح القرآن الكريم، الذي يؤكد لنا: "إن أكرمكم عند الله أتقاكم" إنهم لا يجسدون تعاليمه الراقية في أفعالهم، رغم وجود أربعة جوامع في حارتي، تفيض ما شاء الله بالمصلين!

تذكرت ما قاله الشيخ أحد الشيوخ المصريين حين زار باريس، قبل أكثر من مئة عام: "وجدت فيها مسلمين، ولم أجد إسلاماً، وهأنذا اليوم في مصر، أجد إسلاماً، ولم أجد مسلمين" فقد أدهشته أمانة الباريسيين، يضعون ثمن الصحيفة، ويأخذونها، في غياب البائع!

* *

شاهدت اليوم صفاً طويلاً من الناس أمام أحد المعارض التشكيلية! فظننت أن الدخول إليه مجاني، لكن حين سألت عن الرسم، قيل لي (7يورو) لم أر في حياتي إقبالاً على الفن والثقافة، مثلما رأيت في فرنسا! أدهشني أنهم أمام الثقافة، يلغون حساباتهم المادية، وهم يحوّلون الأعياد والعطل إلى مهرجان للمعرفة وتذوق الجمال الفني، لاحظت أنهم يصطحبون أطفالهم إليها، فيربّون أذواقهم؛ ليرتقوا بها! ويزدادوا فهماً لجمال الحياة؛ وبذلك يكسبهم الفن رقة التعامل مع البشر وانفتاحاً عليهم!

لاحظت كيف يحوّلون أعيادهم إلى نزهة، يعايشون فيها جمال الطبيعة! أما نحن فنجدها فرصة لملء بطوننا، وتراخي عقولنا؛ لتخمد ذائقتنا، لكن مهلاً، لا تتحمسي كثيرا يا ابنتي! أ لسنا في الأعياد أحرص منهم على لقاءات الأهل والأصدقاء! أعتقد أننا بحاجة إلى معنى العيد بدلالته الشرقية والغربية!

* * *

السبت 2008/1/7

كان كراج السيارة الخاصة في قبو العمارة نفسها! وبذلك لن تزعج شوارع باريس وأرصفتها، كما يحصل عندنا! تسلّمت القيادة المدام، لاحظت براعتها في التعامل مع الآلة أياً كان نوعها! في حين برع زوجها في العلوم الإنسانية، حتى ليظنّه المرء مختصاً بالتاريخ! مع أنه كان يعمل قبل التقاعد محاسباً!

وقفت في قرية (***Samois*** سموة) مذهولة أمام جمال الطبيعة، وقد اعتزلت البحر، فامتلكت إطلالة خاصة بالريف الفرنسي، القريب من باريس تبعد حوالي (*60*) كيلو متر! شاهدت في الطريق إليها أشجاراً، لا تملكها سورية بأكملها! كم يعتنون بالخضرة وبالإنسان! أحببت الطبيعة، هنا، بقدر ما أحببت البشر! اكتشفت أن بلادي تهمل المدينة والريف معاً؛ ليتيه أبناؤها في صحراء التخلف!

إننا نتوحش على الطبيعة والإنسان! نحرم الفقير من التمتع بجمالها! أما الغني، فغالباً، ما ينسى أمثال هذه المتع، فقد ألهاه المال، وغلبته الشهوات!

أدركت مدى بعدنا عن الجمال، الذي يخاطب الروح، فنضيع في عالم مادي، يقتل الروح والذائقة والإحساس! ثم ندّعي أننا أمة روحانية!

كبرت بعيني صديقتي (فلورا) الباحثة عن ذاتها! حين لم يغرّها هذا الجمال، مع أنه بصحبة وسائل الراحة كلها! حتى ليبدو بيتها الريفي، أشبه بفيلا في المدينة!

ما زلت معجبة بتقسيم العمل بين الزوجين! طبعاً التنظيم والترتيب والنظافة من شأن (المدام) في حين مهمة (المسيو) هنا، مثل باريس، استعمال المكنسة الكهربائية عدة مرات في اليوم (حين يدخلون البيت

وبعد الطعام، لأنهم يقطعون الخبز، فينتثر الفتات على الطاولة وعلى الأرض! يضاف إلى ذلك غسل الصحون لوضعها في الجلاية) أما إعداد الطعام فأتقاسمه، غالباً، مع المدام!

كان مشهد الريف رائعاً، انطلقت روحي من سجنها! رفرفت محلقة، وهي تحضن بشوق صديقها السين، الذي بدا أكثر شباباً، هنا، وهذا ليس غريباً، إنه في منزله الطبيعي بين أحضان الشجر؛ فيملأ حنو الخضرة على الماء النفس حبوراً وشعراً!

كتبت إلى صفاء:

"اكتشفت، هنا، جمالاً شتوياً، تخيّلي أن الأشجار الجرداء تحتال من أجل أن تبدو في غاية الجمال، تزورها الطحالب؛ لتستر عريها؛ فتشكّل الخضرة خطوطاً متعرجة مدهشة، تزيدها نضرة وسحراً!

اصطحبتني عائلة (بونور)إلى غابة تدعى (فونتين بلو) دهشت حين رأيت المدام تحمل خريطة للغابة، لكن حين تجوّلت فيها، أدركت ضرورتها، فهي ممتدة عبر عدة مسارب لا نهائية، لكل مسرب لون معين (اتبعنا اللون الأزرق) ليتك يا صفاء ترين ابن السبعين وابنة الخامسة والستين كيف يتسلقون الصخور بين الجبال، ليتمتعوا بالطبيعة، حملوا معهم الماء والشاي والتمر، حين تعبنا جلسنا على الصخور وأكلنا أطيب طعام!

اكتشفت يا (صفاء)أن الطبيعة، هي وحدها الدواء لكل الآلام! نحن لا نتمتع بها، وإذا تمتعنا حصرنا ذلك في أيام ربيعية أو صيفية، أما الشتاء، فنقول: الطقس بارد! ونتجمّد في بيوتنا! لكل فصل جماله، لكننا لا نغامر في سبيل اكتشافه!

إننا حين نتحرك في مسارب الطبيعة، ننتصر على كل أنواع الضعف، الذي يحتل أعماقنا! عندئذٍ نعايش جمالاً لم نتذوقه بعد!

ليتنا نمارس التأمل! ونحاول اكتشاف هذا الكون، فنكتشف أنفسنا، ونعايش التوحد معه، عندئذ نتجدّد، فتسمو أرواحنا!

بيني وبينك أحس كأننا نخاف التغيير، فنسقط في مهاوي الآلية! هل تصدقين بأن علاقتي مع الله أصبحت، هنا، أكثر عمقاً، قلبي ازداد إيماناً أمام هذا الجمال الذي خلقه، قالت لي المدام في الغابة: انظري إلى الشجرة كيف كبرت بين الصخور، كأن جذورها تستمد غذاءها منها! أجبتها: فعلاً، إنها معجزة ربي! فصمتت، كأنها فوجئت باستخدامي اللغة الدينية في وصف ظاهرة طبيعية!

قولي لي يا صفاء: ماذا فعلت في حياتي حتى أُدلّل هذا الدلال؟ لم أعش أبداً، في بلدي، مثل هذه العلاقة الرائعة! إنهم أقرب إلى روحي من أقربائي! كم ينصحونني! لا يوفرون جهداً لإسعادي! بات تفكيري منحصراً في رد جميلهم! هم أبناء الصدق والحب!

أعطتني المدام، اليوم، حذاء من أجل الصعود على المرتفعات الجبلية في الغابة، مثلما أعطتني (أم داليدا) جزمة مناسبة للمشي على صخور البحر! شاهدتها في الصباح، تمسك بفرشاة، لتنظّفها، فصرخت يا للهول! يا للعار! كم أحسست بالخجل في تلك اللحظة! فأطلقت كل ما أملكه من ذخيرة فرنسية؛ لأعبّر عن استفظاعي هذا الفعل! ردت بعفوية: اعتدت على هذا العمل دائماً! انظري كيف تعاملني، وكأنني أحد أفراد أسرتها! لن أستطيع وصف تأثري! فقد حفر عملها هذا في قلبي وداً، لن يستطيع الزمن محوه أبداً!

تأملت جمال الطبيعة ورقتها اليوم، وقلت: لقد اكتسبوا الرقة والجمال منها! طبعاً علاقاتي محدودة بالفرنسيين، لكنني إلى الآن لم أقابل إلا الراقي منهم! أحياناً أقول: عليّ أن أبذل جهداً مضاعفاً؛ لأتعلم

لغتهم! كي أستطيع أن أوصل امتناني إليهم دون خطأ لغوي، إذ يزعجهم سماع لغتهم، تنحرف عن جادة الصواب!

قلت في نفسي، وأنا أتأمل هذا الجمال: مساكين أولئك الذين يتناحرون من أجل المناصب والمال! فلا يرون سوى مصالحهم، هذا هو العمى، الذي يجعلهم يقتلون مشاعرهم عن سابق إصرار وترصد! هل من المستغرب أن يتيه هؤلاء بعيداً عن الجمال؟ ألا يسجنون حياتهم في قضبان المادة، فتظلم قلوبهم، وتصبح موئلاً للأحقاد والمظاهر؟

أحس أننا كلما ابتعدنا عن تذوق الجمال وتأمل معجزة الكون، ضلّ الإيمان طريقه إلى قلوبنا، فنخنق أحاسيسنا المرهفة بأيدينا! ألا نفسح، عندئذ، المجال: لتزهر الكراهية بيننا، فنعيش إرهاب المشاعر والأفكار، دون أن يرفّ لنا جفن!؟

بات الكثير من البشر، يعيشون لاهثين وراء اللذات العابرة! ويرون خلاصهم بما يملكون من أشياء! فيقتلون رغبة كامنة في أعماق كل منا نحو الجمال والمثل العليا! تذكرت صديقتي (دنيا) ضيّعت عمرها تكدح، في مدن الملح، من أجل المال: الذي رأت فيه خلاصاً وسعادة! اشترت البيت في منطقة راقية، وحين جاء الوقت لتتمتع بجنى حياتها، انقض عليها السرطان! اختصرت حياتها بالمظاهر والمال: كافحت من أجله، واهتمت به أكثر من نفسها! فضيّعت صحتها، ولم تستمتع بحياتها! فتحوّل المال إلى سمٍ قاتلٍ لها! فقد جعلته غاية وجودها ونبض كينونتها، وبذلك عاشت خادمة له!

تُرى ألا ننسف، في زحمة لهاثنا وراء استهلاكيات مبهرة، معاني روحية، توقظ التأمل والفن؟ لكن كيف نستطيع الوصول إلى ذلك الرقي؟ تُرى هل نستطيع ذلك دون التحرر من عبودية المال، فنجعله خادماً لنا، ووسيلة لإسعاد أنفسنا والآخرين!؟

وقفت في ظلّ شجرة ضخمة باذخة الخضرة، فحاصرني سؤال: هل يستطيع الفقراء، وهم أكثر سكان الأرض، أن يتأملوا جمال الطبيعة؟ أ ليس هذا حكراً على الأغنياء؟

أحس أن ثمة جمالاً مبذولاً لكل من يبحث عنه! معظمنا لا يراه! تشغله لقمة عيشه ووسائل حديثة، تلتهم وقته، دون أن تغني، في أغلب الأحيان، ذوقه وروحه! لهذا قد لا يجد دقائق للتأمل فيما حوله من جمال: هدأة الليل وأنواره الطبيعية، لحظة بزوغ الشمس أو مغيبها..! من منا يملك وقتا؛ ليرفع رأسه فقط، ويتأمل روعة الغيوم في السماء!

كما أن ثمة جمالاً، نغفل عنه، إنه جمال النفس البشرية، حين تعيش قيم الحب والعطاء، لكن نفوسنا لا تهتز، ولا نحتفي بها، بات الاحتفاء لدى الكثيرين بجمال الجسد وصورته! مع أن هذا الجمال يفقد تألقه، بحكم الزمن والعادة! كم نصرف مالاً، لتجميل مظهرنا، أما تجميل أعماقنا فآخر همنا!

أ لسنا بحاجة لإعادة الاعتبار لجمال النفوس لا لكثرة الفلوس؟

يبدو أن أصحاب القيم هم وحدهم الذين يستطيعون معايشة الجمال وتذوقه! تُرى هل أبالغ في هذا القول؟

كتبت إلى أختي:

"اكتشفت يا صفاء أن الفرنسيين، يعلون شأن الجمال سواء أكان في الطبيعة أم في الفن! يرتقون بأرواحهم وأخلاقهم، دون أن يدّعوا التدين! إنهم يهتمون بردّ جميل الطبيعة حباً وعناية! لا أدري كيف يقال: إن الغرب مادي والشرق روحي؟! ألا تلاحظين أنحب المال بات ينخر حياتنا، فينهش الطبيعة والإنسان معاً!

أحسست، هنا، كم كنت ظالمة لروحي، حين أقصيها عن تأمل الجمال! الذي ينطلق بي إلى عوالم معجزة! تنأى عن الزيف والتوتر! ليمنحني الرضا والسكينة!

من حسن حظنا أننا نلتقي بأولئك المتميزين، الذين يفكرون بالقيم، تُرى ألا تزهر حياتنا أكثر وأكثر برفقة الإحساس بالجمال، الذي خلقه الله؟ ألا نزداد بذلك إيماناً ورُقيّاً!؟نصبح قادرين عندئذ على تذوق الحياة المتحضرة بأجلى معانيها!

ليتنا يا صفاء نستطيع تغيير حياتنا؛ فنصغي بقلوبنا إلى جمال، يطرد هموماً، شبعناها! حان الوقت؛ لنحرر أرواحنا من ثقل المسؤوليات! علينا أن نولد من جديد بعيداً عن أشواك حياة، أضجرتنا عشرتها!

بيني وبينك بتّ أستعذب عبادة الله في الطبيعة، شتان بين صلاة، تحاصرك جدران صماء، وأخرى تؤديها في فضاء مفتوح على أزرق لا حدود له، وبحر من خضرة! ما أحوجنا إلى صلاة القلب، إنها الوحيدة، التي تنعش الروح، وتحملها إلى عالم سرمدي، ينبض حباً وجمالاً وعطاءً!

عاهدت نفسي، وصديقي السين شاهد، ألا أحزن من أجل أي شيء في هذه الدنيا! ألا أشتعل غضباً! دعوت الله أن يمدّني بالقوة لأطفئ نيران التوتر،، التي تضطرم في أعماقي، حين أصادف ما يزعجني!

عندئذ أحسست باتساع أمداء روحي، حتى بتّ مستعدةً؛ لتقبّل كل متاعب الحياة راضية! أدركت أن سعادتي تكمن في إسعاد الآخرين، عليّ أفتح قلبي لكل ما يفعلونه، لست أنا من يحاسبهم على أخطائهم! عاهدت نفسي على محاولة السمو فوق بشاعات الحياة، التي يصنعها خبث البشر! ألا تلاحظين يا صفاء أن ثمة أناساً، جُبلوا على تنغيص حياتنا بحقاراتهم! علينا أن نستوعبهم، ونرأف بحالهم!

إنهم مرضى الروح، يعيشون في سجن الرغبات والأحقاد! ينغّصون حياتهم وحياة غيرهم!

أدركت كم أنا محظوظة في هذه الحياة! فقد أتاحت لي رفقة الفرنسيين ثراءً روحياً! بتّ أكثر قدرة على فهم البشر والطبيعة، وتذوق جمالها! لا أدري ماذا أقدّم لهم في المقابل!؟ كم يغتني يا أختي الشرق المنفتح في صحبة الغرب المثقف، أ ليس هذا هو الطريق، الذي يصل بنا إلى غنى الإنسانية، وتشييد حضارة، تلمّ شعث الكون؟

سلامي للجميع"

* * *

الأحد 2008/1/8

لحقني اليوم حنظلة إلى الريف الفرنسي، أصرّ على الجلوس على مائدة الفطور! فقد سمعته، ينطق بصوت (مسيو بونور) متحدثاً عن معاناة ابنته (جولي) المقيمة مع زوجها في نابلس، فهي تعاني مثل سكانها من حصار إسرائيل للمدينة، يا الله متى أنجو من أخبار البؤس العربي!

* *

لاحظت أن (مسيو بونور) ما زال مضرباً عن شرب الشاي (الأخضر والأحمر) فقد كان يزعجني ألا يشاركنا (أنا والمدام شربه) كنت أقول له: إن الشاي الأخضر أكثر فائدة للصحة من الأحمر؛ وكي

أقنعه، استنجدت بحبه للمعرفة والبحث، فقلت له: إذا لم تصدقني استشر النت!

كم فرحت اليوم، وقد شاهدته، يتناول الشاي الأخضر! يبدو أنه بحث وتأكّد بنفسه من فوائده! ولم يستند إلى كلام عابر، قد يكون صحيحاً أو غير صحيح!

قلت بيني وبين نفسي: هذا ما نحتاجه شباباً وشيباً! أن نمتلك القدرة على البحث عن الحقيقة في الأمور الصغيرة والكبيرة!

* *

قرأت اليوم لصديقيّ، بعد العشاء، هذا المقتطف، وكي أثير فضولهما، قلت: اسمعا ما يقول (فولتير) عن أمثالكم من أصحاب الفضيلة:

“Les méchants n'ont que des complices; les voluptueux ont des compagnons de débauche; les intéressés ont des associés; les politiques assemblent des factieux; le commun des hommes oisifs a des liaisons; les princes ont des courtisans; les hommes vertueux ont seuls des amis”.

يملك الأشرار متواطئين، والشهوانيون رفاق سوء، والمشغولون يجدون شركاء، أما الساسة فيجتمعون بالمتمردين، أما العاطلون عن العمل فلديهم علاقات، وكذلك الأمراء لديهم متملقون، وحدهم أصحاب الفضيلة، يملكون أصدقاء!

قلت لهما: أحسست أن الجملة الأخيرة، كتبها (فولتير) خصيصاً لكما!

* * *

الاثنين 2008/1/9

قلت وأنا ما زلت متمددة في سريري، لم يبقَ لي سوى شهر، عليّ أن أستغل كلّ دقيقة فيه عملاً واستمتاعاً، كما يفعل الفرنسيون!

* *

أحسست أن الحياة في باريس، تزيد المدام توتراً! فهي حين تدخل إلى المطبخ، تتغير طبيعتها، تصبح حركتها (السريعة عادة) أكثر سخطاً واستفزازاً! كأنها تخوض معركة عنيفة مع الأشياء! مما يملأ الجو ضجيجاً!

ارتجفت اليوم، وأنا أطبخ، فقد طرق سمعي صوت ضربة عنيفة بقربي، اكتشفت أنها كانت تغلق خزانة (الطناجر)! تُرى هل تجد في أعمال المطبخ عبئاً، يثقل كاهلها، وهي الموظفة المتخصصة بالفيزياء؟ أم هل يضايقها وجودي في المطبخ؟ هل أزعجتها، حين طبخت إلى جانب البامية، التي أتيت بها من الشام، معكرونة، وهي لا تحبها، كما قالت لي بعد ذلك؟ هل تلومني بطريقة غير مباشرة؛ لأنني كثّرت الكمية، فقد أخطأت العيار، بما أنني ربة بيت فاشلة؟

اكتشفت بعد ذلك أنها لا تريد المعكرونة بسبب الرجيم، إنها، مثلي، تحسب الصادر والوارد، خاصة أنها أحضرت، اليوم، طبقاً من الحلوى التقليدية، يشبه الكاتو يُدعى (كاله) يقدّم الأحد الأول من السنة، تُخبّأ فيه هدية (تمثال بلاستيكي صغير) من يجده في حصته من الحلوى، يضعون على رأسه تاجاً ذهبياً من كرتون، يسمّونه (تاج

الملك: ***couronne du roi***)كم فرحت، حين كان من نصيبي، فشاركاني بهجتي، أحسست في تلك اللحظة، بأنني طفلتهما المدللة!

كنت قد حدّثتهما عن عائلة صديقتي (داليدا) وكيف احتفلت الأم بأولادها؛ مما خلق جواً عائلياً مرحاً، حيث أكلوا الحلوى، ولعبوا لعبة الحظ السعيد في بداية السنة، أما (عائلة بونور)لا أدري إن كانت تحتفل بهذه المناسبة بشكل دوري، خاصة أن المدام لا تأكل الحلوى إلا نادراً! لعلها قررت الاحتفال من أجلي! أو من باب تغيير إيقاع الحياة!

* *

تأملت نفسي وأنا أعتني بما تبقى من معكرونة، في حين ترمي المدام ببقايا السمك في القمامة (شتان في المستوى الطبقي بينهما!) تعمّدت التباطؤ في تغليف وعائي، لعلها تقارن بين فعلي وفعلها!

منذ فترة توقفت عن نقد هذا التصرف! ثمة خلاف بين رؤيتي الأمور، التي تمزج الاقتصاد بالدين (رُبيت على أن رمي الطعام إثم كبير) ربما كانت ثقافة الفقر، الذي نشأت عليها! وقد زادتها الأيام منطقاً وإقناعاً! حتى إنني قلت لها ذات مرة: لا أتخيل نفسي أرمي بالخبز في القمامة وملايين البشر، يتضورون جوعاً! طبعاً أمي، رحمها الله، هي السبب! كانت تردد: الخبز نعمة، يحفظ الله من يحفظه! أذكر أننا حين كنا صغاراً، وتقع من يدنا كِسرة خبز، كانت تدعونا لتقبيلها ووضعها على جبهتنا! وحين نترك طعاماً في الصحن، كانت تأمرنا بأكله: كي يبيّض وجهنا يوم القيامة، وندخل الجنة!

لا أستطيع أن أدّعي أن جميع العرب، يفعلون ذلك، ثمة من يتفوّق على الفرنسيين في رمي بقايا الطعام الهائلة في القمامة!

* *

تعرضت اليوم لخداع أثناء شرائي لسترة أنيقة للحبيبة (شذى) فقد اعتقدت أنها صناعة فرنسية، وحين عدت إلى البيت اكتشفت أنها صينية! كم أنا جاهلة ومتسرعة! نسيت أننا نعيش عهد الإمبراطورية الصينية! المشكلة كيف سيصدّق الآخرون أنها من فرنسا! أزعجني تهوري، خاصة أن المبلغ، الذي دفعته ليس بالقليل، (حين أحوّله إلى العملة السورية)!

هأنذي أنقض عهودي مع نفسي! يبدو أن تعهداتي لصديقي السين، ذهبت أدراج الرياح! اشتعلت غضباً من ذاتي! ما زالت الحسابات المادية، تقلقني! لا أدري لِمَ؟ كأن لدي إحساس بأن هذا المال مؤتمنة عليه، إذ عليّ أن أسخّره في عمل الخير!

* *

نصحني الطالب السوري (سمير) أن أزور كنيسة (القلب المقدس) وساحة مونمارتر القريبة منها، لم يعرض علي مرافقته! لا أستطيع أن ألومه، يلاحقه الوقت وأعباء الدراسة!

اكتشفت كم أنا وحيدة! خاصة حين أريد الذهاب إلى معلم سياحي أو إلى السوق! فقد اقتربت عودتي، وهجم عليّ همّ الهدايا!

تأملت الأصدقاء من حولي، الكل مشغول بنفسه! لا أستطيع أن أطلب منهم؛ لأنني أتوقع الاعتذار! كم أحس بالضياع في هذا العالم، الذي يدور حول نفسه! فقد لاحظت هنا أن العرب مشغولون بذواتهم أكثر من الفرنسيين! لم أتلقّ اتصالاً منهم باستثناء الأديبة (روعة) و (د.عادل)

أحسست بطعم الغربة المر، إذ لم أجد فيها من يشاركني التجوال في الأسواق والمتاحف لا الأحزان!

* * *

الخميس 2008/1/10

ارتكبت اليوم حماقة، جعلتني أحس بأنني طارئة على البيت، فقد اشتريت كمية كبيرة من الخضار والفواكه، لمت نفسي، حين وجدتها تزاحم أغراضهم في البراد، كأنني نسيت أن لها الأولوية، فقلت لنفسي: عليك أن تكوني أكثر نباهة! أنتِ لست في بيتك، تشترين، دون أن تفكري بمأوى لمشترياتك!

* *

سمعت مسيو (بونور) في طريقنا إلى السوق، يقول: هذا يوم قذر! قلت: لِمَ؟ قال: بسبب هطول المطر! قلت له: نحن نفرح به ونسميّه (الخير) بل ندعو: (الله يبعث الخير) مع أن المطر يملأ شوارعنا بالمستنقعات والوحل! المطر هنا ناعم وأنيق! يهمس شعراً في الأذن؛ فيملأ القلب تجدداً ونضارة!

* *

مرّ على إقامتي ثلاثة أشهر، وما زلت أعاني من الغربة اللغوية، رغم أنها خفّت، لكنني ما زلت أسأل نفسي: هل أنا غبية؟ هل العمر هو

السبب؟ سمعت صوت أمي يصرخ في وجهي: "بعد ما شاب ودّوا الكُتّاب"

أحس أحياناً أنني غير راضية عن نفسي، فأخاف هذا الشعور؛ كم يؤرقني تلجلج لساني وعدم انطلاقه! إنه يورثني الإحباط والتوتر! أهدّئ نفسي، وأقول: إنك تريدين أن تنطقي الفرنسية، التي تعايشنها منذ ثلاثة أشهر! كالعربية، التي عايشتها عمرك كله! ثم لا تنسي أنك عانيتِ لحظة وصولك صدمة، ما زال جرحها، ينزف!

بدأت أبرّر لنفسي: هل درست هذه اللغة، كما يجب، منذ الطفولة؟ هل أنت متفرغة لها الآن؟ أ لست موزعة بين مراجع البحث (العربية والفرنسية)؟ هل وجدت وقتاً لتنتظمي في دورة للغة!؟

كفي عن جلد ذاتك! أنت تبذلين جهداً في القراءة وفي الحوار! أحياناً يطول وأحياناً يقصر، حسب ظروف العائلة!

أعترف بأنني حاولت قدر الإمكان العزلة عن العرب، تعمّدت لقاء الفرنسيين، دعتني العائلة اليوم لحضور فيلم مصري، فقلت: أنا مقاطعة، هنا، كل ما هو عربي! أما الثلاثي المرح (فلورا، داليدا، ليلي) عاشقات العربية! اللواتي أجبرنني على الكلام بها، فقد عدن إلى (تونس ودمشق) بعد عطلة عيد الميلاد!

أصبح لدي، هنا، صديقتان فرنسيتان (جين، نينا) لكنهما مشغولتان جداً، فقد لاحظت، هنا، الأولوية للذات وللعمل، أما العلاقات الإنسانية، فيتركونها إلى أوقات فراغهم ومزاجهم! لا يمكنني أن ألوم أحداً! أنا طارئة على المكان والإنسان!

كثيرا ما أفتقد في غربتي قلباً أحدّثه! كثيرا ما أحتاج إلى يد، تربت على وجعي! وروح تصغي إلى ألمي! تمسح حزني، ولوعة فقد أمي! عبثا أبحث وألوب، فلا أجد سوى الغصص، تشتعل في داخلي، لتسلّمني إلى حصار الوحشة!

عايشت، هنا، انشغال الناس بالعمل والمتعة، لهذا أحسست أنه لا يحق لي اقتحام عالمهم! أو بالأحرى عزلتهم! خاصة العائلة، التي أسكن في بيتها، لا أستطيع إزعاج المدام اللطيفة والمتعاونة معي! فهي مشغولة بالعمل داخل البيت وخارجه وتعلّم اليابانية! كم أرغب في الحديث معها! لديها طريقة خاصة في تصحيح أخطائي، تستخدم كل حيويتها وذكائها؛ لتوصل لي المفردة الصحيحة (تمثُل، تكتب، تشير...) حتى زوجها المتقاعد، الذي يبدو أقل انشغالاً بسبب تقاعده، لكنه يتّبع نظاماً يومياً قاسياً، لا يحيد عنه قيد أنملة (المشي صباحاً ومساءً، الذهاب للمحاضرات والتسوق، القراءة...)

أحسست أن صداقة نشأت بيني وبين المدام! مرضها قرّبها من نفسي، لكن ثمة صوتاً، يحذّرني: انتبهي حتى لا يأخذك الحال، كما تقول أمي، وتثقلي عليها بهمومك!

مشكلتي أنني لا أستطيع الانطلاق في الحديث، ثمة آلة حاسبة في دماغي، تقول لي: انتبهي إلى وقت الآخرين! لا يحق لك سرقته! إنه مخصص لراحتهم، لا تزعجيهم بهمومك أو بطلب التجوال معك! كم أحتاج إلى قلب، يتسع وقته لسماعي، وينظر بعينه إلى وجهي لا إلى الساعة!

* *

لاحظت اليوم المدام أنها لم ترمِ بالخبز، واهتمّت بجمعه! فسألتها مازحة: هل ستضعينها في الكشكة؟ قالت لي: سأستعملها في صنع الحلوى، التي كانت أمي تصنعها لنا! قلت: سأتعلمها منك! ربما صنعتها في بيتنا!

لا أدري إن كانت فكرة استخدام الخبز بتأثير نقّي ونقدي؟ أم هي نوع من الحنين إلى الماضي وحضن الأم؟

* *

رافقتني صديقتي (جين) إلى السوق، لاحظت أنها تمشي بخطوات واسعة وسريعة، فسألتها: أنت تمارسين رياضة المشي أم التسوق؟

بدا لي الغلاء مذهلاً! فارق الأسعار، يتلف الأعصاب، فوجئت أن كثيراً من المخازن لا تعرض إلا البضائع الصينية! ترى هل يتعرضون للغزو الصيني مثلنا؟ ولكن كيف أقنع أهلي في الشام أن الغزو وصل إلى فرنسا! من الصعب عليّ حمل هدية مكتوب عليها صُنع في الصين! فهمت فيما بعد، أن ثمة شركات فرنسية، تستثمر في الصين؛ لتستفيد من العمالة الرخيصة!

* * *

الجمعة 2008/1/11

جاءت اليوم إلى منزل العائلة (كاترين) كانت السعادة، تنطق في كل حركة، تقوم بها وكل كلمة تقولها!

كتبت إلى أختي صفاء "أعيش تجربة إنسانية نادرة، تذكرين تلك الراقصة الفرنسية (صديقة (فلورا) التي تبتكر طريقة خاصة، تستفيد فيها من الرقص الشرقي والصوفي واليوغا! تقيم بين فينة وأخرى في أوتيل عائلة (بونور) عفواً في الغرفة المجاورة لي! تذكرين ظننتها صحفية نظراً لثقافتها وخبرتها بمشكلات العرب!

بالأمس حين سألتها عن أخبارها، قالت لي: كنت في مصر، تزوجت من شاب مصري (مغني موشحات دينية صوفية)

- حدّثيني عن تجربتك! كيف وجدت المصريين؟ شعت ابتسامتها فرحاً، وقالت:

- كم أنا مرتاحة مع أهل زوجي الطيبين!

كانت السعادة تطلّ من عينيها؛ لهذا أُصبت بالعدوى، فاستبشرت طيلة يومي، ردّدت مثل أمي: (عاشر التقي بتتقى عاشر الشقي بتشقى) سأضيف إليه يا صفاء: عاشر السعيد تسعد!

كم فرحت من أجلها! أحسست أنها قريبتي، شيء ما قرّبها من روحي، لعله انفتاح قلبها وبوحها لي عن خصوصيتها! وهذا قلما لاحظته لدى الفرنسيين! وربما زواجها من عربي! لكن الأهم من ذلك كله بساطتها الآسرة!

إننا نحتاج إلى أولئك الذين أسعدتهم الحياة! فيشعّون حولهم طاقة إيجابية! وينثرون الفرح حيثما حلّوا! إنهم يرغبون في مشاركة الآخر ما يشعرونه من غبطة، فينطلقون به نحو عالم، تظلله شمس ربيعية منعشة، تريح النفس، وتبثّ الود والفرح! عندئذٍ يغمر الجميع إحساس بالأمان!

قلت لها: ازددتِ جمالاً!

فعلاً هذا ما أحسسته، فقد اختفت من وجهها ملامح القسوة، التي لحظتها في لقائنا السابق! قالت: لم أقابل في حياتي أحداً يقول لي هذا! يبدو الناس، هنا، لا يهتمون بشكل الآخر، ولا يعلقون على نضارته أو سمنته...الخ!

جلسنا أنا وكاترين على السجادة في غرفتي جِلسة حميمة ومريحة! كأنها تتناسب والصور التي تحملها من مصر، بدت (كاترين) في إحدى

الصور، ترتدي ملابس تقليدية من الصعيد، عرّفتني على زوجها وأطفاله من زواج سابق، أرتني بيت الزوجية المدهش في بساطته...الخ

كانت سعيدة أن تتزوج رجلاً، ينتمي إلى إحدى قرى (المنيا) وأن تكون أول من يزورها من الأجانب! سألتها: كيف ينظر القرويون إلى المرأة: فأدهشتني إجابتها: إنهم يحترمونها أكثر من الغرب! ثم تابعت: لاحظتُ في مصر أن دورها يتكامل مع الرجل، وحين شاهدتني، وقد فغرت فمي، قالت: ثمة فكرة مغلوطة عن المرأة الريفية المسلمة، الكل، هنا، يحترمها! قلت بيني وبين نفسي: إنها مبهورة بالشرق! مثلما أنا مبهورة بالغرب!

سألتها، وقد استيقظت حشريتي الشرقية: لِمَ اخترت الزواج! وأنت باستطاعتك أن تعيشي بعيداً عن قيوده!

أجابت بصوت، ينبض صدقاً: أريد أن أستقر، بلغت الثانية والثلاثين! إن الرجل لن يحترمني، حين أرضى أن أعيش معه، دون عقد زواج!

سألتها: أ لم تشكل مهنة الرقص عقبة، خاصة أن لها سمعة سيئة في بلادنا!؟

أجابت: التقينا في رحاب الفن الراقي!

حدّثتني بصوت حزين عن ابنة زوجها (في سن الحادية عشرة) ولم تذهب إلى المدرسة، أخبرتني كيف نشأت بينهما علاقة حميمة، حتى إنها بدأت تناديها "ماما" آلمها أن تعيش محرومة من حنان أمٍ، تركتها صغيرة، وقد زادت حياتها بؤساً بوفاة جدّتها، التي كانت أماً لها! أدهشتني قدرتها على العطاء والحب، فهي تحاول الآن تعليمها القراءة والكتابة، بل تفكّر بمساعدتها واصطحابها إلى فرنسا!

* * *

الأحد 2008/1/13

قلت لـ(مدام بونور) التي ستسافر إلى أمريكا: آمل أن تمارسي في الطائرة التأمل، وأنت تحتسين القهوة فوق الغيوم!

لم أقل ذلك مُزاحاً! ثمة رغبة في داخلي أن تتأمل عجائب الكون؟ أن تتساءل، وهي الباحثة في الفيزياء، عمن خلق كل هذا الجمال؟! أن تتأمل صنع الله، الذي نظّم كل شيء!

* *

أسعدتني مكالمة صديقتي (روعة) عايدتني ببداية السنة الهجرية، قالت لي: علينا أن نحتفي بها، كما يحتفي غيرنا ببداية السنة الميلادية!

سألتني عن أخباري، فقلت لها: مشغولة البال من أجل الهدايا، فنصحتني بعدم التسرع، وقالت: أنت تتعبين من أجل قرشك! خجلت، فلم أخبرها عن خيبتي الكبيرة في التسوق ووقوعي ضحية البضاعة الصينية!

شكرتها وقلت لها: أنت من القلائل، الذين اتصلوا بي في غربتي!

ترى إلى هذا الحد الوقت غالٍ في باريس؟ ترى هل التفكير بالأعباء المادية، التي يفرضها اللقاء، هو السبب؟ إنهم لا يعرفون أنني لا أريد شيئاً من الآخرين سوى النصيحة والتواصل الإنساني! لا أحب أن أكلّف أحداً أي عبء مادي! حتى إنني أختار أول أحد من كل شهر لأقترح الذهاب إلى المعالم السياحية، كي لا أكبّد من يرافقني دفع رسم الدخول!

اكتشفت أن الناس في باريس لا يجاملون، فيسألون عن الصحة، أو يعايدون، وإذا عايدوا بكلمات سريعة!

غريب الإنسان ثمة ظمأ لا يرتوي في داخله للتواصل مع الآخر! كم يحتاج في الغربة إلى الصداقة! فيلهث باحثاً عن كلمة ود أو اهتمام! أ ليس هذا بحث عن جذور إنسانية، تهبه الأمان، وتوحي له بالاستقرار!

ما زالت أيام العطل تشكل لي مأزقاً! يتبدد فيها حلمي بلقاء صديقة أو صديق! فأقنع نفسي بلقاء الصمت!

تُرى هل السبب في إحساس الوحشة هذا ظروف حياة قاسية، تجعل اللقاء مكلفاً؟ أم هي الأنانية، إذ بات الناس يحسبون الكلفة الوقتية، فاللقاء يضيّع وقتاً، يتفرّغون فيه لتدليل ذواتهم؟! أم..؟

* * *

الثلاثاء 2008/1/15

شاهدت، وأنا برفقة صديقي السين، عناق عاشقين على ضفته، كان المطر الحنون يباركهما! أبعدت نظري عن سعادة، تطلّ من خلف الأذرع! لأبعد إحساسي بالقهر! قلت: لِمَ حرمتني الحياة فرح الحب؟ هل أنا مسؤولة؟ كيف؟ أ لأنني ظللت أبحث عن ند لي في الفكر والمشاعر!؟أ لأن حظي جعلني ألتقي بمن يتاجر بأفكار تقدمية، يعجز عن تجسيدها على أرض الواقع؟!

أعترف بأنني لم أصادف سوى من يسترخص المشاعر، ويجيد وضع الأقنعة؛ ليعبث بأجمل ما في الحياة!

تساءلت: لِمَ فشلت بلقاء رجل مناسب؟ أ لأنني لم أبتذل نفسي؟ أ لأنني تجاوزت بيئتي المتخلفة، وخرجت من صورة نمطية تسجن

فيها الفتاة الشرقية؟ أ لأنني كنت أبحث عن استقرار حقيقي في الفكر والروح؟

لم أيأس بحثت طويلاً عن رجل ند لي، يشاركني الحياة بكل معانيها! هربت من الإنسان العادي، وهرب مني المثقف، الذي وضعني في إطار غريب عني لا يناسبني! ولم أستطع الاقتناع به! امتلكت حرية الحركة والسفر! لكنني لم أضع نفسي في إطار، رأيته يهين المرأة مثقفة، حين يحوّلها إلى أداة للرجل! إنه يستغل المرأة العادية؛ ليجعلها زوجة رهينة البيت والأولاد! أما المثقفة فهي رهينة متعته خارج الأطر التقليدية!

كنت أبحث عن علاقة أقتنع بها داخلياً، وأفتخر بها أمام الناس جميعاً! يبدو لي الرجل الشرقي، في زمني؛ كي لا أعمم، كان يعيش انفصاماً، لا يهمه انسجام الأعماق وعالمه الخارجي! يبحث عن علاقة سرية مع المثقفة! وعلنية مع العادية! لم أجد نفسي في مثل هذه العلاقات المشوّهة! لم أستطع ترقيع مشاعري! أو خداع روحي!

دائماً أردد: هذا هو حظي من الدنيا! عليّ أن أرضى بما أملك، لا بما لا أملك! ها هي ذي العناية الإلهية تعوّضني، فأعيش وأتذوق جمالاً، افتقدته حياتي كلها! مشيت تحت المطر دون مظلة! كنت في غاية الفرح! فقد أنعش روحي رذاذه الحنون! الذي كان يغسل الأشجار وأحزاني معاً!

غمرتني السكينة، وأنا أسير مستندة على كتف صديقي السين! فيهمس في أذني غناءه على إيقاع زخات، زادتني شدواً وبهجة!

* *

تأخّر (مسيو بونور) كم قلقت عليه! أدعو الله أن يحميه، خرج تحت المطر؛ ليتمشى حسب برنامجه اليومي! إنه يحترمه، مهما كانت الظروف!

* *

بالأمس حضرت عدة محاضرات في (الإينالكو) عن الرواية المصرية في بدايات القرن التاسع عشر! لاحظت جدية الأبحاث المقدمة! ثقة الباحثين بأنفسهم! احترامهم لوقت إلقائهم! لم أجد أحداً يعانق (المايكرفون) فلا يتركه؛ ليصبّ في أذن المتلقي ركام معلوماته وسيل استعراضاته! كما يفعل بعض المحاضرين في بلادنا!

كم فرحت حين لاحظت تفاعلي مع كثير من الأفكار! أحسست بتطور فرنسيتي! لعل موضوع المحاضرات (الرواية) الذي أعشقه! شكّل أحد الأسباب! يضاف إلى ذلك جو الحوار، حيث يُخصص له وقت، يوازي وقت المحاضرة! ثمة احترام للرأي المخالف! لم أجد تكميماً للأفواه بحجة الوقت، كما يحدث في بلاد قهرستان! لهذا بدا لي الحوار في أهمية المحاضرة!

أدهشني أن الحضور في الفترة المسائية، يوازي الفترة الصباحية، رغم وابل المطر، وهذا ما نفتقده في جامعاتنا!

اكتشفت، هنا، نفسي، إنني أحمل همّ بلادي المتخلّفة، يلاحقني هاجس المقارنة بيننا وبين الآخر، يؤلمني نومنا في وقت يخلص فيه الغرب العمل والسعي إلى لمعرفة! ولكن أ ليست هذه المقارنة عبثية؟ خاصة حين أجد طلابنا لا يهتمون بحضور محاضراتهم!؟ بل أجدهم أحياناً لا يعرفون أساتذتهم! أ ليس السبب أن هموم

الحياة تلاحقهم قبل الأوان؟ أما، هنا، الجميع مرتاح أساتذة وطلاباً؛ لهذا يسرعون لحضور ندوة عامة، دون أن يهتموا بالحوافز سوى تطوير الذات معرفياً!

كفي عن المقارنة! أ لم تملّي؟ أ نسيتِ يا ابنة الشرق أنك في باريس! وأن الثقافة، هنا، حاجة يومية؟ ألم تري أن الكتاب رفيق حياتهم اليومية في الحديقة، المترو، وأمام إشارة المرور؟

أخبرتني إحدى الفتيات الفرنسيات، تعمل في تدريس اللغة العربية، أنها جاءت لحضور المحاضرات، بناء على دعوة من وزارة التعليم؛ كي تطور لغتها وثقافتها! لهذا ثمة محاضرات غداً خاصة بالمدرسين في (الإينالكو)

***

الخميس 2008/1/17

ازددت شغفاً بصديقي السين مع اقتراب عودتي إلى بلدي! بت أتتبع، وأنا في طريقي إلى المكتبة، ملامحه الجمالية أكثر فأكثر، تأملت، اليوم، جمال جسوره، وكيف اعتنى الفرنسيون بها، فجعلوا كل جسر يحمل بصمة خاصة به، تتبدى في تنوع جمال عمارته وأقواسه! مما يجعل الجولة بقربه رحلة فنية في حضن الطبيعة، التي أبدعها الله والبشر!

كم ضعفت أمام سحر السين! فأزهر قلبي في حضور بهائه! بتُّ مأخوذة بهمسه وغنجه! وأناقة جسوره! فأتساءل: هل أنا أمام متحف نهري! !

تساءلت اليوم: هل يستحق كل البشر جماله، خاصة أولئك الذين يلوّثونه؟ فقد شممت، وأنا أحلّق مع صديقي في فضاءات البهجة، رائحة كريهة، امتلأت غيظاً، حين رأيت رجلاً، يبوّل تحت أحد جسوره! قلت: يد تعمّر، ويد تخرّب! أين أنا؟ هل أنا في قلب الحضارة أم عدّت إلى زمن التخلف! ما أبشع الإنسان حين يتصرف كالحيوان! لم يستطع المطر ولا جمال صديقي طرد رائحة القذارة البشرية من روحي!

أهرب إلى صديقي السين؛ ليحميني من ضوضاء المدينة وازدحامها؛ لأعيش في ظلال رفقته متعة السكينة والجمال، لكنني الآن أتساءل: من يحميه من بشاعة بعض الناس وانحطاطهم؟

لن تستطيعي أن تغيّري البشر، حاولي أن تحمي ذاتك من التشوّه، قدر ما تستطيعين!

أعترف أنني اكتشفت، هنا، نهمي لجمال! لم يرتوِ ظمأي له، مع أنني أرتشفه كل يوم! هذا الشغف لا يكتشفه كثير من الناس، إذ يضيّعون حواسهم، حين يهملون التواصل معه!

تولد حاسة الجمال مع الإنسان، لكنها تموت، إذا لم يربها في حضرة السكينة والمعرفة، تتيه منه إذا لم يتأملها في صحبة يقظة الروح! كم نجرم في حق أنفسنا، حين نهمل هذه الحاسة؛ فلا نعيش رهافة الحس، عندئذٍ نحكم على أنفسنا بالعيش في ظلمة البشاعة، تجرحنا أشواك الكراهية! عندئذ ندمر ذواتنا والآخرين معاً!

* * *

2008/1/19

لم تهدأ أحاسيس الغربة، مع اقتراب رحيلي، على النقيض، ازدادت شراسة، باتت تجلدني أكثر، فقد ازدادت حاجتي لرفقة الآخرين من أجل شراء الهدايا، فأنا، لا أجيد التسوق البتة! أختي ناهدة، هي التي تشتري لي ما أحتاجه! الشيء الوحيد، الذي أجيده: هو شراء الكتب!

اعتذرت صديقتي (جين) عن مرافقتي، لديها عمل، وهي مهددة بالفصل! لا أريد أن أثقل عليها! كم هي لطيفة! لكنني لاحظت أنها غير منظّمة، يبدو هذه هي حال كثير من الشباب، على نقيض جيل الآباء! فهي تعلن عن رغبتها في اللقاء، لكنها لا تعرف متى!؟ المشكلة أنها تعتذر، أحياناً، في آخر لحظة! فتتركني في حيص بيص! كما تقول أمي!

* *

فرحت بالأمس، حين شاهدت (مسيو بونور) وقد اشترى تمراً، أحسست أن علاقتي بالأسرة، تزداد مع الأيام ألفة وتمراً! وصلتني رسالة أثلجت صدري، ها قد بدأ يهتم بصحته، ولن يشرب القهوة على الريق!

ولكن (يا فرحة ما تمّت) بحثت في الصباح عن (الكشكشة الشامية) التي نقعتها مساءً باللبن؛ لأعدّمنها طبق الفطور! فوجئت بوأدها في القمامة! قذفها (مسيو بونور) دون أن يسألني! ظناً منه أنها طعام بائت! آلمني أن يقذف جزءاً من خصوصيتي! اقتلع فعله هذا الطمأنينة من داخلي! إذ قذف بإحساس، يشعرني أنني في بيتي، أفعل ما أشاء، عندئذ ضاعت مني ألفة المكان! أحسست بأصابع

الغربة، تشدّ على خناقي، عندئذٍ ردّدت قول أمي: الغربة مضيعة الأصول والعادات!

قلت في نفسي: إنه في بيته، يفعل ما يشاء، لا يحب أن يرى طعاماً خارج البراد! إنه نظامه المقدس! أنا بغجريتي، أتيت بعادة غريبة عن ثقافته، التي اعتادت الطعام السريع، أما نقع الطعام، وتناوله في اليوم التالي، فهو ليس من عاداتهم على ما يبدو! لهذا قذفه! لكن أ لم يشم رائحته الغربية! فينسبها إلى الشرق؟! شاركتني الكشكة شكوى الغربة! مسكينة لم تجد لها مكاناً محترماً سوى سلة المهملات، ضاعت أصولها وأمجاد، تخيلتْ أنها صنعتها على المائدة الفرنسية! إذ كثيراً ما احتفت بها العائلة وضيوفها! فهي تنال إعجابهم بثوبها المزخرف بالأخضر (البقدونس والزيت) والأبيض (البصل) والعسلي (الجوز)

غمرتني الكآبة بفيضانها! أسدلت الوحدة على قلبي غصصاً، جعلتني أشتاق لبيتنا! وأتمنى لقاءً سريعاً مع أهلي وعاداتي!

خاطبت نفسي: العيب فيك! لديك حساسية مفرطة! إنها بضعة ملاعق من الكشكة! ثم لم توضحي له أنها للفطور الصباحي، إنه لا يضرب بالمندل؛ ليعرف ما تفعلين أو تخططين؟

❊ ❊

زاد توتري ظهراً، حين قال لي (مسيو بونور) سأتغدى بسرعة، لدي موعد، الأمر الذي دفعني لعدم مشاركته الطعام! إذ يتوجب علي إعداده بسرعة، كما يفعلون (يصنعون السلطة بخمس دقائق، فهي تتألف، غالباً، من قطع كبيرة من الخس والخل والزيت) في حين نضيع وقتاً أكبر في الفرم الناعم، وتنوع الخضرة بالإضافة إلى الثوم والبصل...

لاحظت كم نضيّع وقتنا في إعداد الطعام، في حين يضيّعونه للمتعة والمعرفة! ولكن أليس الطعام من المتع؟ ألا يستحق منا العناية والوقت!؟ أ ليس هو الداء والدواء؟

خاطبت نفسي: أنت تبالغين كثيراً في الانزعاج! تريدين كل شيء على هواك! حتى في بلدك، هل تجدين كل شيء مفصّلاً وفق ما ترغبين؟

غريب إلى الآن لم أتعلّم أن أتقبل ما يزعجني بصدر رحب! أعترف: إنني ما زلت تلميذة كسولة، سرعان ما أنسى دروسي وعهودي مع نفسي! فأدفع الثمن توتراً وإرهاقاً لروحي! دون أن أستفيد شيئاً! يا ابنتي! إنك بذلك تعيشين خسارة مضاعفة! تغتالين وقتك وتعكّرين مزاجك! ومن سيمسح دموعك؟

لا أدري متى يكبر عقلي، فلا توترني الصغائر!

أنتِ تريدين علاقات إنسانية متفردة مع أسرة تعيشين معها، ولم تعرفك إلا منذ ثلاثة أشهر! وهذا أمر صعب، بل يكاد يكون مستحيلاً! التشارك في كل شيء أمر متعب لك وللآخرين! أحسست اليوم بالحيرة، هل أسرع بإعداد الطعام، لآكل مع (مسيو بونور) أو بالأحرى لأحاوره؟ هل أفرض نفسي عليه، أم أستجيب لنداء التمرد في داخلي!؟ فلا أربط نفسي بعائلة (بونور) في كل صغيرة وكبيرة! كل ذلك من أجل لحظة دفء إنساني، ينسجها التواصل اللغوي، أقاوم فيها غربتي، إلى هذا الحد أخاف إحساسي بالوحشة؟

ترى هل زادت حساسيتي مع اقتراب عودتي إلى الوطن! ألا يتوجب عليّ أن ألوذ بالعقل، فلا أضغط على نفسي وعلى الآخرين!

الموضوع كله لا يحتاج هذا التوتر والقلق! يبدو أن تضخيم الأمور! يجعلني أنانية أفكر بنفسي! وأجعل من الحبة قبة! لكثرة دوراني حول

ذاتي! انظري إلى (مسيو بونور) إنه رجل متقاعد، ألف مملكته المنظمة والهادئة! أنت تشوشين عالمه! من حقه أن يعيش بعيداً عن فوضاك! انظري إليه كيف يشغل وقته! ليهرب من فراغ ما! إنه يحن إلى نظام ما، يسري إيقاعه في دمه! إنه يبتكر عادات، تشعره بالأمان والألفة! يستعيض بها عن عمل، اعتاد عشرته أكثر من عشرين عاماً! كأنك أتيت لتربكيه بعاداتك الشرقية!

في المساء، حين كنت أقرأ رواية "أحزان المدرسة" لدانييل بيناك ***(Daniel Pennac)*** جاءني تفسير، يهدئ توتري، إذ أسمعني صوت معاناة رجل أحيل على التقاعد! إنه لا يعاني الوحدة وافتقاد الإيقاع اليومي للحياة! بل يقلقه إحساس الزمن، وقد بدأ يفلت من يده؛ إنه يبحث عن معنى الحياة، فتهاجمه عبثيتها! ويؤرقه انتهاء رحلتها!

أعتقد أن العلماني أكثر إحساساً بهذه العبثية من المتدين!

تُرى هل أنا مخطئة في هذا الرأي ؟

❊ ❊ ❊

الاثنين 2008/1/21

زرت اليوم ابن عمي (نور) المتزوج من فرنسية! جاء إلى باريس؛ ليصطحبني إلى مكان إقامته (قرية ***Soisson*** سواسون) كم قدّرت له ذلك! حاول أن يدفع لي كعادتنا في سورية ثمن تذكرة القطار (30 يورو) رفضت، وقلت له: نحن في فرنسا، علينا أن نطبّق عادات الفرنسيين!

أسعدني استقبال زوجته واحتفاؤها بي! أدخلت بساطتها في التعامل السكينة على قلبي! لاحظت رغبتها في إسعاد زوجها بأقصى ما تستطيع! تحدثت معي بحميمية وانطلاق، على غير عادة الفرنسيين، لا أدري السبب! هل لأنني أول قريبة لزوجها، تزورها في بيتها!؟ أم لأنني استطعت التواصل معها بلغتها؟ أم لأنني جلبت لها هدية، تحمل لها رائحة الشرق (صندوق من صدف)؟ أم...

الغريب أنها لجأت إلي في أمر خاص؛ لأقنع ابن عمي برغبتها في إنجاب طفل آخر! لم أخيب ظنها، قمت بالمهمة، التي أوكلتها إلي، على أكمل وجه، أقنعته قائلة: من يتفرغ لطفل يتفرّغ لطفلين! كما أن الطفل الآخر ضرورة لابنهما، إذ، غالباً، ما يعاني الوحيد من مشاكل نفسية! أما الناحية المادية فتتكفّل بها الدولة الفرنسية على حد علمي، يعني يأتي الطفل ورزقه معه، كما نقول في الشام!

وبحكم حشريتي، التي لا تريد أن تفارقني، حتى في زيارة سريعة، سألتها: متى زرتِ أمك؟ فاجأتني بقولها: منذ سنتين! وحين ارتسمت على وجهي ملامح الاستهجان، قالت مدافعة عن نفسها: أمي عجوز، لا تستطيع زيارتنا! وأنا لا أستطيع ترك الطفل!

قلت: هذا معقول؟ وانطلق لساني بحرارة شرقية: أمك قريبة منك، ولا تلتقين بها كل هذه المدة، هذا لا يصح، كدت أقول لها: هذا حرام!

لفت نظري أن ابن عمي كان يصرّ على مناداة طفله باسم عربي (سلام) أما أمه فتناديه بـ(لورنس) تساءلت بيني وبين نفسي: ترى هل سيعاني، حين يكبر من ازدواجية الاسم؟ تذكرت اعتراف (إدوارد سعيد) في مذكراته "خارج المكان" كيف خلّفت لديه هذه الازدواجية

قلق انتماء بين عالم الشرق وعالم الغرب! لكن الوضع، هنا، مختلف، الطفل لن يعيش في بيئتين متناقضتين (كسعيد) الذي ولد في فلسطين، وتربى في مصر؛ ليتابع دراسته في أمريكا، ويستقرّ فيها!

عشت أثناء عودتي من (سواسون) تجربة مرعبة، لا أدري إن كان يحق لي وصفها بمغامرة! فقد تعطّل القطار، ثلاث ساعات، ونحن مازلنا على بعد خطوات من القرية! بدت اللحظات الأولى مليئة بالرعب والترقب، نهض ثانية حاجز اللغة، بعد أن أحسست بالثقة مع زوجة (نور) يبدو أن حالة التوتر عقدت لساني ومخي، كل ذلك؛ ترى أ لأنني سمحت للخوف بأن يهيمن عليّ!؟ لكن بعد قليل حين أتى أحد الموظفين؛ ليطمئننا، ويعتذر عن ذلك العطل المفاجئ، ثم بيّن لنا سببه، طبعاً لم أفهم مصطلحاته الميكانيكية! غير أن ما بدأ يطمئنني هو عودته إلينا كل ربع ساعة؛ ليحدّثنا عن مراحل إصلاحه!

راقبت نفسي، التي بدأت تهدأ، وخاصة بعد أن قرأت ملامح الخوف، وقد استولت على المرأة، التي تجلس قبالتي! أدركت، أو هكذا خُيّل لي، بأنها تأخرت على أطفالها، وسترتبك حياتهم بسبب هذا التأخير! أما أنا فلن أربك عائلة (بونور) سيسير نظام حياتها في غيابي مثل حضوري! أحسست أننا نزداد قلقاً، حين يربك غيابنا من نحب، أو يقلقه! ومع ذلك رأيت أن عليّ أن أخبرها بأنني سأتأخر، فلا أسبب لها أي قلق!

وحين اتصل ابن عمي، لجأت للكذب، فللضرورة أحكام، كما تقول أمي؛ لهذا أخبرته، بأنني أقترب من باريس، وأنا ما زلت في قريته! إذ لا أريد أن أقلقه دون طائل!

حمدت ربي أن العطل ميكانيكي، وليس نتيجة عمل إرهابي، فقد سرح خيالي المؤرق بهواجس، ينخرها سوء الظن! الحمد لله أن أحداً، لم يعبث بأمن القطار! لأنني سأكون أول المتهمين؛ فأنا أرتدي فوق رأسي علامة الإرهاب، في نظرهم، ألا يجد بعضهم في حجابي صكّ تهمة جاهزة! لكنني سرعان ما عدّتُ إلى أرض الواقع، أ لستِ في بلد الحريات والقانون!؟ أبعدي نفسك عن هذه الأوهام! إنك حين تسمحين لها بأن تعشّش في رأسك! تهزين ثقتك بنفسك وبالآخر!

سكنتني الطمأنينة، حين مدّ الموظف الفرنسي يداً؛ تساعدني في النزول من القطار! لأسير في طريق وعرة شبه مهجورة، ومليئة بالحجارة الكبيرة، لكن نصيحته زادتني ثقة وأمناً، إذ رأيته يشير إلى طريق في الجانب الآخر، أكثر سهولة (معبّد بحجارة صغيرة) حيث وجدت موظفاً آخر، يضيء الطريق بمصباح يدوي! وهو يسمعنا أثناء ذلك الأسف لما حصل، ويرشدنا إلى قطار آخر؛ كي نركبه! وحين وصلنا باريس، لم يكتفوا بالاعتذار اللفظي، بل قدّموا لنا اعتذاراً عملياً (وجبة عشاء جاهزة) وبذلك يتمّ تعويض المسافر مادياً ومعنوياً!

كم تؤثر كلمة اعتذار عن الخطأ في نفس الغريب! إنها تطرد خوفه! إنها تحمل رسالة يفوح منها الاحترام لمشاعره وقلقه!

قلت بيني وبين نفسي: إنهم يدركون، هنا، فداحة أن يضيع من الإنسان، أياً كان، ثلاث ساعات! في حين لا أحد يهتم، في بلادنا، بضياع عمر بأكمله!

* * *

الثلاثاء 2008/1/22

تساءلت اليوم مساءً وأنا في أتهيأ للنوم: هل يؤدي تغيير المكان إلى تغيير في العادات، والمفاهيم، التي تنبثق منها! امتدح ابن عمي، وهو يوصلني إلى المحطة، حياته الجديدة، بكل ما تعنيه من انفتاح على أساليب عيش جديدة، لا يمكن أن يتقبّلها في بلده! فقد اعترف لي: نمت اليوم عند صديقي المتزوج من فرنسية، تركني في بيته، وذهب إلى العمل! سألت نفسي: هل يمكن أن يحدث هذا في سورية!؟

قارنت بين انطلاقه في الحديث عن تجربته وجبني، حين كتمت تجربتي الخاصة، ولم أحدّثه عن بقائي مع (مسيو بونور) يومين، حين سافرت زوجته إلى أمريكا! لا أدري لِمَ جبُنت؟ هل أخاف من نظرة استغراب أو سوء فهم؟ لكنه عاش التجربة نفسها! وبيّن لي أنه خالف أطر مجتمعنا، في حين أجد نفسي مترددة! ما زال الخوف يعشّش داخلي! فالمرأة الشرقية في قفص الاتهام دائماً! أعترف بأنني ما زلت تقليدية، لا أجرؤ على الحديث عن تجربة لا عيب فيها ولا حرام! لكن مجتمعي المحافظ لا يقرّ بها!

أعترف أن (مسيو بونور) أوحى إلي بالأمان منذ اللحظة الأولى، أحسست بأبوّته! إنه في غاية الطيبة والتهذيب، يحترم خصوصيتي، لم أجده مرة يقتحم شقتي دون استئذان!

إنني جبانة، ما زالت تقلقني، وأنا في الخمسين، المواضعات الاجتماعية، حتى إنني أسمح لقيودها أن تهدد سكينتي! بل تحاول أن

تمنعني من الحديث عن تجربة عايشتها، لم أرتكب فيها إثماً! وحتى حين أردت الكتابة عنها، وجدتها تحاول إخماد تلك الرغبة!

* *

بعد الغداء، اليوم، فارت القهوة السورية، التي تحب المدام غليها على الطباخ الكهربائي، فقلت: في بلدي، حين يحدث هذا نقول: انسكب الشر، أو جاءتك رزقة! فأجابتني: نحن نقول: إنه الإهمال وعدم المهارة!

قلت بيني وبين نفسي: نعيش على راحتنا، ونلقي بأخطائنا على كتف الغيب! فنجعلها فألاً حسناً! أما هم فينتقدون أنفسهم في الأشياء الكبيرة والصغيرة!

لاحظت أننا نلتقي، أحياناً، في مقولات شعبية، كتلك التي تتحدث عن الخوف من المجهول! فمثلا: سمعنا ذات مرة صوتاً مبهماً، فقالت المدام: إن هذا البيت مسكون بالأشباح! أضفت: نحن نقول: إن هذا البيت مسكون بالجن! وهكذا نجد الإنسان الشرقي أو الغربي يخاف من كائنات مجهولة، تسكن وعيه، أو بالأحرى لا وعيه! لعله ذلك ميراث أجدادنا جميعاً!

* *

كان حنظلة، اليوم، ممتناً لـ(لمسيو بونور) حين سمعه، على مائدة الإفطار، يتحدث بألم عن الشعب الفلسطيني في غزة، ومعاناته من

الحصار وانقطاع الكهرباء، ثم أتى بجريدة (اللوموند) ليرينا مقالاً صغيراً، يتحدث عن معاناة الفلسطينيين (خمسة أسطر تقريباً) في حين خُصصت نصف صفحة لسباق السيارات في إسرائيل!

احتدّت المدام، وقالت: علينا أن نحوّل هذه الجريدة إلى ممسحة! بل الأفضل تمزيقها! ما هذا العالم المجنون؟ كانت تتكلم بحرارة إلى درجة خاف عليها حنظلة، وكاد يحرر يديه لعناقها! أما أنا فرجوتها أن تهدأ رفقاً بقلبها النبيل!

* *

أخلفت صديقتي (نينا) التي أتبادل معها اللغة، ما وعدتني (سأعود بعد أسبوعين) بعد أن سحرتها دمشق، وشاب سوري، لم تحدثني إلا القليل عنه، لكن حديثها، بدا لي، ينبض حرارة وحباً! استطعت أن استشف منه أنه يعمل في المسرح مثلها.

لاحظت زواج كثير من الفرنسيات من عرب وأكراد! لا أدري ما الذي يعجب الغربية بالشاب الشرقي؟ هل تريد تغيير نمط حياتها؟ أم "القلب وما يريد" كما تقول أمي؟ هل تراه أكثر عاطفية على حد تعبير ابن عمي (نور)؟ هل هو نوع من عيش حلم رومنسي، ينتمي لعوالم شرقية مدهشة!؟

أ ليست هذه هي إحدى فضائل العولمة؟ سهلت لقاء الرجل بالمرأة، في الماضي كان الرجل الشرقي يأتي إلى المرأة الغربية، لاحظت اليوم أنها تأتي إليه! وسائل المواصلات، وسائل الاتصال الحديثة، سهلت

التواصل! أعتقد أن الزواج الناجح بين رجل وامرأة ناضجين، يحترمان بعضهما بعضاً، ينتميان إلى الشرق والغرب، يقرّب بين الثقافات المختلفة، شرط ألا يلغي كل واحد منهما خصوصيته! أعتقد أن هذا في صالح الإنسانية! إذ يقضي مثل هذا الزواج على سوء التفاهم، الذي هو ابن أفكار وهمية ومشوّهة بين الشرق والغرب! لكنني سمعت صوت أمي ينهرني: (بلا لعي وحكي فاضي، يلّي بيتزوج من غير ملّته، بيموت بعلّته) أجبتها: هذا هو تفكير العشيرة والطائفة، الذي ضيّعنا، فصرنا ورا البشر!

* * *

الجمعة 2008/1/25

حاولت بالأمس ممارسة رياضة المشي، بعد أن أكدّت حجزي في الشركة السورية للطيران، سألت الموظف عن الطريق، وبدأت المسير بشوق عاشقة، ترغب في مرافقة حبيبها أكبر وقت ممكن! ولحسن الحظ، صادفت في طريقي سوقاً، قلت: أتنزّه، وأتسوق معاً، وبذلك أصيب عصفورين بحجر واحد! اشتريت بتهور، من يريد الخلاص من هم ثقيل، الكثير من الهدايا، كي أرضي جميع الأحبة!

تابعت مسيري، وقد أسعدني التحرر من هذه المهمة؛ فوجئت بنفسي وأنا أمشي قرب مظاهرة، انخرطت دون وعي فيها! لا أدري هل هي حماسة المتظاهرين، هي التي أصابتني بالعدوى؟ أم إحساسي بطعم

الحرية؟ أم رغبة لا شعورية في الانتماء إلى الآخر؟ لكنني حين أصغيت إلى هتافهم، الذي يطالب بزيادة القدرة الشرائية! انسللت من بين الجموع هاربة، أتعثر بخجلي وأكياسي الكثيرة!

أحسست في تلك اللحظة بأنني أخون قضيتهم، ولا أنتمي إلى همومهم! لعنت تلك الأكياس، التي جعلتني أنتمي إلى طبقة أخرى بغيضة، لا أحبها! بدالي سيري في مظاهرتهم نوعاً من السخرية واللامبالاة بهم! وهذا أبعد ما يكون عن تفكيري!

أرخى الليل مطره عليّ، ربت في البداية على رأسي وكتفيّ بحنو! ثم اشتدت ضرباته! أسرعت بالوقوف تحت مظلة باص، لعلي أجد من يدلّني لكنني فوجئت برائحة الخمر!، فولّيت هاربة! وقد تلبّسني الخوف والتبعثر معاً!

دخلت محطة المترو، كالعادة الكل مسرع، غمرتني الغربة بقسوتها، أحسست بطعمها المر الحارق! وقد تحالف معها الليل والمطر والضياع!

لم يطمئن قلبي لدخول احد الأبواب (حيث عليّ وضع بطاقة؛ ليفتح) تجرّأت وسألت، فتبيّن لي خطأي، رددت قلب المؤمن دليله، كما تقول أمي!

هدّأت روحي، وحاولت الاعتماد على نفسي، فقلت: دخلت هذه المحطة سابقاً! الحمد لله تذكرت طريقي!

* *

تلقيت بالأمس دعوة لقضاء العطلة مع الأسرة في قرية ***(Samois)*** سألتني المدام: هل لديك موعد؟ قلت لها: لدي مع صديقتي (جين)

أؤجله! وردّدت بيني وبين نفسي ما تقوله أمي: "ساعة البسط (السرور) لا تفوتها"

بعد الغداء، تذكرت أن لدي موعداً مع البنك الساعة (الثانية والنصف) فأخبرتها، فقالت: ليس ثمة مشكلة، نسافر بعد موعدك! كم أحسست بالامتنان!

حدّثت صديقيّ عن استغرابي تصرفات البنك، فقلت: لِمَ يعطيني موعداً!؟ أنا أريد سحب كامل حسابي! فهمت منهما: أنه ربما يريد إقناعي بعدم سحبه!

كم أسعدني أن تقترح على زوجها مرافقتي؛ كي لا يحدث سوء تفاهم بسبب اللغة! مما بث الأمان في نفسي!

* * *

السبت 2008/1/26

فتحت عيني اليوم، وأنا أتذكر ضباب حلم، يبدو فيه وجه ابن عمي (نور) مكفهراً! تذكرت حواراً، جرى بيني وبينه، إثر حديثه عن مشاكله مع أهل زوجته الفرنسية! (طردوهما من البيت في باريس، بعد أن حملت منه!)

- قال لي: إنهم لا يحبّون الغريب!

- قلت له: نحن في بلادنا ألا يقلقنا تزويج بناتنا من غريب! أ لم تسمع مثل أمي "زيوان البلد ولا قمح الجلب"؟ أ لا ترى معي بأننا

نرفض كل من يختلف معنا بالطائفة أو المنطقة أو...! فما بالك بمن تجتمع لديه كل هذه الاختلافات! قلت في نفسي: أخذتَ ابنتهم، ولم تجد عملاً في فرنسا! وتريد أن يرحبوا بك!

- قال لي: أحسّ بالنفور من تصرفاتهم، لماذا يكرهوننا!

- لا تنسى الصورة المشوّهة، التي يرسمونها للعرب! حتى نحن نشوّه الغرب! وبذلك نخاف الاقتراب من بعضنا بعضاً، خاصة في الحياة اليومية!

- لكن وسائل الإعلام قرّبت المسافة بيننا!

- طبعاً أوصلت لهم أفعالنا السوداء وأفكارنا المتخلفة...

- انظري إليهم! إنهم يعمّمون صورتنا هذه!

- حاول تغييرها، أنت مسؤول عن ذلك، طبّق قوله تعالى "ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌ حميم" قلت ذلك وأنا أعرف تديّنه! عرفت من زوجتك أنها لم ترَ أهلها منذ سنتين، هل يجوز عقوق الوالدين! أنت رجل مؤمن!؟

- لكنهم طردونا من بيتهم في باريس!

- حاول أن تنسى ما يؤلمك! ابدأْ الخطوة الأولى، أقنعْ زوجتك بزيارة أهلها وبِرّهم! الصغير ليس حجة، يمكن أن يبقى عندك! وشيئاً فشيئاً، سيغيّرون موقفهم! خاصة حين يرون طفلكما! إنه خير من يعيد المياه إلى مجاريها!

تأملت حياة ابن عمي، إنه خريج قسم اللغة الفرنسية، لا عمل لديه، هنا، سوى رعاية الطفل، في غياب زوجته الموظفة! يمارس الرياضة، ويقرأ! لا أخاف عليه من الفكر الإرهابي، تديّنه منفتح! الحمد

لله أنه ناضج! تُرى لو كان شاباً صغيراً عازباً! ويعاني فراغاً كبيراً! وفوق ذلك يعيش دون ثقافة، ترقى بوجدانه! ألا يؤثر ذلك على طاقته الفكرية وحيويته! ألا يمكن أن يستهويه دين مغلق على العنف؟ ألا يمكن أن يصبح فريسة سهلة لأولئك العابثين بالأرواح والعقول!؟ ألا يستطيعون ملء فراغه بظلامهم؟

* *

قلقت اليوم على مسيو (بونور) حين ذهب إلى المشفى لإجراء بعض الفحوصات بسبب ارتفاع ضغطه! وحين عاد، طمأنتني زوجته قائلة: إن وضعه طبيعي، لكن عليه أن ينتبه! فشمّرت عن حشريتي، وبدأت أنصحه بكل ما في قلبي من اهتمام وود!

- حاول ألا تأكل الزبدة يومياً! خاصة أنها تُصنّع بالملح!
- أحب أن أستمتع بالحياة! ولا أحرم نفسي شيئاً!
- حين تنظّم حياتك وفق حمية، تألفها مع الأيام، لن تحس أنها عبء عليك!
- من حقي أن آكل، أحياناً، ما أشتهي!
- ليتك تلتزم بكلمة (أحياناً) فتخرق الحمية من باب تغيير الروتين! لا يخفى عليك من لا يداري جسده، يخذله!
- كأنك تقولين: إننا مسؤولون عن أمراضنا!
- هذا ما أعتقده!

* *

سافرنا معاً، بعد الظهر، إلى البيت الريفي، جاملت نفسي، وهمست في أذنها: لو لم تسعدهم صحبتك الأسبوع الماضي، لما وجها لك الدعوة ثانية! إنهما لا يعرفان النفاق! ولا أحد يجبرهم على استضافتي في نزهتهما الأسبوعية! كم أسعدني ذلك!

لاحظت أنهما يفضلان الجولة ظهراً؛ لهذا رتبت برنامجاً صباحياً خاصاً بي، أستيقظ مبكراً، أعمل في البحث، وأزور صديقي السين، لأتمتّع ناظري بجماله الفطري!

قبل خروجي لابد أن أسمع جملة: هل لبست جيداً لمقاومة البرد!
فيجيب قلبي بامتنان: نعم!

* * *

2008/1/27

زرنا اليوم غابات (بلو) بقيادة المدام، تتقدّمنا بخطوات شابة! وكي أكون صادقة، كنت أسير آخر الركب، إذ تقدّمني مسيو (بونور)! لاحظت اعتيادهما السير على الصخور الكبيرة الخضراء، أما أنا فكان عليّ أن أمسك بيد الحذر تارة، وبيد جمال لم أشهده من قبل تارة أخرى!

بدا المشهد غريباً عن عينيّ، وجدت نفسي في جنة خضراء، تسيل فيها أوردة صخرية، أحسست أنني أمام حلم نضر! ينير معجزة كونية! فانطلق لساني: سبحان الله!

مشينا أكثر من ساعة، ثم اكتشفنا أننا أخطأنا الطريق! حتى إننا وجدنا أنفسنا قرب السيارة! فقلت ضاحكة: لم تصبر السيارة على فراقنا، فلحقت بنا!

يتحول الخطأ في الغابة إلى نعمة! سيتيح لنا اكتشاف جمال طريق آخر! بدت المدام، وهي تعيد قراءة الخريطة، مشغولة بأسباب هذا الخطأ، كي لا نقع فيه! وأنا مشغولة بتأمل الجمال حالمة برفقة كأس من الشاي! كي ألتقط أنفاسي، إذ لم أعتد هذا المسير الطويل، وأنا أتسلق الصخور! تجرّأت، وسألت: هل نشرب الشاي هنا؟

فقالت: سنختار مكاناً آخر أكثر جمالاً! قلت في نفسي: هل يوجد مكان أجمل؟!

تابعنا طريقنا، والزوجان يتأملان الخريطة، وأنا أحلق في عالم آخر! أتأمل فيه الطبيعة، خاصة أن الطريق بين الأشجار بدا ممهداً ومريحاً، على نقيض الطريق السابق، لكن شيئاً فشيئاً دخلنا عمق الغابة، وبدأنا الصعود الوعر، سبقني (ابن السبعين) في حين سبقته (ابنة الخامسة والستين) وأصبحت في المقدمة! اتسعت المسافة بيننا! فأحسست بثقل خطواتي وهرمي، فصرخت مستنجدة: رفقاً بي! ارحما شيخوختي!

* *

تحلقنا في المساء حول مدفأة الحطب، نتأمل وهج النار! كأنها وجدت لتدفئ كلماتنا! وتنير طريق أفكار ومشاعر، تختبئ في كهوفنا، نكاد لا نحس بوجودها!

– قلت متفلسفة: تلتهم النار كل الأشياء السيئة، ثم قذفت منديلاً ورقياً، كنت أحمله، وتكاسلت عن رميه في القمامة!

- قالت المدام: الكافر (فرنسوا/ أي زوجها) أيضاً في النار؟
- الله أعلم! لأن من يعمل صالحاً في الدنيا وقلبه مليء بالخير، لا أعتقد أن الله سيعاقبه! ألم يعطِ (مسيو بونور) مفتاح بيته إلى كاترين ورنيم... ويجعل بيته أشبه بأوتيل مجاني!
- ثمة أناس في الغرب غير مؤمنين، لكنهم يفعلون الخير!
- أ تعرفين أن أمي كانت تقول لنا: إن ربنا رب قلوب! أبي لم يفصل في حياته عمل الخير عن الإيمان!
- أين المشكلة إذاً؟ انظري إلى كثرة المؤمنين، الذين يجعلون عنفهم صورة لإيمانهم!
- أضاف (مسيو بونور): ثمة إيمان يبني الحضارة، وآخر يهدمها! في "الحلم المكسيكي" للوكليزيو، وجدت تعريفاً للحضارة الغربية بأنها حضارة العبودية والذهب واستغلال الأرض والبشر!
- قالت المدام: ضيّعنا المعنى الحقيقي للحضارة، التي تُعنى بالإنسان والطبيعة والجمال!
- تساءلتُ: هل يمكن لمن استخدم القنبلة الذرية، أو احتل بلاد الآخرين، فقتل وطرد، أن يكون مؤمناً؟
- قال: باسم الدين ذهب المسيحيون إلى أمريكا، ارتكبوا المجازر، أبادوا الهنود الحمر!
- قالت المدام: حتى إن كلمة مسيحي اقترنت في مخيلة الهنود الحمر بالقاتل!
- قلت: المسيح بريء من أفعالهم، إنهم شوّهوا دين المحبة، وحوّلوه إلى دين قتل! مثلما شوّه المسلمون دين الرحمة، وحوّلوه إلى إرهاب!

- قال: لهذا لسنا بحاجة إلى الدين!

- قلت: أنا متأكدة أن كلمن يقتل باسم الدين، لا يعرف الله، لأنه لا يعرف الرحمة والمحبة! وكل من يعمل الخير قلبه عامر بالإيمان، وإن لم يعترف لسانه!

نظرا إلي مستغربين إصراري على إلباسهما لبوس إيمان، لم يخطر لهما على بال! لكن أ ليست العلمانية، التي يتبنيّانها، إيماناً، يسعى إلى رقي حياة الإنسان؟

* * *

الاثنين 28/1/ 2008

اتجهنا اليوم إلى الغابة، بهرتني الخضرة في عزّ الشتاء، وأنا ابنة الصحراء! الآن ارتوت روحي بالجمال! بعد أن عشت حياتي، أفتقده! بدأت نفسي، هنا، ترفل بحرير السكينة! تتمدد فوق سرير أخضر، أشبه بحلم؛ لترفرف في سماء صافية، أزهرت روحي في حضن هذا الجمال البكر! نسيت قلق الماضي والمستقبل، باتت تنعم في لحظة آنية، كثيراً ما أهملتها!

قلت لصديقيّ: من حق السفارة الفرنسية التدقيق في منح (الفيزا) بلادكم جميلة، من يرَها لابد أن يعشقها! وتراوده فكرة البقاء فيها!

سألتني المدام: هل تريدين البقاء!

قلت: لا، لكنني أحب زيارتها مرة أخرى!

تذكرت ابنتهما (فلورا) كيف تعشق الشام! وتترك كل هذا الجمال! فقلت:

- فلورا مجنونة! كيف تترك كل هذا السحر!

- قالت: من أجل أهل الشام!

لاحظت أن المدام صعدت صخرة مرتفعة وضخمة، أشبه بقبة، بدت لي في الطبيعة أشبه بطفلة شقية، تفعل ما يحلو لها، نظرت إليها بإعجاب، قرأت أمنية الصعود في عيني! مدّت يدها؛ لتساعدني! لكن عقلي، بدأ يشتغل، كالعادة، دارساً أبعاد الموقف! فسألتها: وكيف النزول؟ قالت: تتزحلقين! عندئذٍ اقتنعتُ، وصعدت!

كان التزحلق سهلاً، أمتعني! وأعاد إليّ طفولتي! استيقظت شقاوتها مع تذوق الجمال وعذوبة الصحبة، أحسست أنني في عالم سماوي، يغسل الروح، ويطرد غصص الحياة وحقارة بعض البشر!

شربنا ألذّ شاي وأكلنا أطيب تمر! لم يستطع قلبي إلا أن يتحدث بخفق مشاعره: بفضلكما أحسست أن الحياة أعطتني أكثر مما أستحق!

نظر إلي مسيو (بونور) مستغربا! قلت له: هل أخطأت في اللغة! قال: لا! لكنك تمتدحيننا كثيراً، نحن لم نعتدْ ذلك!

قلت: أنا لا أعرف المجاملة! هذا هو الصدق، الذي نطق به قلبي!

* * *

الثلاثاء 2008/1/29

عرض طالب سوري (فادي) مرافقتي إلى كنيسة (القلب المقدس ***Basilique du Sacré Coeur***) بدت لي، وهي في قمة عالية، أشبه بقلعة جميلة ومهيبة معا! لم ندخل الكنيسة، أصغيت لنصيحته، بأن الكنائس تتشابه من الداخل!

حين نزلنا إلى (مونمارتر) أحسست أنني في معرض للفن التشكيلي في الهواء الطلق، ينتشر الرسامون في الشارع عارضين على السياح رسم وجوههم! لا أحب أن أوثّق لصورة، تلازمني حقيقة لا ورقاً، حتى إنها سترافقني إلى القبر! أبحث عن صورة، يخبئها قلبي بين نبضاته! تنتعش بها ذاكرتي في أي وقت! أحس أن التقاط صور، يسرق مني لحظات، أحتاجها في تأمل جمال، قد لا ألتقيه ثانية، فأنا أحب أن أرتشفه؛ فتنتشي حناياي، وهي تخبّئ أنوار بهجته؛ لعلها ترافقني أبداً!

دعاني (فادي) لنشرب كأساً من الشاي، فقلت له: شرط أن تقبل دعوتي! لكنه رفض! فقلت له: إذاً لا أقبل دعوتك! قلت في نفسي: إنه طالب، عليّ أن أساعده على الاقتصاد! أي مبلغ يصرفه، هو أحوج ما يكون إليه!

كان لقاء مدهشاً!، بدا لي أنني أعرفه منذ زمن طويل! أدهشتني صراحته وانطلاقه في الحديث مع أنني ألتقيه للمرة الأولى! حدّثني عن تجربته مع الفتاة الغربية! وعن إعجابه بها، واحترامه لها! لكن المشكلة في العادات والتقاليد، التي فرّقت بينهما! لم يخض في التفاصيل، لكني لاحظت أنه أقرب إلى شخصية الرجل الشرقي، ربما هيمنت عليه

الرغبة في التملك، وفرض قيمه الشرقية! لعله كان يريد أن يجر الفتاة الغربية إلى عالمه...وهذا ما ترفضه! سألته:

- أ لن تعيد الكرة مع امرأة غربية؟
- لا! سأتزوج من سورية!
- ما الذي لا يعجبك في الغربية؟
- إنها عنيدة!
- بصراحة، هذا يعني أنها ذات إرادة مستقلة! أتعرف ما هي أكثر كلمة سمعت المرأة الفرنسية تنطق بها هنا؟
- ما هي؟
- ***(C'est un choix)*** هذا خياري! تريد أن تعبّر عن حريتها، وعن مسؤوليتها في الوقت نفسه!

سرح ذهني متأملاً: مساكين شبابنا، يريدون من المرأة الغربية أن تجمع، وهي تعيش معهم، غربها وشرقهم! وذلك شبه مستحيل! معظمهم لا يستطيع أن يتقبّلها، كما هي، بعضهم يعيش ضحية وهم أنه يستطيع تغييرها! لهذا تفشل علاقته بها! إنه لا يتخيّل أنها حين ترغب بالتغيير، فإن ذلك من أجل نفسها أولاً، لا من أجل سواد عينيه! لعل هذا الأمر نجده في الشرق والغرب، فالرجل يحب المرأة، التي تتنازل من أجله! مع أن المنطق يقول بضرورة أن يتنازل الطرفان معاً! أما حين يتنازل طرف واحد للآخر، فهذا يعني أنه يضغط على نفسه وقناعاته! مما يؤدي إلى فشل العلاقة بين الرجل والمرأة عاجلاً أم آجلاً! وقد لاحظت أن من يمارس ذلك الضغط والتنازل من أجل إرضاء الآخر، تسوطه أمراض النفس والجسد معاً!

حدّثني أنه في إحدى الحفلات، دعا فتاة فرنسية للخروج من الصالة إلى الشرفة قائلاً: هيا نخرج للتدخين! فأمسكت في تلابيبه، وصرخت في وجهه: المرأة الفرنسية، هي التي تقرر الخروج أو عدمه!

قلت في نفسي: استخدم صيغة جماعية (نخرج) ولم يأمرها بصيغة المفرد (اخرجي) ترى ماذا يحصل، لو أمرها مباشرة؟! ربنا يستر!

* * *

الأربعاء *2008/1/30*

تحدثت اليوم على الهاتف مع صديقتي (روعة) بطريقة غبية، تدخلتُ فيما لا يعنيني! إذ أظهرت استغرابي من وضعها الدائم لنظارتها السوداء، حتى في بيتها!

- قالت: إنها تحمي عينيّ من الضوء، فهما حسّاستان!
- قلت لها بنبرة مستغربة: إلى هذا الحد! الضوء هنا خفيف! بإمكانك في البيت أن تتحكمي به! فأراك دون نظارة!
- قالت: لا تتشرطي!
- قلت: بصراحة النظارة السوداء، تخلق حاجزاً بيننا!
- هدّدتني بلطف: يمكنك أن تعتبري ما شفتك وما شفتني!
- دافعت عن نفسي، وقد أحسست أنني أزعجتها: الحديث مع روائية، تتفحصني بعينيها الذكيتين، أمر متعب لي! فكيف إذا كانت تتفحصني من وراء ستارة سوداء، أسدلتها على عينيها! تزداد استكشافاً لي، وأنا أقف أمامها عزلاء، لا أستطيع حراكاً، ولا فهماً،

فالمشاهدة نصف الحديث، ألا تعرفين مَثَل أمي الذي يقول: "العين مغرفة الكلام"! رقّ قلبها على ما يبدو، فقالت:

- نلتقي نصف ساعة!

مع أنها في بداية الحديث، قالت: نلتقي ساعة، يبدو أنها عاقبتني على صراحتي! وأنا التي تريد الانطلاق معها دون حواجز مرئية! تصدم القلب قبل العين!

- قلت كما تريدين!

عادت تحدثني عن حزنها على فقد زوجها، تحس بنفسها مبعثرة، وهي إلى الآن، لم تستطع لململة شتاتها! يبدو كلما ازداد الإنسان حساسية، زاد وجعه على فقد أحبابه!

حين أنهيت المكالمة، قلت في نفسي: لعلها تريد من وضع النظارة أن تخفي حزن عينيها! وما فعلته يد الزمن الخبيثة بهما!

* * *

الجمعة 1/2/ 2008

غضب اليوم مسيو (بونور) حين استغربتُ أن تكون كلمة ***(Croisé)*** صفة واسماً، كما وجدتها في القاموس! مع وجود اسم آخر ***(lacroisade)*** أعترف أنني كنت أريد أن أفهم أسرار لغتهم، ولا أقصد التهجم عليها، أو النيل منها!

قال بنبرة محتدة، وقد خُيّل إليه أنني أنال من قدس أقداسه: عليك أن تتقني اللغة، عندئذ تعرفين الفرق بين الاسم والصفة!

لا أدري لِمَ تأثرت؟ مع أنه يقول الحقيقة! هل السبب في طريقته الغاضبة؟ أم هي حساسيتي الأكثر من اللازم!؟ لعله ظن أنني أتجرأ على لغته! حين أستغرب فيها بعض الظواهر؟ ارتسمت ملامح التأثر على وجهي، وهذه عادة لم أستطع التخلص منها! هبّت زوجته لإنقاذ الموقف! وضّحت لي بهدوء أن الصفة والاسم، يلتقيان في مفردة واحدة في الفرنسية! وأضافت أنهم يستخدمون هذا الفعل نفسه لعملية التعذيب! رغم وجود فعل آخر لهذا الغرض!

* *

دعتني المدام للذهاب معها إلى السوق لشراء ستائر! وجدت في المحل نوعية رقيقة، لا تقاوم الزمن! سألت: أريد نوعية أكثر متانة! فقال: لا يوجد! نحن نبيع هذا النوع؛ لتشتري بعد فترة ستائر جديدة!

قلت بيني وبين نفسي: إنه عصر الاستهلاك!

حين خرجنا من المحل، قلت لها: التجار عندنا، يفعلون الشيء نفسه! لكنهم يكذبون، ويدّعون أنها متينة!

* *

ذهبت بعد الظهر إلى البنك، رافقني مسيو (بونور) سحبت رصيدي، ولم يبق منه سوى (*200* يورو) وقد حاول البنك إقناعي بعدم سحبه، قلت له: ربما لن أستطيع العودة! كم أحسست بالأمان، حين أمسكت بما تبقى من منحتي!

في المساء سحبت (**100** يورو) اكتشفت أن ثمة نقصاً في حسابي، يعادل المبلغ، الذي سحبته، ملأني الاضطراب والقلق! استشرت (مسيو بونور) قال: عليك أن تنتظري الموعد المقبل الثلاثاء! لكن توتري لن ينتظر! فالمبلغ ليس قليلاً! احترت في أمري! المشكلة أن ثمة عطلة، يتجمّد كل شيء! كما أن هناك مشاكل، يعاني منها البنك! تساءلت، بيني وبين نفسي، بسذاجة: هل يريدون إصلاح ميزانيتهم على حسابي؟ هل تريد الرأسمالية سرقتي، كما سرقني الاستعمار من قبل؟

غرقت كعادتي في القلق! مع أنني عاهدت نفسي: عليّ ألا أُستفز، مهما حصل من أخطاء! لكن ما أسهل التنظير، وما أصعب التطبيق، حين تهاجمنا مشاعر التوتر، سرعان ما نسقط ضحية وهم بأننا مخدوعون في غربتنا! دائماً أعاهد نفسي على عدم المبالاة بالمال، لكنني سرعان ما أتراجع، وأسقط في مستنقع، تفوح منه رائحة القلق! وأصغي إلى صوت شيطاني، يعلن بأنني سُرقت! أمنح الكثير عن طيب خاطر، إلى درجة أخاف أن يُحجر علي! لكن الإنسان يجد نفسه في الغربة فريسة سهلة لهذا الصوت، الذي لا يملّ من ترداد لازمة أنه ضعيف، يسوطه النصب والاحتيال!

* *

هتفت إلى صديقتي (روعة) لأعتذر منها! حين اشترطت للقائنا خلع نظارتها السوداء! قلت لها: إنني آتية من بلاد قهرستان كما تعلمين! ولم أعتد احترام حرية الآخرين! بعد ذلك فلت لساني مني، وقال:

بصراحة لون النظارة، يذكرني بالبصاصين في بلادي! وأنا أريد، هنا، أن أرتاح منهم!

انطلقت تتحدث برقة وحميمية، فاندفعت، على غير عادتي، وحدّثتها عن رغبتي في رصد المال، الذي وفّرته في رحلتي هذه، للخير! وبالتحديد من أجل التعليم، على نية أن يكون وقفاً لروح أمي، التي لم أصغِ لعدم رغبتها في السفر! كشفت لها ما خبّأته من إحساس بالذنب، ما زال ينهش أعماقي!

حدّثتني عن وحشتها وحزنها لافتقادها شريك حياتها، الذي كان الحبيب والزوج والصديق! قلت لها: أتعرفين لو سمعتك أمي تصفينه بهذه الصفات، لقالت: "رجال ورجيّة وللدهر خليّة" (رجل ترجوه كل النساء، إنه أفضل خلّ، يسند المرأة في مصائب الدهر)

بفضل هذا الحديث الحميمي، رضيت أن نلتقي بعد يومين، طبعاً دون شروط مسبّقة، في مكان عام!

❊ ❊ ❊

السبت 2008/2/2

زادت ثقتي بنفسي، حين ناقشت بالأمس بالفرنسية، أثناء حضوري محاضرة عن دمشق! فقد استطعت إيصال فكرتي رغم لساني المرتبك!

هذه الثقة ساعدتني على الذهاب للبنك وحدي، إذ اكتشفت أنه يفتح يوم السبت، لكنني قبل أن أذهب! استعددت لغوياً للقاء، كررت للمدام الأسئلة، التي حضّرتها!

حين تحدّثت مع الموظف قال لي: ليس ثمة خطأ في الحساب! كل ما في الأمر، أن آخر مبلغ سحبته، لم يكن قد حُسب! ثم تابع حديثه، فلم أعد أستوعب! المهم أنني ارتحت، وأنني مسؤولة عما حدث، فأنا لا أهتم بتسجيل ماذا أسحب؟ إذ أترك الحسابات لذمتهم وضميرهم! وبما أنني لا أحب أن أتعب ذهني بالأرقام! عليّ أن أتحمل النتيجة! انتبهي أنت تتسرعين وتظلمين الآخرين! هذا كله من الشيطان! لا. لا. هذا كله من استسلامك لمخاوف وأوهام، تعشش في وعيك وغربتك!

أنت السبب! لم تتقني اللغة! قد تستطيعين تسيير أمورك العلمية (بفضل القاموس) وأمورك الاجتماعية بفضل لغة الإشارة! أما في الأمور المادية فالأمر مختلف! من الضروري إتقان لغة البلد، الذي نعيش فيه، كي نحس بالأمان، ونأمن شر المعاملات البنكية!

أنتِ تعيشين بسبب عدم إتقانك الفرنسية نهباً للمخاوف، كأنك معوقة! ترضى أن تعيش عالة على الآخرين! أنتِ التي اعتدت، في بلدك، الاعتماد على نفسك! أعترف بأن ما ينغّصني، هنا، هو إحساسي بأنني أثقل على غيري! فيقلقني ذلك قدر خوفي من السرقة! أنا في بلد، يعلي شأن الحرية الفردية! الناس، هنا، اعتادوا على إيقاع منعزل وحر! لاحظت أن (مسيو بونور) خرج من المنزل خمس مرات تقريباً! ولم يعرض عليّ أن يرافقني إلى البنك! عندئذ زاد قهري، لعنت الغربة، مثلما لعنت الفردية الغربية! لكن بعد أن اعتمدت على نفسي سكنني هدوء، أعاد لي الثقة! أ ليس هذا ما تريده عائلة (بونور)؟

* *

حزنت اليوم، حين أخبرتني المدام أنهما سيسافران في رحلة إلى مصر قبلي بيومين! كم تمنيت لو نعمت بصحبتهما حتى نهاية إقامتي!

سألت المدام إن كانت تستطيع أن تحدد لي موعداً؛ لتصحّح لي ملخص بحثي، الذي كتبته باللغة الفرنسية، فوعدتني مساء! كم سرّها انتهائي من كتابته (طبعا باللغة العربية)

* *

افتقدت صديقتي (نينا) فقد طال غيابها أكثر من شهر ونصف! مع أنها قالت لي: ستمضي أسبوعين وتعود! كانت ترفض أن نلتقي مرتين في الأسبوع! بحجة العمل! لكنها في سورية غيّرت إيقاع حياتها! وربما أحست أن عملها سيغنني في الشرق! إذ تحتاج الكتابة إلى التأمل والثقافة والهدوء! من حقها الآن أن ترتاح! كانت حياتها في فرنسا لهاثاً محموماً، حتى استطاعت شراء شقة صغيرة!

يبدو أنها غارقة في العسل مع زوجها! لهذا نسيت عملها، هكذا المرأة قلبها أولاً! لكن لا! قد يكون لقاء الأحبة وتغيير البيئة خير محفّز لحياتها وكتابتها! ألا ينعش الحب المخيلة؟ ألا تنعش الحياة في الشرق الإبداع؟ تخيلتها عائدة إلى فرنسا، وجعبتها ممتلئة بنصوص مسرحية!

للأسف سأسافر دون أن أودعها، حزّ في نفسي ذلك، أحببت عطاءها وبساطتها!

* * *

2008/2/3

حدث اليوم أمر مزعج لي، لكنني استطعت أن أهدّئ نفسي، فقد وعدني المشرف على بحثي أن نلتقي صباحاً، انتظرته حوالي ثلاثة أرباع الساعة، فقد أتيت تحت وابل المطر، (وأنا مزكومة) عزّ علي أن أنتظره مثل هذا الوقت! لهذا قلت في نفسي: هناك طريقتان للتفكير، الأولى: مزعجة (عدم التقيد بالموعد، يعني عدم الاحترام) فأصل إلى نتيجة تهينني (إنني لاشيء) الطريقة الثانية: لا يحق لي إساءة الظن وإرهاق روحي، هناك سوء تفاهم ما، أو ربما حدث أمر عارض، أو مرض لا سمح الله! خاصة أنني لمست احترامه لي، حين التقيته سابقاً!

تأملت جمال البناء، تخلى لساني عن ارتباكه، وانطلق يسأل الموظفة عن سبب تأخره، حاولت مساعدتي والاتصال هاتفياً بمكان عمله الآخر، لكنها لم تجده، تركت له رسالة وخرجت، قلت: استفدت من خروجي من المنزل على الأقل تنفست هواء نقياً ومشيت تحت المطر في رفقة صديقي، رأيت الجانب الإيجابي للموضوع، تمتعت بمنظر المطر، وهي ينقش على صفحته لوحة فسيفساء، تنبض بأجمل ألحان، تعزفها السماء على مياهه!

كتب إلى(صفاء) "تخيلي شحاذاً (ربما كان من أوروبا الشرقية) تحت أحد جسور السين يضع موسيقى هادئة، وآخر يشرب البيرة مع صديقه الكلب!"

في المساء حين اتصلت هاتفياً بأستاذي، أُخبرت بأنه مريض في المشفى، تخيلت حالي! لو استسلمت للتفكير السلبي، لكنت أسأت

لنفسي أولاً ولغيري ثانياً! أحاول، هنا، أن أتغير، فالآلام، التي عانيتها في بداية سفري، كافية لتعلّمني بعض الحكمة في هذه الحياة، التي نعيش فيها أياماً، ثم نرحل في أية لحظة، قد لا نستطيع فيها لملمة أغراض دنيانا!

* *

دعوت صديقتي (جين) للغداء! سألتها كيف قضيتِ عطلتك؟ فقالت: ذهبت إلى السينما ليلاً! أما في الصباح فذهبت إلى المسبح، ثم إلى الكنيسة! ثم جاءت إليّ؛ لنذهب سوية إلى متحف الفن، وفي المساء لديها موعد مع الأصدقاء!

إنها تلتهم الحياة التهاماً، فهي تعيش أضعاف ما يعيشه الشباب والكهول عندنا! إنها تستمتع بصداقة جنسيات متعددة (يابانية، تركية، يمنية....) تسافر من أجل المغامرة والمعرفة! لا يهمها أن ترفّه نفسها بملابس وعطور ثمينة، إنها تستغني عن كثير من الكماليات؛ لتعيش حياة المغامرة! حدّثتني كيف تنقّلت بين قرى يمنية بوسائل نقل عامة وشعبية! وحين سألتها: أ لم تتعرضي إلى مواقف مزعجة!؟ قالت: طبعاً! لكنني واجهتها بثقة بالنفس!

قلت في نفسي: إننا نعيش مكبّلين بالخوف، تتيه خطواتنا في مهاوي الرعب! نستسهل حصار العادة والتردد، الذي يغرس أنيابه في قلوبنا! مازلنا نعيش متعثّرين بين أشواك العيب، وقوانين محنّطة، تمنعنا من تذوق طعم المغامرة، وتفقدنا روعة اكتشاف الحياة ومتعة السفر!

أرثي لحال شبابنا، حين يكون فقيراً، تخنقه الهموم والمسؤوليات، أما حين يكون غنياً، فيرفل بحرير الدلال والاتكالية، حتى إنه لا يجرؤ على الحركة وتغيير ذاته! يفتقد شبابنا حرية الإرادة، هل هي التربية التقليدية، التي تخاف على الشاب كالطفل الصغير؟ هل هي رغبة الأهل بالتملك؟ في كلتا الحالتين تضيع شخصية الشباب العربي! ومما زاد الطين بِلّة الفراغ الروحي والفكري، الذي يعيشه معظم هؤلاء الشباب!

في الطريق إلى بيت (جين) تحدثنا، ونحن نتأمل غلاء الأسعار في المحلات، فقالت صديقتي: إنها الجنون بعينه! ثم أضافت: لا تظني أني بخيلة فأنا على استعداد للدفع، لكن حين أقتنع بأن هناك معقولية أو جمالية تستحق الدفع! كم أحسست في تلك اللحظة بأنها قريبة من روحي رغم فارق العمر والثقافة!

تناولنا في بيتها الشاي المعطّر بطعم البرتقال، على ضوء الشموع، ارتدت الجوارب، التي أهديتها لها، وبدأت ترقص رقصة هندية، فهي الآن تتدرب على الرقص في معهد خاص، وعليّ أن أكون أول المشجعين! صفّقت لها، حتى احمرّت يداي!

كلما التقيتها، أتذكر ابنة جيراننا (نجوى) لا أدري لماذا؟ ربما لأنها في مثل عمرها تقريباً، وتعاني مثلها متاعب في العمل، لكن (جين) تبحث عما يسعدها، تصرف المال من أجل تعلّم الرقص، وتفكر طبعاً بزيارة دمشق، بعد أن زارت اليمن، وستزور تونس! يدهشني سعيها الدائب للتجدد! لهذا تملأ وقتها بالعمل والمغامرة، وهي رغم ذلك، تفرّغ جزءاً من وقتها للعمل التطوعي! حدّثتني أنها تذهب كل يوم (أحد) إلى إحدى

العجائز؛ لتقرأ لها (بسبب عجز عينيها عن القراءة) تساءلت: كم عدد الشباب عندنا، يفكرون بعمل الخير، مع أنهم يدّعون التدين! بدا لي إيمان الكثيرين منهم، ما زال محنّطاً! يعزلهم عن العمل الصالح! حتى إننا اليوم نعاني من مرض النفاق الإيماني، وعدم انسجام قول الإنسان مع فعله! أ لم يعاتب القرآن الكريم هؤلاء "يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون(2) كبُر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون(3/ الصف)

كتبت إلى أختي صفاء "ضغط العمل هنا متعب، لم تحدثني (صديقتي) جين بالتفصيل عن متاعبها، لكن يبدو أنها تبحث عن عمل آخر! تأملت لا الفتاة الشرقية مرتاحة ولا الغربية! لكن كل منا مسؤول عما يحقق أمنه الداخلي ورضاه عن ذاته! كل منا عليه أن يتعب من أجل تحقيقه! إنها تبحث عما يسعدها في المعرفة أو ممارسة هواية ما أو سفر أو عمل الخير أو علاقة إنسانية... إنها تنفتح على الحياة بأوسع معانيها! في حين تنغلق معظم فتياتنا على فكرة واحدة (الحب والزواج).

* * *

الاثنين 2008/2/4

دعاني (د.عادل) إلى العشاء، كانت مائدة باذخة، كعادتنا في الشرق، يبدو أن الإقامة الطويلة في باريس، لم تغيّره، تذكرت دعوة أخت المدام (سمكة كبيرة، وسلطة فقط)

أعترف بأنني وقعت في غرام بساطة الفرنسيين، لكن هل أستطيع أن أنجو بنفسي من عاداتنا الباذخة في الولائم، فكثيراً ما أجد نفسي ضحية للمظاهر، التي لا تهتم بتعب سيدة البيت، هذا إذا لم نفكر بالتكلفة الباهظة! ومتاعب هضمية لاحقة!

كان الفساد في بلدي بطل أحاديثنا، وقد ذُكر نموذج عنه، أحد الأساتذة الجامعيين، الذي عُين سفيراً في إحدى دول أمريكا الجنوبية، فتحوّل إلى تاجر أفيون! أما أستاذ آخر فقد عُين في بلد شقيق مستشاراً ثقافياً، فاتُهم بالمتاجرة بالعملة الصعبة! وكان حريصاً على أداء صلاة الجمعة في الجامع مع أنه غير مسلم!

قلة من السفراء العرب من يملك مشروعاً ثقافياً، يقدّم صورة حضارية لبلده! يقاوم الصورة النمطية للعرب! التي شوّهها الإعلام! وصلنا إلى نتيجة أن المنصب لدى كثير من مدّعي الثقافة فرصة للنهب والتسلط، وتراكم الثروة! أما خدمة القيم والانفتاح على الآخر، قلما نجد من يلتفت إليه داخل الوطن وخارجه! يا الله ما هذا التلوث الأخلاقي الذي نعيشه؟

تساءلت: أي صورة يقدّمها أمثال هؤلاء النخبة عن العرب! حين نضعهم في منصب حساس!؟

يبدو أن الإنسان حين يخرب إحساسه، يخرب ضميره، فينهار كل شيء فيه! عندئذ يسهل عليهم خراب الأوطان! لهذا ليس غريباً أننا مازلنا نعيش جميعاً عصر الانحطاط!

* * *

الثلاثاء 2008/2/5

التقيت اليوم بصديقي (د.زهير) من مدن الملح دعاني للغداء فاعتذرت، وقلت: نشرب الشاي ونتحدّث! أعجبني تعامله البسيط، وعدم إلحاحه! كم بدا معجباً بحياة الفرنسيين!

حدّثته عن رعبي، حين استقبلني، اليوم، كلب أثناء خروجي من المصعد، فقال لي: هنا حتى الكلاب لا تؤذي! لكنه انتقد حياة الفرنسيين، قائلاً: كل شيء، هنا، يقاس باليورو، قلت له: ألا تلاحظ أن كثيراً من الناس في بلادنا، يحسبونها بالقرش مثلهم!

وجدته، رغم ذلك، يحلم بالاستقرار في فرنسا، يريد أن يترك بلاده، التي تتراجع فيها الحريات! كما يزعجه وضع المرأة؛ لهذا قال:

– كانت المرأة البدوية، تضطر لوضع الخمار على وجهها؛ ليقيها الغبار والشمس! أما الريفية فلم تكن تضعه!

– قلت له: ألا تلاحظ أن مظاهر التشدد، تأتي في بلادنا من المدينة، التي من المفروض أن تكون أكثر انفتاحاً من الريف!

– رغم مظاهر التطور (الأبنية والسيارات...الخ) مازلنا نعيش التخلف الإنساني؛ لأننا معنيون في التركيز على المظاهر، أما الجانب العقلي والنفسي فلا نهتم به أبداً!

– إننا بذلك ندمّر إنسانيتنا، التي هي أساس النهضة والتغيير!

لفت نظري مدى الرفاهية، التي يتمتع بها أستاذ الجامعة في مدن الملح! لا يكتفون بتقديم راتب ضخم! بل يقدّمون له إجازة جامعية مدتها سنة (المنحة لدينا أربعة أشهر) وإمكانات مكتبية هائلة،

تذكرت عملي في تلك المدن (مدة سنة ونصف) كيف كانوا يحرموننا كل هذه الامتيازات، التي يقدّمونها لأبنائهم! بل يحملوننا عبء ساعات عمل إضافية، دون أي تعويض مادي! مما جعلني أحس أنني أعمل وفق نظام عبودي، لا علاقة له بإسلام "لا فرق لعربي على أعجمي إلا بالتقوى".

أثناء عودتي إلى بيتي مساءً، انسالت ذكرياتٌ، عشتُها في إحدى مدن الملح! ما من مرة اضطررت فيها إلى المشي إلا وكان الخوف رفيقي! خاصة أنني لم أسدل ستارة سوداء على وجهي!

تذكرت، أنا أستمتع بحرية المشي في قلب باريس(بلد الكفار!) يرافقني شعور الطمأنينة، ويغمرني إحساس بالأمن مشوب بالاحترام، غالباً! لا يمكن أن أنسى لحظة أنزلني السائق (الباكستاني) ذات مرة بعيداً عن بيتي بضع خطوات، كيف التهمني وحش الرعب، إذ كان عليّ السير تحت وابل نظرات، يسوطني بها أصحاب الدكاكين أسفل العمارة، التي أسكنها! عندئذٍ دمعت عينايّ من القرف، وعاتبت السائق في اليوم التالي قائلة: لو كنت ابنة البلد! لما فعلت ذلك! فالسائق ينتبه لتصرفاته مع أسياده، أما مع الغرباء أمثاله فلا! وبذلك قد يميّز في المعاملة طالبة (من سكان البلد) على أستاذة جامعية (من خارجه) تمييزاً هل أدعوه عرقيا أم طبقياً أم جغرافياً أم..؟

عدتُ في ذلك البلد إلى عصر الحريم، وعشت مفارقة غريبة! إذ تراني قوانينه عالةً على الرجل (أخي) رغم أنني أعيله وأطعم أسرته! أي جنون! لهذا أسرعت بالعودة إلى بلدي! ورفست بقدمي راتباً محترماً،

يعادل عشرة أضعاف راتبي في سورية، إذ كان من الصعب عليّ أن أرهن روحي وإنسانيتي من أجله!

* * *

الأربعاء 6/2/ 2008

كنت حريصة، في آخر فطور مع العائلة، على إظهار مشاعري واهتمامي بها! أسرعت بتقديم علبة التمر إلى (مسيو بونور) قبل أن يحتسي القهوة، فأبعدها بحركة غاضبة من يده، ليحسّسني برفضه لها! انكسر شيء في داخلي! هاجمتني غمامة حزينة! تُرى هل كنت أزعجه، كل هذه الفترة من إقامتي بتصرفي وتدخلي في شأن خاص به؟ لكنه لم يصرّح! وأنا معتادة على صراحته! آلمني أن يساء فهمي، وأُعدّ في نظره حشرية! أقيّد حريته باهتمامي بصحته، وتذكيري له بأشياء لم يعتدها! لعلي أبالغ في حساسيتي، ربما ثمة ما يزعجه لا علاقة له بالتمر! لكنه أسقط غضبه عليه! فقد اشترى ذات مرة تمراً! خاصة أن سفره غداً! أعتقد أن التوتر من أعراض السفر!

قلت له: سترتاح منذ الآن من التمر والقمح الكامل! لم أسمع منه أو من زوجته كلمة! ترى هل هذا الصمت علامة الموافقة! تمنيت أن أسمع كلمة تعبّر عن شعور أو رأي تجاه تصرفاتي! لم ألاحظ أي اهتمام في وداعي!

أحسست أنني أنتمي إلى عالم المشاعر في تلك اللحظة، أو عالم المبالغة فيها، أما العائلة فتنتمي إلى عالم مختلف، لا علاقة له بالانفعال! أدركت أن أربعة أشهر، لن تجعل مني جزءاً من عالم الآخر، يعزّ عليه فراقي، مثلما أحسست!

كل ما قمت به كان بملء إرادتي، لا أحد منا يدين للآخر بشيء، يصح هذا على الصعيد المادي! لكن متى كان الإنسان مادة فقط؟ هناك الروح، التي تتجلى في المعاملة والأخلاق! هناك نبرة الصدق، التي كنت أحسّها، تملأ قلبي قبل سمعي! لا يمكن أن أنسى جو الأسرة، الذي منحاني إياه، فكان (الأب) يناديني صباحا (مجيدة) لنعدّ الفطور معاً! في حين يترك ابنته نائمة! لتنعم بحريتها، أما أنا فقد كنت أجد حريتي في المشاركة في الطعام والحديث! تساءلت: هل كنت أزعجهم بحشريتي وعاداتي الشرقية؟ طلبت منهما أن يسامحاني عن أخطائي!

ردّا: ليس هناك أخطاء! ترى هل بدآ يستخدمان لغة المجاملة في لحظة الوداع؟ لا أعتقد فقد عايشت في هذا البيت الصراحة! حين يزعجهم أمر، يتبدى في تصرفاتهما إن لم يتبدّ في أقوالهما! لهذا أحسست بقرابة نسجها الصدق والود بيننا!

ازددت تعلقا بهما! ربما بسبب فقدي لأمي بعد يومين من وصولي! بحثت فيهما عن أهلي؛ لعلي أتخفّف من عبء الغربة! ووحشتها! فلم يخِب ظني!

أنا اخترت السفر في المكان وفي الإنسان؛ لأنني أعرف نفسي، لا تستطيع العيش دون دفء العلاقات الإنسانية، سواء أ كنت في الشرق أم في الغرب!

* *

على مائدة الغداء كان حوارنا الأخير، تبدّت لي حساسية (مسيو بونور) للثقافة الفرنسية ورموزها، مثلما لاحظت حساسيته من قبل للغة الفرنسية، فقد انزعج حين قلت له:

- إن جاك بيرك ترجم القرآن الكريم في مرحلة نضجه، بعد أن بلغ سن التقاعد!

- فردّ بحدة: جاك بيرك مفكر مهم وناضج منذ بداياته، وقبل أن يترجم القرآن!

- لكن الزمن، على ما أعتقد، ينضج خبرة الإنسان ومعارفه على نار هادئة! فالأيام لا تمرّ عبثا على المفكر، إنها تزيده وعياً...الخ! وبذلك يكون مرور الزمن في صالحه! إذ يستطيع التعبير عن أفكاره بيسر أكبر!

أعترف بأنني لم أستطع إقناعه، أصرّ على رأيه باحترام ودون تشنج! كان هذا النوع من الحوار مصدر متعة لي، يحفّزني على التفكير، ويمنحني فرصة الإصغاء لوجهة نظر مخالفة لرأيّ! وهذا ما كنت أحب أن أدرّب نفسي عليه!

كنت، أحياناً، أتساءل: هل هذه الطيبة، التي تتبدى في التعامل الراقي معي، سببه الثقافة؟ أم هي نوع من المسايرة بصفتي صديقة ابنتهما؟! لكنهما غير مضطرين لها! فهما يعليان شأن الحرية، لا يضغطان على أنفسهما من أجل الآخرين!

وأنت هل تنزهين نفسك عن النفعية؟ ألم تبحثي عن جو الأنس، الذي تمنحه الأسرة؟ لكن هل الحاجة إلى إقامة علاقة إنسانية أساسها المودة والاحترام نفعية؟ أليست هذه المشاعر، هي التي ما يقوّينا، فتدفعنا إلى مقاومة بشاعة الحياة وقهر الغربة في وطننا وفي خارجه!

أعترف بأن في داخلي رغبة ملحة في بناء علاقة وئام بين الشرق والغرب؟ بذلت جهدي! لكنني لا أدري إلى أي مدى أفلحت؟!

❊ ❊ ❊

الخميس 2008/1/7

آلمني أن يسافرا قبلي في رحلة إلى مصر! سأبقى في البيت وحدي يومين! اهتما بتفاصيل عودتي، أعطياني رقم هاتف مكتب تكسي، يأخذني إلى المطار، وبيّنا لي ما يتوجب عليّ قوله!

لم يطاوعني قلبي أن أدخل غرفتي، وأتركهما وشأنهما، حتى موعد رحيلهما! قبل أن يغادرا البيت أعطيت كل واحد منهما قطعة شوكولا (دايت) وقطع صغيرة من القمر الدين، وقلت مازحة: هذه مؤنة الطريق! كنت أريد أن أقول هذه ذكرى مني! لكنني استسخفت ذلك!

في لحظة خروجهما من البيت، لم أستطع إغلاق الباب، انتظرت مجيء المصعد، وحين فُتح بابه، دخل (مسيو بونور) مشغولاً بالحقائب، لحقته المدام، نظرت إلي، تودعني بابتسامتها الطيبة، فلوحت لها بيدي وبقلبي! دون أن أستطيع الابتسام، فقد هاجمني حزن الفراق!

دخلت غرفتي وأنا أردّد قول المتنبي:

خُلِقتُ ألوفاً لو رجعتُ إلى الصبا لفارقتُ شيبي موجعَ القلبِ باكياً

❊ ❊

اتصلت صديقتي (روعة) تعتذر عن اللقاء، أُصيب أخوها في حادث سير مروّع! بدت مضطربة وخائفة عليه! ستبقى إلى جانبه، ترعاه في المشفى (في جنيف) كما رعت زوجها من قبل! طمأنتها أن الله، لن يتخلى عنه! سيحفظه لها، كم تمنيت الوقوف إلى جانبها!

قلت في نفسي: كأنها على موعد مع الحزن والقلق والخوف! نظرت إلى الهدايا الصغيرة، التي كنت أنوي تقديمها إليها، عزّ عليّ أن أقدّمها لغيرها! واستبعدت فكرة إعادتها منبوذة إلى دمشق! ولكن ماذا أفعل بها؟ طرأت على بالي فكرة أن أذهب إلى عمارتها، وأتركها أمانة لدى البواب! قلت: هذه فرصة أودّع فيها أحد رموز باريس (برج إيفل) ومكان تسكن فيه أحد رموز بلدي (الأديبة روعة)!

تأملت البناء الرائع، الذي تسكنه، المطل على صديقي السين! سرح نظري في جماله وأناقته، وقلت: كل ذلك لم يستطع أن يمنحها عزاء، يبدو الأشياء مهما عظمت، أعجز من أن تنسينا حزناً استوطن أعماقنا، أو قلقاً يحاصرنا من أجل أنفسنا أومن أجل أحبتنا!

آلمني أن أسافر دون وداعها! فقد أحسست بأنها قريبة من روحي! كم تمنيت أن أعبّر لها عن تعاطفي، وعن رغبتي في التخفيف عنها! قلت في نفسي: لعل هداياي الصغيرة، ورائحة الورد الشامي والزعتر، تقوم بهذا الواجب!

في طريق العودة ركبت المترو لآخر مرة، بدأت أودّع ركابه، وأنا أتأملهم بإعجاب، فمعظمهم مستغرق في عالم القراءة! إنهم يستمتعون بالمعرفة والعمل! إنهم لا يجيدون، مثلنا، تضييع الوقت! إنهم بعيدون

عن ثقافة الموالح (أكل البذر والقضامة) التي تنتشر في بلادي محلات بيعها قدر انتشار المكتبات في فرنسا!

أثناء خروجي من المحطة هالني أن أرى رجلاً، ينام على رصيفها، تساءلت بغباء: كيف ينام، هنا، ألا يزعجه هدير المترو؟ كل هذا الغنى، الذي تتنعم فيه باريس، لكنها لم تستطع إيجاد حل للمتسولين!

مشيت أودّع الشارع! أودّع المارة المسرعين، غير العابئين بي، أستمتع بلقاء الأناقة مع البساطة! أتساءل بحشرية داخلية: كيف ترتدي المرأة (الميكرو جيب) في عزّ الشتاء، لا أحد يبصبص على ساقيها! لكن ماذا عن البرد أم أن الأناقة تدفئها!؟كأنني سمعت صوت أمي، يهمس في أذني: "الغويه بدّو أُوه" (الاهتمام بالجمال يحتاج إلى بذل جهد وقوة) لاحقت عيناي أخرى، تضع مكياجاً، تخفي به بصمات الزمن، ولكن هيهات! يبدو أنه زادها عمقاً!

* * *

الجمعة 2008/2/8

عليّ اليوم أن أبتكر وداعاً، يليق بباريس، التي استولت على قلبي من النظرة الأولى! أول ما فكّرت به، هو أن أقوم بواجب عزيز على قلبي، فأزور صديقي(السين) وقفت أمامه وقتاً، أتملاه بقلبي وبعينيّ الحزينتين، كم يعزّ عليّ فراقه، مثلما يعزّ عليّ فراق أهله! قلت له: أعدك يا صديقي، قبل أن أذهب إلى المطار، غداً صباحاً سأمر

لأصافحك! لا تظن أنني سأنساك! ذاب قلبي قبلة على صفحتك الرقيقة الحنونة! عاهدته على الوفاء! أن أحاول زيارته! قلت له: سأسافر، وفي قلبي غُصةٌ، لأنني لم أستطع أن أشبع منك! طلبت منه أن يعذرني، إن لم أستطع زيارته مرة أخرى! أخبرته بأن ذكراه ستملأ روحي فرحاً، ينعش بقية أيامي!

* *

انتقلت من عالم الجمال إلى عالم المعرفة في حضن الطبيعة (حديقة النباتات) فقد كنت قد شاهدت، يوم الأحد الماضي صفاً طويلاً للدخول إلى معرض لأعماق المحيط! فأدركتني الحماسة للدخول، لكنني أجلّته، إلى يوم أقلّ زحاماً! أردت من خوض هذه التجربة أن تكون بصمة وداع باريسية!

كم أحببت، هنا، الاحتفال بالمعرفة! إنهم يبتكرون طرقاً لتقديمها! ما إن دخلت المعرض، حتى أحسست أنني أمام مهرجان، يحتفي بعالم المحيط وأسراره! التي أمسكت بيدي؛ لأعيش ظلماته، وألامس كائناته، التي تبدو تارة ثابتة، تتأملها العين؛ لتقترب من دقائقها أكثر وأكثر (إنهم يعتنون بشرحها رسماً وكلمةً) ليرافق الزائر مراحل حياتها وغذائها بعينيه وعقله! كما يرافق كائناته بقلبه تارة أخرى، حين تخفق بالحياة والحركة في وسطها الطبيعي، وذلك بفضل شاشة كبيرة، جلست أمامها، أتأمل هذه الكائنات الشفافة الملونة بلون السحر والحلم! وأقول: يا سبحان الخلّاق العظيم!

انتقلت إلى الجانب الآخر، حيث الأحجار الثمينة والصخور! مشيت أحسست كأنني أمشي بين صخور ضخمة، تُركت بشكلها الطبيعي! مما يجعل الزائر يحس بأنه يتجول فعلاً في أعماق المحيط، وقد لعب الإخراج دوراً مؤثراً (الإنارة، الديكور...)

وحين غُصنا في أعماق الأحجار الكريمة (في غرفة خاصة) فغرت فمي، وقد وجدت نفسي محاطة بجنةٍ من الألوان والأشكال!

أحسست، وأنا أسير برفقة أناسٍ، لا أعرفهم، أنني أشاركهم فرحة الاحتفال بالمعرفة، التي نسجت قرابة بيني وبينهم! انتقلت إليّ عدوى بهجتهم! نسيت وحدتي في مهرجان المعرفة والفرح هذا، أحسست بأنني جزءٌ من جمع غفير، يشارك فيه: الأطفال بصحبة أهلهم، طلاب المدارس، الشباب، حتى العجائز: أزواجاً وأصدقاء، أتوا ليُثْروا حياتهم، إنهم، هنا، يجددونها بالمعرفة والفن! سمعت عجوزاً تخبر صديقتها، ونحن نمشي بين الصخور، عن فيلم مهم، وتدعوها إلى حضوره!

تساءلت: متى تصبح المعرفة فرحنا اليومي، مثلهم؟ متى نعيش، ونحن نحتفي بالفن والمعرفة كباراً وصغاراً؟

لم أستطع إلا أن أقارن بين عجائز بلدي، وهم يشغلون أوقاتهم بالقيل والقال، أو حديث الأمراض، أو...وبين عجائز فرنسا، الذين يمضون أيامهم متمتعين بالمعرفة! قلت في نفسي: انظري إلى معظم شبابنا، ألا تتيه خطواتهم بين قتل الوقت بالتفاهة وقتل العقل بالجمود أو تبني أفكار متخلفة أو سطحية!

كأنني سمعت صوتا يقول لي: لكننا نعتني بالأم والأب، حين يبلغا عندنا الكِبرَ! في حين يهمل هؤلاء الغربيون عجائزهم، وينسونهم في دور

المسنين! لكن ألا نقلّدهم اليوم في هذا السلوك؟ ألا نجد قلة تُخفض جناح الذل من الرحمة لهؤلاء الأهل!

ليتنا نقلدهم في الاحتفال بالمعرفة! مثلما نقلّدهم في اللهاث وراء الاستهلاك، وإهمال العجائز!

* * *

قبل أن أخرج إلى المطار برفقة صديقتي (جين) وضعت حمّالة المفاتيح على طاولة صغيرة قرب الباب مودّعةً حنظلة، لعلي أتنزّه في الحياة بعد هذه السفرة، لكنني ما إن التفت، حتى وجدته يلهث ورائي راكضاً!...